المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة

يوسف وزليخا

تأليف: نور الدين عبد الرحمن الجامي

ترجمة وتعليق: عبد العزيز بقوش

الطبعة الثانية

2/328

يُوسُف وزُلَيْخا

المركز القومى للترجمة

إشراف: جابر عصفور

- العدد: ٣٢٨/ ٢
- يوسُف وزُلَيْخا
- نور الدين عبد الرحمن الجامى
- عبد العزيز بقوش
- الطبعة الثانية ٢٠٠٩

هذه ترجمة:

يُوسُف وزُلَيْخا

نور الدين عبد الرحمن الجامى

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦

فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo
e.mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel.: 27354524 - 27354526
Fax: 27354554

يوسُف وزُليْخا

تأليـــــــف: نور الدين عبد الرحمن الجامى

ترجمة وتعليق: عـــبد العزيـــز بقـــــوش



٢٠٠٩

رقم الإيداع: ١١٧٦٢ / ٢٠٠٩
الترقيم الدولى: 5 - 402 - 479 - 977 - 978
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

الفهرست

مقدمة

لم يكن نور الدين عبد الرحمن الجامى أوّل من نظم قصة "يوسف وزليخا" بالفارسية، بل سبقه إلى نظمها شاعران آخران أحدهما من "بلخ" اسمه "أبو المؤيد" والآخر من "الأهواز" اسمه "البختيارى"، وقد ضاعت منظومتاهما، ثم قام أبو القاسم الفردوسى بنظم هذه القصة، وإن كان هناك كثير من الباحثين يعترضون على نسبة القصة إليه.

وجاء الدور على شاعرنا لينظمها في القرن التاسع الهجرى ضمن مجموعته التى أطلق عليها اسم "هفت أورنگك" بمعنى: "العروش السبعة"، وتضم:

سلسلة الذهب، وسلامان وأبسال، وتحفة الأحرار، وسبحة الأبرار، ويوسف وزليخا، وليلى والمجنون، وخرد نامه اسكندرى.

وقد أصبحت هذه القصة من أكثر الموضوعات التى يطرقها الشعراء الرومانتيكيون فى إيران وتركيا، وإن كانوا قد أضفوا على أصولها كثيرا من الزيادات والإضافات، وأرجو أن تكون ترجمة هذا العمل إضافة جديدة للمكتبة العربية.

المترجم

عبد العزيز بقوش

بسم الله الرحمن الرحيم

- يا إلهى، اجعل بُرعم أملى يتفتح، وأنبت لى وردةً من روضة الخلد،
- واجعل روضتى باسمةً من تفتح تلك البرعمة، وعطر أنفى بشذى هذه الوردة،
- واجعلنى عارفًا بنعمك، فى دار الأحزان التى خلت من المؤاسين،
- واجعل قلبى شاكرًا ولسانى ذاكرًا،
- وهبنى سعادة الأيام بكتاب العقل، وامنحنى الغلبة على إقليم الشعر، 5
- فكما أنعمت علىّ بقلبٍ مفعمٍ بالجواهر، اجعل لسانى مبينًا لكنوز القلب،
- وعطِّر الدنيا بمسكى من أقصاها إلى أقصاها، مادمت قد فتحت نافجة طبعى،
- واجعل لسان قلمى حلوًا بأشعارى، واجعل صحيفتى معنبرةً بعطرى،
- فلم يَعُد للشَعر رونق، ولم يتبقَ من صحفه غير الاسم،

١٠ - ومـا عُدتُ أجـد نغـمةً من تلـك الألحان، فى حـانة هذا الكونْ عذب الأساطير،

- فقـد شرب الـندامى الشراب ثم رحلوا، وأخلوا الحـانات ومضوا،

- وما عُدتُ أشاهد ناضجًا ولا فجًا من محفل الشعرا، تحمل راحته كأسًا من ذلك الشراب،

- وقد ضـاع الدّنّ والكأس والساقى، ولم يعد مـتبقـيًا لدينا سوى الأحزان،

- فهـيا، اخلع يا جامى الحـياء، وقدّم مـا عندك من صافى القول وثمالته.

افتتاح الكتاب باسم الله
الواحد الأحد

١٥ - باسم من اسمه حرز الأرواح، وثناؤه جوهر سيف الألسنة،

- لقد نال اللسان - في الحلق - أمنيته بذكر اسمه، فوجد الرضاب من ينبوع إنعامه،

- وتبدّت للعقل منه كل لحظة آلاف الدقائق، التي تشبه الشَّعرة،

- ومشّط تلك الشعرة باللسان، وجعل من الأسنان مشطًا لها،

- فتعالى الله القيوم العالم، مانح القدرة لكل عاجز،

٢٠ - فقد زيَّن الفلك بالكواكب، وزيَّن الأرض بالناس،

- وشيّد سقف الفلك الدائر، فوق جدران العناصر الأربعة،

- وربط نافجة الوردة وسط برعمها، وجعل من الوردة قلادةً على صدر أغصانها،

- فهو ناسج قصب عرائس الربيع، ومقيم السَّرو على ضفاف الأنهار،

- رافع كل ذى همة عالية، مذل كل محب لنفسه،

٢٥ - غافر ذنب الماجنين، شاربى الخمر، آخذ الشيوخ المرائين بالطاغة،
- أنيس خلوة قائمى الليل، رفيق من صهرتهم محن النهار،
- تجود سحائب الربيع برونقها على الأشواك والياسمين من بحر لطفه،
- وتملأ ريح الخريف ساحة الخميلة بفُرُشٍ ذهبية من منجم جوده،
- وهو مالئٌ أفواه الصالحين سكرًا، ومُحيلُ عيش الجاحدين ضنكًا بقهره،
٣٠ - من كرم جوده تلك الشمس المضيئة، التى تضىء الدنيا ذرّةً ذرّة،
- فلو أنه حجب وجهه عن الشمس والقمر، لهوت الكرة فى ساحة فنائهما،
- وقد بثّ فينا مِنّةَ الوجود، فهو واهب الوجود للوجود والعدم،
- فلو هبط وهم الإنسان وإدراكه من سقف السماء إلى مركز الأرض،
- أو أنهما ارتفعا مائة مرّة، فلن يخرجا قيد أُنملة عن حكمه،

٣٥ - فـذاته مـبـرأة عـن الكيف والكم، وأكـثـر تـنزيهًـا عن الانخفاض والارتفاع،

- والعظماء أذلاء أمام عُـلوّ قدره، يكثر كمّ العلماء وكـيفهم أمام تفرّده،

- فالعقل مُضطربٌ أمـام ذاته، والطلب عاجز عن المضىّ فى طريقه،

- ولو لم يهدنا بلطفه، لازداد بعدنا عنه لحظةً بعد لحظة،

- وعندما يرتفع صوت هيبة جلاله، فى بلاطه الأبدىّ،

٤٠ - فإن الملائكة تستحى من جهلها، ويحار الفلك من دهشته،

- فخيرٌ لنا - نحن الحفنة المليـئة بالرغبة - أن نجلو مرآتنا من صدأ الرغبة،

- ونلجأ إلى نسيان وجودنا، ونتخذ من الصمت ملاذًا لنا.

ترتيب دلائل وجود الله سبحانه
والترغيب فى التأمُّل فيها

- حتّام تلهو أيها القلب كالأطفال فى هذا القصر الخيالى؟
- إنك من ربّته يد ذلك الطائر الجرىء، وكان عشك خارج نطاق ذلك القصر،
٤٥ - فلماذا صرت غريبًا على ذلك العش، وسكنت الخرائب كأراذل البوم؟
- انفض جناحك وريشك من علائق التراب، وحلّق عاليًا حتى شرفة إيوان الأفلاك،
- وتأمل (النجوم) ذوات الملابس الحريرية الزرقاء، وهى ترقص وتنثر رداء النور على الكون،
- وهى تدور جميعًا، صباح مساء، متوجهةً إلى هدفها، سالكةً طريق التوفيق،
- بيد أن لكل واحدة حركة خاصة، فتهتز بصولجان الإرادة مثل الكرة،
٥٠ - فواحدة تتجه من الغرب إلى الشرق، وواحدة تغرق سفينتها فى الغرب،

- وواحدة تبعث حرارتها في محفل النهار، وأخرى تضيء محفل الليل،
- وواحدة ترسم حروف السعادة، وأخرى تمزق خيوط السعادة،
- وهي سريعة في قطع المنازل، لا تملك الراحة من هذه الحركة،
- لا يعتريها وهنٌ من وعثاء طريقها، ولا يصيب وسطها ألمٌ، ولم تسحق أقدامها،

٥٥ - فماذا يعرف الإنسان عن عملها وكثرة ترحالها؟ فقد صارت أجسامها وجوهًا، فلمن تتوجّه؟
- إنها تبدو في كل لحظة بصورة جديدة، ولكنها ليست جديرة بأن تسمو إلى مرتبة خالقها،
- فحتّام تسلم عنانك ليد الشك، وتتّجه إلى كل واحدة منها قائلا: «هذا ربي»،
- اطرق باب اليقين كالخليل، واعزف لحن: «لا أحب الآفلين»[1]
- واترك ظن كل وهم وكل شك، وتوجه بوجه (وجّهت وجهي)[2] إلى الواحد،

٦٠ - واعلم أنه واحد، وانظر إلى الواحد، وقل إنه واحد،

[١] إشارة إلى قول الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) ﴾. الأنعام. الآيات: ٧٦، ٧٧، ٧٨.

[٢] إشارة إلى قوله سبحانه: ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩) ﴾. الأنعام. آية (٧٩)

واطلب الواحد، وناد الواحد، وابحث عن الواحد،

- فمن كل ذرّة وجهة وطريق إليه، شاهدٌ على إثبات وجوده،
- ومطبوع على قلب كل عالِم، أن لكل صورةٍ مصورًا،
- فلو ظهرت آلاف الصور على أحد الألواح، فإن الألف لا تستقيم (على ذلك اللوح) بدون كاتب،
- ولن تستطيع أن تعثر في هذه الدار الفانية على لبنة، دون أن يصنعها - قالبُ إنسانٍ طيّب السّريرة،

٦٥ - فقد كتب فوق اللّبنة بقلم الأصابع، أنها صُنعت بيد أحد العقلاء،

- وحينما تقرأ هذه الكلمة على صفحة اللبنة، فلا تغفل عن أمر صانعها،
- وكيف لا تشغل خاطرك بخالق كل هذه المخلوقات الظاهرة في الكون؟
- وإذا رأيت صنيعًا، فتنبّه إلى صانعه، وقِس الصانع بصنعه،
- فإنك لاتعامُلَ لك إلاّ مع الصانع عند النفس الأخير الذى لا مهرب منه للإنسان،

٧٠ - فتوجّه إليه - وحده - بوجه المحبّة، واطلب منه أن يختم عملك بالسّعادة.

رفع الأيدى بالمناجاة لمساعدة المحتاجين

- يا إلهى! لقد كنا طلقاء من صورة الوجود، كما كنا أحرارًا من خوف الفناء،

- ففى البداية خلقتنا من العدم، وقيّدتنا بقيد الماء والطين،

- وخلّصتنا من الضعف والعجز، وأوصلتنا من الجهل إلى العلم،

- وأرسلت إلينا كتابًا مبينا، خاطبتنا - فيه - بالأمر والنهى،

٧٥ - فخلطنا بين الحسن والقبيح، وأفرطنا تارةً وفرّطنا أخرى،

- ونادرًا ما سلكنا سبيل الأوامر، وكنا نمضى فى طريق النواهى،

- ومع ذلك لم تتخلّ عن دستور العناية، ولم تحجب عنّا نور الهداية،

- وما جدوى ذلك النور الذى أقتبسه منك - دون حجاب - إذا لم يكن هنا جهادٌ منّا؟

- وها نحن فى اضطراب بسبب عدم جهادنا، فامنحنا التوفيق فى السعى لنسعى،

٨٠ - وإذا كان العالِم غريقًا - فى ذنوبه - مثل الجاهل، فما الفرق إذن بين العلم والجهل؟

- فلا تضيق علينا طريق العمل الصالح، بسبب مكر النّفس الأمّارة بالسوء،

- وافتح لنا طريقًا للرحمة فى ذلك الضّيق، وتلك الآهات التى نحن فيها،

- وادعنا إلى بلاط حضرتك من ذلك الطريق، وأخرجنا - من هذه الدنيا - على الإيمان.

تخصيص المناجاة للنّاظم. دون عون المشارك والمساهم

- أنا ذلك الطائر الذى حبويك شركه، وطلسمك تعويذة خوفه،

٨٥ - وأنت الذى هيأت لي الأسباب، وفتحت أبواب النعمة أمامى،

- وكرّمتنى بسعادة الخدمة، ورفعت رأسى بتوفيق السّجود،

- وجعلت جبيى بلون الإثمد فى طريق (عبادتك)، وكحلت عينى المبصرة (بنورك)،

- وأطلقت لسانى بشكرك، ومنحت قلبى لذّة ذكرك،

- ووضعت فى فمى لسانى، لقمةً سائغةً بالحلاوة والدّسامة،

٩٠ - فلا هو بالذى تسحقه الأسنان، ولا بالذى يلحقه ألم الحلق أثناء الطعام،

- فامنحنا الشكر على ذلك الحلو الكلام، وحلّ عملى، وخلّصه من المرارة،

- ولاتعوّد لسانى سيئ القول، ولا تجعله مصدر خسارتى،

- ولو ندّت كلمةٌ خاطئة من قلمى، يقع بسببها الاضطراب،

- فاصفح بعفوك عن خطئى، ولاتُلقِ بى فى ابتلاء الإغراء

مثل قلمى،

٩٥ - فإنى نبتةٌ تعهدتها يد وفائك، فجعلتها تنمو من الماء والطين،

- فرأسى تميل كل صوب بسبب الهوى، إلا أن قدمى راسخة فى ثرى حبّك،

- والطين الذى يغوص فيه قدمى فى ساحة حبّك، خيرٌ عندى من ذلك الورد الذى لا ينم عن لونك ورائحتك،

- فاجعلنى كبرعم ذى قلبٍ واحدٍ فى هذا البستان، واجعلنى كالشقائق موسومًا بجرحٍ واحد،

- فلا يتحقق المراد فى هذا الطريق إلا بقلب واحد، أما وجود القلبين فيؤدى إلى عدم تحقيق المراد،

١٠٠ - فإن الفستقة ذات الفلقة الواحدة لا ترى كثيرًا من أذى السّندان مثل اللوزة ذات الفلقتين،

- وعندما تحمل السنبلة مائة حبة فى صدرها، يُشهر سيفٌ فوق رأس كل حبّة،

- وعندما تكون البرعمة واحدة القلب، تنجو من الأشواك، وتفلت من الأذى مع وجود آلاف الخناجر،

- فلو أن ذنوبى قد تجاوزت الحدّ، فإن إحسانك يفوقها آلاف المرات،

- ولو أنها بلغت مائتى كومة، فإنك تستطيع أن تحرقها

ببرق آهتى،

١٠٥ - ولو سوّدت مائتى دفتر بالعصيان، فإنك تستطيع أن تمحوها بدموع عينى الغزيرة،

- وهأنذا الآن أسكب الدم من أهدابى، من جرّاء متوردة الوجه، كنت قد نظرت بعين الطمع إليها،

- وإنى أغسل طيف وجهها من عينى، ولهذا السبب تنساب الدموع قانيةً على وجهى،

- فمع أن النظر قد هوى بى إلى الوضاعة، فإن الدمع قد أعاد العزة إلى وجه عملى،

- فعيناى نهران من النَّدم، وهذا هو عزّى وشرفى إلى يوم القيامة،

١١٠ - علّى أحقّق نفعًا بهذه الوسيلة، فبلغ سلامى إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم).

فى وصف سيّد المخلوقات، وإمام الكائنات، عليه أفضل الصلاة والسلام

- عندما توّج القلم (الأزلى) اسم محمد (صلى الله عليه وسلم)، جعل من ميمه (الأزلى) حلقة لرقبته، ومن الأخرى حلقة لخصره،
- وبفضل هذا الاسم مُحى لوح العدم، وظهرت الملوك والملائكة من حلقة ميمه،
- وحاشا لله أن يستطيع العقل، بكل ماله من إدراك، أن يقف على سرّ (حائه).
- فقد أضاءت (حاؤه) هذا الدير ذا جهات الدنيا الست، والروضة الثامنة من الجنات الثمانى،

115 - وعندما زيّن القدم بخلخال (دَالِه)، توالت أسماء بقية الأنبياء فى عقبه،
- فياله من اسم ذلك الذى لم يسبقه اسم آخر فى ديوان الوجود،
- وحينما يترنّم لسانى باسمه، يفعم قلبى وروحى باللّذة،
- فإن كان هذا هو شأن الاسم، فما بالك بالمسمّى، إنه أكثر المخلوقات تعظيما،

- فقـد كرّم الله بنى آدم على المخلوقات، وجـعله - عليه السلام - أكثر الخلق تكريمًا،

١٢٠ - ومنحه الزعامة على الزعـماء، ووهبه القيادة على ركب الأنبياء،

- فعندمـا خطا آدم فى طريق الوجـود، تَنَفَّسَ بمحبّـة وجه صباحه المزدان،

- ومالم يُفـتح الطريق لجوده، فـأنّى لسفـينة نوح أن تصل إلى "الجودى"؟

- وتنسّم الخليل مـنه نسيـمًا، جـعل النار عليـه بهـيجـةً كالبستان،

- وبشّر المسيح بمقدمه، والتمس الكليم قبسًا من نوره،

١٢٥ - ووصل جاهه من كنعـان إلى مصر، وكان يوسف عـبدًا يباعُ فيها،

- وسعد صـالح مع ناقته بذكرى مـحمله فى ذلك الوادى الذى كانت ناقته ترعى فيه،

- فهو سروةٌ باسقة من بستان الوفاء، و"تدرج" مزدانٌ من حديقة الاصطفاء،

- فَقَدُّهُ عماد تُبختر الفلك، وشفته أساس "يحيى العظام"،

- تعلو قدّه مظلة من السـحاب، كأنهـا القبة الذهبيـة فوق شمس رأسه،

١٣٠ - فعندما وجّه سهم الإشارة من سبّابته ذات البشارة المعجزة إلى مجنّ القمر،
- صارت حلقة ميم القمر نونين، وأحال سهمه الأربعين خمسين[1]،
- حقا! عندما كان ظهر يده للقلم[2]، فإنه خطّ بسبّابته شقًّا على صفحة القمر،
- فما كان يكتب، ولكنه بادر بالخط بقلم النسخ على التوراة والإنجيل،
- وقد تحرّر سروه المختال من الظل، فلتستظل الدنيا فى كنف سَرْوِه،
١٣٥ - فمنزلته كانت أعلى من الظل، فاستظلت به الأرض والسماء،
- وكان أصل جسده من الروح الطاهر، وما شاهد أحدٌ ظلاً للروح على الأرض،
- وصارت السماء مثل الأرض تابعين له، ولهذا خرّا على قدمه كالظل،

[١] يعنى بالأربعين حرف الميم؛ لأنها تساوى أربعين فى حساب الجُمّل، كما يعنى بالخمسيْنَيْن: نونين، لأن النون الواحدة فى حساب الجمل تساوى خمسين، ومعنى الشطر الثانى: أن سَهْم الرسول عليه الصلاة والسلام شقّ القمر الشبيه بالميم إلى هلالين يشبهان النونين

[٢] إشارة إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان أميًا.

- وقد جرحت شفته الياقوتية بحجر من الأعداء، فحطّم ظهورهم بحفنة من التّراب،

- ومع أنه أصاب عين كل كافر بالعمى، فقد أضاءت به عين الإسلام، وكأنه الإثمد،

١٤٠ - وكان فمه علبةً مليئةً بالدّر، فصارت علبة الدّر شبيهةً بعلبة المرجان[١]،

- وكان ديناراً من الحلم والأدب، فجاء ذلك الحجر محكمًا لاختبار ديناره،

- ولما كان ذلك الحجر الثقيل معياراً له، فإنه لم يظهر إلا كامل العيار،

- ولقد كان عمله تشييد جدار الإيمان، فصار بأربعة جدران بخلفائه الأربعة،

- فأين ذلك الشخص الذى يكابدُ الألم فى طريق الدين، فإنه سيجد لكل داءٍ دواء،

١٤٥ - فليكن ذلك الألم علاجًا لروح الجامى، وليكن قلبه راعيًا - على الدوام - لتلك الأحزان.

[١] يشير بعلبة الدر إلى فمه عليه السلام قبل كسر سنّه، أما علبة المرجان فكناية عن فمه صلى الله عليه وسلم بعد أن كسر سنّه.

فى معراج حضرة الرسول
صلى الله عليه وسلم

- فى ليلة هى ديباجة صباح الحظّ، أكثر من ألوان السعادة المتنامية،

- تشبهها ليلة القدر فى منزلتها، وليلة اكتمال البدر مقتبسةٌ من نورها،

- يخجل سواد طرّتها الحور، بياض غرّتها «نور على نور»،

- وقد مشّط نسيمها السنبل المجعّد، وأحَال هواؤها دموعَ النّدى حبّات،

١٥٠ - وأغلق الفلك الدوّار أبواب الإدبار على الدنيا بمسمار الثوابت،

- واستراح فيها الذئب والشاه، وسكنت المها إلى الأسد وأنست إليه،

- فشَفَقَةُ الطرب باسمة - من تلك الليلة - كالسَّحر، ونهار الشّدة فى فرارٍ منها طوال الليل،

- وفى هذه الليلة، فإن مصباح أهل البصيرة (صلى الله عليه وسلم)، الجدير بالثناء من الخليقة،

- احتجب عن الكفار مثل السعادة، فى بيت أم هانئ،

١٥٥ - واتكأ بكتفه على ساحة الأرض، واتّخذ من الأرض مهدًا لروحه الرقيقة،

- فقلبه يقظ وعينه فى نوم عذب، وما رأت عين الحظ مثل هذا النوم فى الرؤيا،

- وفجأة دخل عليه النّاموس الأكبر، بسرعة تفوق هذا الطاووس الأخضر[١]

- ووثبَ عليه قائلا: «انهض أيها السيد، فإن نومك الليلة قد هيّأ لك السعادة،

- واحمل إلى الخارج متاع وجودك من هذا المضجع زمنا، فإنك سعادة الدنيا، ومن الأفضل للسعادة أن تكون يقظة،

١٦٠ - إن مقصدى هو أن أحملك إلى طريق العرش، وقد أحضرت البراق السريع من أجل ذلك،

- فهو ينساب على الأرض كالجواد السريع، ويسبح فى الهواء كطائر «الهما» السعيد[٢]،

[١] إشارة إلى السماء.

[٢] هو طائر البَلَح: اسم طائر خرافى كل من يظلّله يصير ملكًا.
المعجم الفارسى الكبير. الدكتور إبراهيم الدسوقى شتا.
جـ ٢ ص- ٢١٩٩ - القاهرة.

- ويطوف بالأفلاك كعقل الفيلسوف، ويطوى الدنيا كفكر المهندس،
- ما امتلكت يدُ إنسانٍ عنانه، وما لامست قدم بشر ركابه،
- كأنه القلب الخالى من عشق الحسان، لم يكابد فخذه أذى جرح،
١٦٥ - فلو كان يلزمه مِزْودًا للطعام، لجعل أمر - الصعود إلى السماء - شاغله،
- وقد استراح ظهره الرقيق من ألم السَّرج، وما عانى ظهر سرجه الأذى من أحد،
- ولمّا اختال عليه السلام من بيته متجها إلى بيت السَّرج،
- سبّحت ملائكة السماء بقولها: «سبحان الذى أسرى بعبده».
- وسلكً ذلك البراق السريع بحافره العملة الشبيهة بالدراهم من مكة إلى الأقصى،
١٧٠ - وفى نصف لحظة بل أقل، دقّ بحلقة حافره حلقة باب المسجد الأقصى،
- وصار النبى عليه السلام إمامًا للأنبياء فى ذلك المسجد، وأصبح قدوةً للسابقين،

- وصـعـد من هناك إلى ذلك السـرادق الفـيـروزجى[1]،
فأحاط القمر به وكأنه الهالة حوله،
- فخطّ عليه السـلام على جبينه وسم العبـودية، ففاز من
تلك اللحظة باسم التمام،
- واشتد سيره من هناك إلى أعلى، ساكبًا الجود على مفرق
رأس عطارد،
١٧٥ - وقصد الزهرة مِن هناك، فتعلقت الزهرة بذيل وفائه،
- وأحـضر الفلك الـرابع الإبريق، لكى يغـسل قدمـه من
علائق الأرض،
- وعندما خطا براقه على الفلك الخامس، أخذ المريخ حظه
من ياقوته العذب،
- ونثر الدّر على المشترى من ياقوت شفته، فامتلأت حفبته
بالجواهر كالصندوق،
- وعندما وطئت قدماه السماء السابعة، قام زحل بحل كل
مشكلة عنده
١٨٠ - ومن هناك اتخذ من القـصر الثامن مسكنًا، فاسـتضاءت
عيون الثوابت منه،

[١] إشارة إلى السماء.

- وفتحت بنات نعش والثريا أفواهها ومدحته بنظمها ونثرها،
- وأخذ النسر الطائر يطوف حوله كالفراشة، عشقًا لشمع وجهه،
- وهوى النّسر كالظل تحت قدمه، شوقًا لسَرْوِهِ الجذاب،
- وعندما صعد على كوكب الأطلس، ألقى بأطلسه تحت قدمه،

١٨٥ - وعندما شق طريقه من هناك إلى سدرة المنتهى، وَهَن جناح جبريل عن الطيران،
- فوثب إسرافيل من مكمنه، وجعل الرفرف هودجًا للاحتفاء به،
- وتشرّفَ الرفرف بوجوده، وسرعان ما استقبله العرش من يد الرفرف،
- وترك الجسد كالخرقة فى يد العرش، ورفع علم التجرد على اللامكان،
- وحملوه يدًا بيد كالوردة من إيوان الدنيا الوضيع إلى ذلك البلاط المقدس،

١٩٠ - وخلّص خذعة الجهات من أبوابها الستة، وعبر بمركب المكان من الضيّق،

- فوجد مكانًا خاليًا من المكان، غير مسموح لجسد إنسان أو روحه بالوجود هناك،
- فمحا القِدَم صدأ الحدوث عن روحه، ومحا الوجوب عنه صفة الإمكان،
- وبقى مع الواحد محررًا من قيد العدد، بعيدًا عن الكثرة، مبرأ من القِلّة،
- ورأى ما هو خارج نطاق الرؤية، فلا تسلنا عن كيفية ذلك،

١٩٥ - ولا يتسع المجال هناك للكم أو الكيف، فأمسك لسانك عن القِلّة والزيادة،
- فقد سمع فى ذلك الوقت كلامًا بغير صوت، كله معانٍ فى معان، وأسرار فى أسرار،
- لاعلم به للفم أو اللسان، ولا يصاحبه النطق أو البيان،
- تعجز أذن الروح عن إدراكه، ويقصر إصبع يد القلب عن بيانه،
- تضيق ثياب الفهم على قوامه الفاره، ويعرج جواد الوهم فى صحرائه،

٢٠٠ - فينبغى كفّ اللسان عن الخوض فى هذا الحديث، فإنه أسمى من القول والسماع،

- فلا تتجاوز حدّك يا جـامى، وانجُ بنفسك من هذا البَحْر المهلك للروح،

- ولا تنبس ببنت شـفةٍ فى هذا المشـهد، واخـتم الكلام، والله أعلم.

ارتداء ثياب التّضرع،
والمثابرة فى اقتباس الشفاعة

- لقد فاضت أرواح الخلائق من فراقك، "فترحم يا نبىّ الله ترحّم"،
- ألست فى النهاية رحمة للعالمين؟ فلماذا أنت غير آبهٍ بالمحرومين؟

٢٠٥ - وانهض - أيها الشقائق النّدية - من الثرى، فحتّام نومُك كالنرجس؟
- وأطلّ برأسك من بُردك اليمانى، فطلعتك صباح الحياة،
- وأحِلْ ليل أحزاننا نهارًا، واجعل نهارنا مباركًا ببركة وجهك،
- وارْتَدِ ثوبًا معنبرًا، وضع على رأسك عمامة كافورية،
- واجعل الجدائل تسترسل من رأسك، وألقِ بظلك تحت سروك الباسق،

٢١٠ - والبس نعليك من أديم الطائف، واجعل من خيوط أرواحنا أربطةً لها،
- فقد جعلت خلائق الدنيا عيونها بساطًا لطريقك، وهم يرغبون فى تقبيل قدمك كبساط السعادة،

- فطأ بقدمك ساحة الحرم من حجرتك، وضع قدمك على مفارق مُقَبلى طريقك،

- ومُدّ يد العون للمتعثّرين، وكن أنيسًا للعاشقين،

- فمع أننا غرقنا فى بحا ر الذنوب، وسقطنا على تراب الطريق بشفاه جافة،

٢١٥ - فإنك سحاب الرحمة، ومن الخير أن تلقى نظرة على الظمأى فى بعض الأحيان،

- فما أطيبه وقتا ذلك الذى وصلنا فيه إليك، وكنسنا بأعيننا غبار حيّك،

- وسجدنا سجود الشكر فى مسجدك، وجعلنا من أرواحنا فراشًا لمصباحك،

- وسلكنا الطريق إلى منبرك، وذهّبنا قوائمه بصفرة وجوهنا،

- وحققنا أمانينا بالسجود فى محرابك، وغسلنا موطئ أقدامك بدموع أعيننا،

٢٢٠ - ونصبنا هاماتنا أمام كل عمود، وطلبنا - من الله - مقام الصادقين،

- وأضرمنا النار فى قلوبنا بنفوس راضية من جرح الرغبة إليك لتكون قناديل لك،

- والآن، لو لم يكن جسدى ترابًا لذلك الحرم، فإن روحى
- بحمد الله - مقيمة هناك،
- وقد تخلفنا بسبب نفسنا العنيدة، فانظر إلى هؤلاء
العاجزين واشملهم بالرحمة،
- ومالم تشملنا بعون من لطفك، فلن يتأتى منّا أى عمل،
٢٢٥ - إن القضاء يلقى بنا إليك من الطريق، فنستحلفك أن
تطلب من الله،
- أن يهبنى حياةً عامرة باليقين، وأن يثبتنى فى أمور الدين،
- وألا يريق ماء وجوهنا بدخول النار، عندما يأتى هول
يوم القيامة،
- وأن يمنحك الإذن بالشفاعة لنا، مع كل مانحن فيه من ضلال،
- فتصير كالصولجان المعوج الرأس، قائلا فى ساحة
الشفاعة: "أمتى"،
٢٣٠ - وأن يحظى عمل الجامى - المتطفل على الآخرين -
بالكمال، بحسن اهتمامك.

فى التّبرك بذكر عبيد الله أحرار
شيخ الجامى ومرشده

- إن كتاب الفقر هو ديباجة الصّدق، وهو ماخطّه سِنُّ قلم مرشدنا،
- ولم يخطّ أحدٌ من الكتاب خطًا بديعًا على صفحة صدور العظماء مثله،
- وإذا دخل الفقر فى رداء المُلك، فيكون قد جاء بتدبير من عبيد الله،
- فالذى يتعرّف عبيد الله بلطفه عليه بالفقر، يرتدى حُلةً ولو كان من لابسى الخرق،

٢٣٥ - ولكل إنسانٍ علامةٌ من فقره؛ إذ يجرّ رداء السيادةِ بأقدامه،
- والدنيا مزرعةٌ فى نظرة، لا يريد منها إلا الزراعة،
- ومن تلك الحبوب التى خرج بها آدم من بستان الجنّة إلى هذا الشرك على غير مايهوى،
- قد زرع ألف مزرعة بالأرض، لتكن زاد الرحيل فى طريق الجنة،

- فهو يبذر الحبوب في مزرعة الدنيا، ويجني في عالم الآخرة مخازن (الحسنات)،

٢٤٠ - فالدنيا حفنة تراب أمام همّته، وأيّ خوفٍ من حفنة ترابٍ في الطريق؟

- وأنّى لذرةٍ من حفنة التراب التي يراها في الطريق أن تستقرّ على ثوبه؟

- وحتى قيصر الروم وفغفور الصين، متطفلان حول حصاد محصوله،

- وحيثما يقيم مشروعًا للزراعة، فإنه يقنع بالأبقار الحقيقية،

- ولو وافقت همته، لأصبحت بقرة الأرض رفيقة لثور السماء (في محراثه) بلا مقابل،

٢٤٥ - وأفضال الله عليه لا تُحصى في حصاد محصوله، فإنه يأخذ البقرة من برج الثور، ويأخذ من السماء عجلتها،

- وتأمل السماء وما فيها من الكواكب، إنها أشبه ما تكون بغربال حبوب محصوله،

- وعندما تتأكد من فلاحته، فكأنما هو يشبه الروح الأعظم،

- وسواء كان التراب مركبًا أو بسيطًا، فإن فيض إحسانه

يغمره كله،

- وأى عشب يحظى بعطائه، يتحول كماله من القوة إلى الفعل،

٢٥٠ - وأين كمال الروح الأعظم من هذا، وهل يعدو هذا المدح أن يكون ذمًا له؟

- فمقام السيّد أعلى من التصوّر، وخارج نطاق التقرير والبيان،

- فقلبه بحر الأسرار الإلهية، وقطرة منه تغمر ما فى الأرض والسماء،

- فالقطرة التى تبدو منه، كالبحر المتلاطم الأمواج الذى يموج بالحركة،

- وعندما يجلس للمراقبة مغمض العينين فإنه يغمض عين القلب عن كلا الدارين،

٢٥٥ - ويشاهد الواحد الذى لا تقيّده الأحدية، ولا يدخل فى ضيق القِلّة،

- فهو الذى بدا فى كل ما هو مرتفع ومنخفض، وإذا كان كثيرًا أو قليلاً فإنه هو،

- وأفنى نفسه فى وجوده، وأغلق عين الوهم عن الثنائية،

- فعندما تتلاشى القطرة فى البحر، فكيف يمكن تمييزها من

البحر بعد ذلك؟

- فـما أطيب أولئـك الذين خرّوا بجبـاههم على ترابه،
وجعلوا من قلوبهم وأوراحهم رباطًا لأهداب سرجه،

٢٦٠ - فالدنيا عامـرةٌ بفيض إحسانه، وجميع أتـباعه غرقى نور
الفناء فى ظله،

- فـلا ابتـعـد ظله عن الدنيـا، ولا أظـلمت عين الأيام
برحيله،

- ولتتضاعف سنىّ عمر عبـيد الله أحرار - ملائكى السيرة
- أكثر من دوران الفلك،

- وبصفة خاصة عـمر ابنيه المشهورَيْن[١]، ولتكن أخلاقهما
على نسق أخلاقه الكريمة،

- "فبـهم يحيى رسوم الفـضل والجود"، فى هذا القـصر
الأخضر المكلَّل بالذهب[٢]،

٢٦٥ - ولتكن الدنيـا مرآة لمرادهمـا، وليكن نور القِـدَم الإلهى
مشهودهما فيها.

[١] يدعو الجامى فى هذا البيت لابنى عبيد الله أحرار وهما: خواجه محمد، وخواجه يحيى.
[٢] إشارة إلى الدنيا.

يقول فى مدح السلطان حسين:

- إن الدنيا بأسرها، أرواحها وأجسامها، بمثابة شخص اسمه العالم،
- وقد تحدّد الإنسان فى هذا العالم كالعين المبصرة،
- والذى يشبه إنسان العين فى هذا العالم هو السلطان حسين فتوة الدنيا،
- فعين الإنسانية مبصرة به تحت سقف هذا الطاق المنحنى[1]،

٢٧٠ - فما أسعد العين التى نعمت بالنّظر إليه، إنها لم تحظ بمجرد النظر، بل بالقوّة،
- فللفلك مائة عين فى طريقه، ليجعل من عينه مقامًا له،
- وعين الدنيا مضيئة به، وأصبح تراب آدم روضة من رائحته،
- وكأنه يوسف - فى جمال صورته ولطف خلقه دون مناقشة - فى هذه المصر التى نيلها السماء،
- والكرم عادة قديمة متوارثة فيه، "فهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم"،

٢٧٥ - وإنه خليق بأن يجعل الفلك العجوز[1] يعقوبَ له،

[١] يعنى بذلك: الدنيا.

لشدة حسنه(٢)

- وقد جمع بحر العطاء فى راحته، وتدفق نهر من رأس كل إصبع فيها،
- ومن كل نهر اخضرت مائتا مزرعة بالأمل فى كل موطن،
- وزمجر السحاب وأزبد البحر من راحة يده؛ لأنها تتفوّق عليهما،
- وبدت ومضةٌ من سيفه بوهج نوره، يجعل الدنيا بأسرها مضيئة كالشمس،

٢٨٠ - ومع أن البرق لا يدوم أكثر من لحظتين، فإن هذا الدوام لا ينقطع عن سيفه لحظة،

- فدوامه فناءٌ للظلمات؛ إذ لا يجتمع الضياء مع الظلام،
- ومن جرّاء عدله، فإن الصيَّد يتخذ من النمر النائم فِراشًا له وقت النوم فى المساء،
- وعندما ينهك الذئب من طواف الليل، فإن الشاة تجعل من مؤخرتها وسادةً له،
- وقد أصبحت مخالب الصقر حلقة للطيور السريعة

[١] إشارة إلى السماء.

[٢] أى يجعل السماء محبةً له ولهةً به، كما أحب يعقوب يوسف.

الطيران، جلبًا للمحبّة،

٢٨٥ - ولو اشتبكت قرون الوعل فى أغصان أشجار الغابة،

- لقام الأسد الهصور بتخليصها من الأغصان المتشابكة، ولحرّرها من قيدها بقبضته،

- وقد تحرّر مكمن الأشرار المغامرين من الخوف،

- فلو أن أحد الأشخاص كان يحمل طستًا من الذهب كالشمس المضيئة من المشرق إلى المغرب،

- ما تجرأ أى عارٍ أن يلقى نظرة عابرة فى طست ذهبه ورعًا وتقوى،

٢٩٠ - فحيثما تبسّم عدله كالمصباح، حمل الظلم متاعه من ذلك المكان ورحل كالظلام،

- وحيثما توهّج قهره كالبرق، أحرق دنيا بأكملها بقبسٍ منه،

- فيا إلهى! بحرمة الشيوخ الشرفاء! ومادامت السماء مَظَلّةً، والأرض عرشًا،

- أن تجعل عرش المُلك تحت أقدامه، وتجعل مظلة "ظل الله" على مفرقه،

- وتجعل السماء تتملّق مظلته، والأرض مشغولةً بتقبيل عرشه،

٢٩٥ - وليعمر العالم الخرب بأولاده الكرام حتى نفخة الصور،

- وبصفة خاصة ذلك الذى أطاعه الفلك، وهو تاج (الزمان) وأول اسمه (بديع)،

- ومادام قد شرف العجم باسمه، فليكن معرّفًا بتعريف العرب[١]

- فلا امّحى هذا الاسم الطاهر من صفحة الوجود، مادامت فى الدنيا جبالها ووهادها،

- والآخر هو الأمير المظفّر بالحظ، والذى أطاعه العرش والتاج منذ طفولته،

٣٠٠ - الذى حين رأى الفلك جاهه واحترامه، تمنّى أن يخطّ اسمه،

- فى هذا (الميدان) الخالى من الألم، وملأ الفلك الطبق الخالى بالفرح والبهجة،

- فلتشرب فى (محفله) كأس شراب ذهبية، وليكن قلبه مفعمًا بالسرور دائمًا كاسمه[٢]

[١] وردت كلمة (زمان) فى الفارسية بدون تعريف، ثم طلب الجامى أن تسبقها أداة التعريف العربية، وهى الألف واللام فتكون (الزمان) والمراد بالاسم هنا هو: بديع الزمان.

[٢] درين ميدان كه بادا خالي ازدرد.: فلك طاس تهى رابر فرح كرد
زيزمش خوريكي زرين قدح باد.: دلش جون جام دايم پُر فرح باد
وقد ذكر الجامى اسم "مظفّر حسين" =

فى بيان أن الجمال والعشق طائران طارا من عُشّ الوحدة وسكنا فى أغصان مظاهر الكثرة

- فى تلك الخلوة، التى لم يكن فيها "للوجود" علامة،
وكان العالم محتجبًا فى زاوية العدم،
- كان وجودًا منزهًا عن الشريك، بعيدًا عن أقاويلنا وأقاويلك،

٣٠٥ - فهو جمال مُبرأٌ من قيد المظاهر، يتجلى بنوره على ذاته،
- كأنه عروس بهيجة فى حلة الغيب، ذاتها طاهرة من تهمة العيب،
- لم تتجلَّ فى المرآة، ولم تصفِّف أسنان المشط ذوائبها،
- ولم تَفْصِلِ الصَّبا شعرةً من طررها، ولم تَرَ عينها غبار الكحل،

= فى هذين البيتين على سبيل المثال بالمعميات التى كان يستخدمها فى كتاباته، فهو يقول:
درين ميدان: يعنى فى كلمة (ميدان)
با (دا) خالى: أى أننا نحذف الدال والألف من كلمة ميدان، فتصبح (مين)
طاس تهى: أى كلمة (طاس) بعد حذف الألف فتصبح: (طس)
بر فرح: أى نملأ الكمات السابقة بكلمة (فرح) فتصبح: (طفر حس)
ونعود إلى كلمة (مين) فنضيفها إليها فتصبح: (مطفر حسين)
رزين قدح: كناية عن نقطة الظاء، وبذا يصبح الاسم هو: (مظفَّر حسين).
يوسف وزليخا. جامى. تحشيه نقيب أحمد صاحب.
ص ٣٩ - ٤٠ - بيشاور - ١٣٦٠ هـ / ١٩٤٢ م.

- ولم يصبح السُّنبل جارًا لوردتها، ولم تعقد خضرتها إكليلاً على الورد،

٣١٠ - فخدّها مُبرّأً من كل خطّ وخال، ولم تَرَ أيُّ عين غبارًا منها،

- فهى تترنّم بأنغام المحبة بينها وبين نفسها، وتعشق نفسها بنفسها،

- وطبقًا لشروط الجمال، فإن الوجه الجميل يملُّ الحجاب،

- فإن الوجه الجميل يضيق ذرعًا بالحجاب، فإن أغلقت عليه الباب أطلّ من النافذة برأسه،

- فانظر إلى الشقائق فوق الروابى، كيف تبدو نَضِرةً وقت الربيع،

٣١٥ - إنها تشق صفحة الطين تحت الأحجار، لتبدى منها جمالها،

- وحينما يجول بخاطرك معنى ممّا يسلك فى سلك المعانى النادرة. . . .

- ولا تستطيع التحرّر من سيطرته، فإنك تبديه قولاً أو كتابةً،

- ولما كانت تلك هى طبيعة الجمال حيثما كان، فقد نشأت هذه الحركة من الجمال الأزلىّ بدءًا،

- فضرب خيمته خارج ملكوت قدسه، وتجلّى على الآفاق

والأنفس،

٣٢٠ – فأظهر وجهه فى كل مرآة، وانتشر منه فى كل مكان حديث،

– إذ جعل من ذرّا ت الدنيا مرايا، وألقى بوجهه فى كل منها،

– وأشرق شعاع منه على الملك والملائكة، فدارت رءوسهم كالفلك،

– وهلّل الملائكة مُسبّحين، باحثين عن صبوح (خمره)، لما اعتراهم من انتشاء،

– وعلت صيحة (سبحان ذى الملك) من غوّاصى هذا البحر، الذين تُعدّ السماء قاربهم،

٣٢٥ – وسقط من ذلك الشعاع قبسٌ على الورد، فانتفضت منها روح البلبل ولهًا،

– وأشعلت وجنته الشمع من تلك النار، فأحرقت مائة فراشة فى كل مسكن،

– وسطع من نوره شعاع على الشمس، فأطلّ "النيلوفر" برأسه من الماء،

– وزيّن وجه "ليلى" من سناه؛ فهام "المجنون" بكل شعرة فيها،

– وجعل شفة "شيرين" تسكب الكلام سكرًا، فخطفت

قلب "ابرويز" وروح "فرهاد"[١]،

٣٣. - وأطل من قميص "قمر كنعان"[٢]، فأهلك روح: "زليخا"

- وتجلّى جماله فى كل مكان، وتخفّى فى معشوقى الكون،

- فهو المحتجب وراء كل ستار تراه، وعشقه محرك كل قلب،

- فالقلب يحيا بعشقه، وتسعد الروح شوقًا إليه،

- فالقلب الذى يعشق الحسان الجميلات عاشقٌ له، عرف ذلك أم جهله،

٣٣٥ - فحاذر أن تقع فى الخطأ وتقول: إن العشق منا ومنه الجمال[٣]،

- فلأن حسن العشق أمرٌ مرغوب، فقد أطلّ منه وظهر فيك،

[١] إشارة إلى قصة "خسرو وشيرين".

[٢] يعنى بذلك: "يوسف عليه السلام".

[٣] واضح من ترجمة هذه الأبيات تأثر الشاعر بما يذهب إليه ابن عربى فى القول بوحدة الوجود، فهى قريبة فى معناها من أبياته التى يقول فيها:

كلما أذكر من طلل	أو ربوع أو مغان كلما
وكذا إن قلت هى أو قلت يا	وألا إن جاء فيه أو أما
وكذا إن قلت هى أو قلت هو	أوهمو أو هن جمعا أو هما
وكذا إن قلت قد أنجد لى	قدر فى شعرنا أو أتهما
وكذا السحب إذا قلت بكت	وكذا الزهر إذا ما ابتسما =

- فـأنت المرآة وهو المزيّن للمـرآة، وأنت المحـتـجب وهو الظاهر،
- ولو تأملت جـيـدًا لوجـدته المرآة أيضًا فـليس هو الكنز فحسب، بل إنه الخزانة كذلك،
- ولو أمعنت نظرك الـثاقب، لوجدت أن كل مـاهو حسن ليس إلا انعكاسًا لوجهه،

٣٤. - وليس لى شأن فى هذا المجال، وليست أفكارنا إلا عبثًا،
- فالتزم الصـمت، فليست لهذه القصـة نهاية، ولا يوجد شخص بليغ ليشرحها،
- فخيـرٌ لنا أن نتشبَّث بالعـشق، فبغيـر هذا الحديث نحن هباءٌ وعدم.

= أو أنـــادى بحداةٍ يمَّـــوا	بانَة الحاجر أو ورق أنجما
أو بدور في خـــدور أُفلــت	أو شموس أو نبات أنجمـا
أو نسـاء كاعبـــات نُهـــد	طالعات كشمـوس أو دمـا
كلما أذكــره مما جـــرى	نكره أو مثلـه أن تفهمـا
منه أســـرار وأنوار جلـت	أو علت جاء بهارب السمـا
لفـؤادي أو فـــؤاد من له	مثل مالي من شروط العلما
صفـــة قدسيـــة علويـــة	أعلمت أن لصدقى قدمـا
فاصرف الخاطر عن ظاهرها	واطلب الباطن حتى تعلمـا

نخائر الأعلاق شرح ترجمـا ن الأشـواق. ابن عربى ص٥، ٦ القاهرة ١٣٨٨ هـ ١٩٦٨م.

"الشـجرة" فـى بيـان فـضيلـة العـشـق، و "غـصين" فيما يتصل بذلك من أسباب نظم الكتاب

- إن القلب الخالى من ألم العشق ليس قلبًا، والجسد الذى لا يؤرقه القلب ليس إلا ماءً وطينا،
- فحوّل قلبك من العالم صوب مواجيد العشق، فإن عالم العشق عالم لطيف،

٣٤٥ - فلا خلا من أحزان العشق قلب آدمى، ولا كان فى العالم قلب بدونه،
- فكن أسير العشق، فإن الفكرة من ذلك هى أنه حرفة كل الواصلين،
- فلا يدير الفلك إلا جنون العشق، والدنيا تغصّ بالفتنة من ضوضائه،
- فكن أسير العشق تصر حُرًا، واملأ صدرك بأحزانه تصبح سعيدًا،
- إن شراب العشق يمنحك الدفء والنشوة، وما عداه تجمّد وأنانية،

٣٥٠ - فقد انتعش العاشق بذكراه، وذاع صيته بتذكره،

- فلو لم يحتسِ المجنون من هذه الكأس، ما تذكره أحدٌ في العالمين،
- وقد مضى آلاف العقلاء والحكماء، بيد أنهم مضوا غرباء عن العشق،
- فلم يبقَ لهم اسمٌ ولا أثر، ولم تحتفظ يدُ الزمان لهم بقصة،
- وما أكثر الطيور الجميلة فى الوجود، أطبقت الخلائق الشفاه عن ذكرها،

٣٥٥ - وحين يروى أرباب القلوب قصصًا عن العشق، فإنهم يذكرون حديث البلبل والفراشة،
- فعلى الرغم من أنك تجرّب فى الدنيا مائة عمل، فإن العشق وحده هو الذى يمنحك الخلاص من نفسك،
- فلا تُدِر وجهك عن العشق ولو كان مجازًا، فإنه معبرٌ إلى الحقيقة،
- فما لم تقرأ الألف والباء على اللوح منذ البداية، فأنّى لك أن تقرأ سورة من القرآن؟

حكاية على سبيل المثال

- سمعت أن مريدًا ذهب إلى أحد الشيوخ ليعينه فى سلوكه،

٣٦٠ - فقال له: "إذا لم تكن قدمك قد وطئت بعد طريق العشق، فاذهب واعشق، ثم عد إلىّ،

- فإنك لن تستطيع تذوّق كأس الحقيقة، دونما ارتشافٍ لكأس خمرٍ ظاهرية،

- ولكن ينبغى ألا تتوقف عند المجاز، بل اعبر بنفسك هذا الجسر سريعًا،

- فإذا أردت وضع المتاع فى المنزل، فلا ينبغى أن تقف على "رأس الجسر"،

- فحمدًا لله، أننى منذ وجدت فى هذه الدنيا، كنت خفيف السّير فى طريق العشق،

٣٦٥ - فحين رأت المربية نافجتى بغير مسك، قطعتها بسيف العشق،

- ومنذ نعومة أظافرى، غذتنى أمى - مع لبنها - بمعاناة العشق،

- ورغم أن شعرى الآن بلون اللبن، فإن مذاقه مازال فى أعماقى،

- ومادام العشق غير مرتبط بالشيخوخة أو الشباب، فإن سحره يهبّ علىّ بغير انقطاع،

- قائلا: "يا جامى، مادمت قد شببت فى العشق، فكن خفيف الروح، ومُت عاشقًا،

٣٧٠ - وانظم فى ميدان العشق قصة تظل أثرًا منك فى الدنيا،

- وارسم بقلمك المبدع صورة تحلّ محلك حينما ترحل"

- وحينما طرق هذا النداء من العشق مسمعى، خرج عقلى مرحبًا به،

- وربطت منطقة الطاعة على روحى، ووضعت قاعدة جديدة للسحر،

- فلو وهبنى الله التوفيق، وأثمرت نخلتى فاكهة المراد،

٣٧٥ - فإنى أسوق من الإبداع عن حرقة العشق، بحيث يحرق عقل الحكمة ومتاعها

- وأنشر الدخان فى هذا السقف الفيروزجى، وأجعل عيون الكواكب تندى بالدموع،

- وأرفع منزلة الكلام إلى موضع يجعل السماء تهتف لى بالثناء.

جنى باقة ورد من بستان فضائل العشق، ولفّها بخيط إتمام سبب نظم الكتاب

- الكلام ديباجة ديوان العشق، وهو باكورة بستانه،
- وليس للعقل عمل أو حرفة إلا الكلام، وليس للعالم ذكرى إلا به،

٣٨٠ - وهكذا يقول العارف أن كل ما فاض فى الدنيا، من الجديد والقديم، فاض عن الكلام،

- فقد تنفس الكلام على القلم من الكاف والنون، فخطّ القلم على صفحة الوجود،
- فلما وجدت قاف القلم من تلك الكاف، أطلق القلم سيل الكرم من ينبوعه،
- فكل ما هو موجود فى الدنيا - أعلاها وأسفلها - موجود من حركة ذلك السِّيل،
- وعندما تسوق الشفة لطيفةً بسبب هذه الحركة، وتوجد وردةٌ من روضة المعانى،

٣٨٥ - فإن النفس الذى تطلقه يتعلق بأهدابها، ويخرجها تختال من الرياض،

- وتتخـذ طريقها صـوب بوابة الأُذُن، فيـخرّ العقل فـاقد الصوابِ لمقدمها،
- ويتجه الخـاطر لاستقبـالها، ويضمهـا القلب إلى صدره كأنها برعمته،
- فتـارة تحمل للشفة ابتـسامة الفـرح، وأخرى تمطر - من العين - دموع الأسى،
- وتصبح شفاه المحزونين باسمـةً منها، ومنها تصبح الشفاه الباسمة باكية،

٣٩٠ - ومادمت قـد أدركت هذه القدرة منه[1]، فمـعاذ الله أن أسحب أذيالى بعيدًا عنه،
- وقد جـعلنى احتراق هذه الخـمر هرمًا، فـأنا الآن أشغل رأسى بأعمال الشيوخ،
- وأخرج السِّرّ الدفين من قلبى، وأضحك الدنيا وأبكيها،
- وأنا أتوّج بحلو الكلام الملك الجـديد، فقـد قدم العـهد بقصة: "شيرين وخسرو"،
- وانقضى عهد "ليلى والمجنون"، وأنا الآن أرفع من شأن شخص آخر،

٣٩٥ - وأكـون طاعمًـا للسكر كالببّغاء من حُـسن "يوسف" وعشق "زليخا"،

[١] أى: من الكلام.

- وما دام الله قد سمّاها "أحسن القصص" فإنى سأذكرها لهذا بأحسن وجه،
- ولأن شاهدها هو القـرآن، فإنه لا مجـال لتطرق الكذب إليها،
- فإن الخـاطر لا يستريح إلى الكذب، حتى لو تذكره فى صورة الصواب،
- فليس للشعر زينة إلا الصدق، ولا يتم للـقمر جماله إلا باكتماله،

٤٠٠ - ولهذا فـإن الفجـر الأول يكون بغيـر ضيـاء؛ لأن ادعاء الضياء منه كذب،
- فإذا تنفّس الصبح الصادق، رفع من الشـمس علمًا ذهبيا فوق قبة السماء،
- ولو زينت الكذب بالتصنع، فإن مـصباح القلب لا يأخذ منه نورًا،
- فلماذا تحيك الديباج على القدّ القبيح، والقبيح لا يحسن بالديباج؟
- فالقبيح لا يجد الحسن بالديباج، ولكن الديباج هو الذى يقبح،

٤٠٥ - فَضَع الزينة على الوجنة الحسناء، تزدد بهاءً بها،
- أما إن وضعتـها على وجه أسود، فلن ترى العين منه إلا السَّواد،
- فما كان أحدٌ من المعشوقين مثل يوسف، فقد فاق جماله كل جمال،
- فكل من لا يعـرف له شبيـه فى الحسن، يسـمى يوسف الثانى،
- وما كان أحد من العاشقين مثل زليخا، فقد فاقت الجميع بعشقها،
٤١٠ - إذ مارستـه من الطفولة حتى الشيخـوخة، وداومت عليه ملكة وفقيرة،
- وحينما تجدّد لها عهدُ الشباب مرةً أخرى، بعد الشيخوخة والعجز والضعف،
- لم تسلك العـشق إلا عـن طريق الوفـاء، عليـه ولدت وعليه عاشت وعليه مضت،
- وعلى الرغم من أن زليـخـا كانت مـحـبوبة من الدنيـا بأسرها، فإن يوسف كان يفوقها حسنًا،
- وإنى أسوق الحـديث فى هذا الكتاب عن كليهمـا، وأنثر الجواهر بالقلم عن كلٍ منهما،

٤١٥ - فأسـجل كنزًا جديدًا من الحكمـة فى كل معنى أتـناولها فيه،

- وإنّى لأطمع إذا قـرأ فاضلٌ ذات مـرة كلمـة من كتـاب المحبة هذا،

- ألا يعطينى ظهره كـما يفعل بالكتاب، وألا يمرّر إصـبعه على كلماتى كالقلم،

- وأن يغضّ طرفـه عن خطئى، وألا يحـمّـلنى وزر مـا مضى،

- وأن يجتـهد قـدر طاقتـه فى الإصلاح، فإن لم يـستطع فليستر.

قصة إضاءة شمع جمال يوسف فى خلوة الغيب واحتراق فراشة قلب آدم عليه السلام بمشاهدته

٤٢٠ - حينما بدأ مفسّرو القرآن، وقارئو صحف السماء،
- تاريخ الدنيا، فإنهم حكوا هذا الأمر عن آدم،
- قائلين: "لما أضاء الله عينيه، جلا عليه صورة أولاده،
- ووقفت صفوف الأنبياء فى مكان، أمامًا وخلفًا، كل صف فى منزلته،
- واتخذت صفوف الأولياء مكانًا آخر، فوطئت بأقدامها فى مقام التبعية،
٤٢٥ - ومن خلفهم مجموعة يتباهون بتاج عظمة الملك،
- ووقفت بقية الخلائق صفًا صفًا، بالترتيب الحسن والنظام اللائق
- وحينما نظر آدم إلى ذلك الحشد، وأعاد النظر مرة أخرى فى كل مجموعة،
- بدا يوسف أمام عينيه بدرًا، لا، بل شمس العزة والجاه فى أوجها،

- فهو يمتاز عن ذاك الحشد كشمع المجالس، شامخٌ برأسه بين الجميع،

٤٣٠ - يتلاشى أمام حسنه جمال الحسان، كما يتلاشى ضوء النجم أمام ضوء الشمس،

- وقد ألقى على كتفيه رداء المحبة، فأضحت مئات الجميلات فداءً لتراب قدميه،

- فكمال حسنه خارج نطاق الفكر، وأبعد من حدود العقل المفكر،

- وعلى كتفيه خلعة اللطف الإلهى، وعلى مفرقه تاج العظمة الملكية،

- وجبينه مطلع صباح السعادة، ومن نور وجنته يتحول مساء الغيب صباح شهادة[1]،

٤٣٥ - فكل الأنبياء أمامه وخلفه قد تحرروا من ظلام الأجساد،

- ورفعت كل الأرواح القدسيّة الأعلام من كل صوب،

- مسبّحة مهلّلة فى ذلك المحراب الذى تعدّ الشمس مصباحه،

[١] أى أن شدة ضياء وجهه تجعل عالم الأرواح صوراً مرئية. يقول الثعلبى فى قصص الأنبياء:

"قال كعب الاحبار إن الله تعالى مثل لآدم ذريته بمنزلة (الذر؟) فأراه الأنبياء عليهم السلام نبيا نبيا، وأراه فى الطبقة السادسة يوسف متوجا بتاج الوقار، متزراً بحلة الشرف، مرتديا رداء الكرامة، مقمصا بقميص البهاء" ص ١٢١.

- فتعجب آدم من ذلك الجلال والجاه، وقال متعجبًا:
- "منْ دوحة مَن هذا الغصن يا إلهى؟ وأى عين مضيئة تحظى بمشاهدته؟

٤٤٠ - ولم أشرق عليه نور السعادة هذا؟ ومن أين له هذا الجمال والجاه الزائد؟"
- فأتاه الردّ: "إنه نور عينيك، ومدخل السرور على قلبك الحزين،
- فهو غصنٌ من روضة يعقوب، وغزال فى صحراء خليل الله،
- يتجاوز إيوان جاهه السماء، ويكون له عرش مصر،
- كما يكون مثار غيرة حِسان الدنيا من شدة الحسن البادى على وجهه،

٤٤٥ - ويتخذ من وجهك مرآة، فهبه ما فى خزانتك"
- قال: "هأنذا قد فتحت باب الإحسان، ومنحت جماله أربعة دوانق من دوانق الجمال الستّة،
- وخصصته بثلثى حسن هؤلاء الحِسان[1]، وتركت الثلث الأخير لهم،
- فلو أنه يفتح صحيفة حسنه لتحدّى الحسان، لرجحت كفته على الثلث المخصص لهم جميعًا،

[١] يريد الشاعر أن يقول إن يوسف قد شارك الحسان فى الثلث المخصص لهم.

- ثم ضـمّـه إلى صـدره، وباركـه مـن قلبـه الخالى من الأحقاد،

٤٥٠ - وأخبره بحبّه له، وطبع قبلةً أبويةً على جبينه،

- فـتفـتّح كـالوردة ابتهـاجًـا ببنوته، وترنّم كـالبلبل لورد طلعته.

إحضار غُصْن جمال يوسف من مرتع الغيب إلى رياض الشهادة، ورعايته بماء عين يعقوب وهوى قلب زليخا

- يدق كل شخص طبول الوجود بالتناوب في هذه الدنيا،
- وللحقيقة ظهور في كل دور من أدوارها، فيمتلئ سمع الكون بصدى أحد الأسماء،
- فلو ظلت الدنيا على نسق واحد، لاحتجبت أنوار كثيرة عنا،

٤٥٥ - ولو لم يتوار نور الشمس من السماء، ما تألقت مجموعة النجوم،
- ولو لم يحزم الشتاء متاعه ويرحل عن الخميلة، ما ازدهرت الورود بثوب الربيع،
- ولما شدّ "آدم" رحاله عن هذا المحراب، جلس "شيث" مكانه فيه،
- وحينما رحل، شرع "إدريس" في تلقين دروس التقديس، في دار الخداع هذه،
- ولما انتقل "إدريس" إلى السماء، عهد برعاية الدين إلى "نوح"،

٤٦٠ - وحين غرق "نوح" فى طوفان الفناء، فتح هذا الباب "خليل الله"،

- ولما طعمت الخلائق من مائدة دعوته من كل الآفاق، عهد إلى "إسحاق" بعد ذلك بذلك الإنفاق،

- وحينما دق باب العدم من هذا الوادى، كبّر "يعقوب" من فوق جبل الهداية،

- ولما اختص "يعقوب" بعده بهذا الأمر، نشر أعلامه من حدود الشام إلى كنعان،

- ألقى بحمل الإقامة فى كنعان، فكثر ماله وعياله،

٤٦٥ - وأضحت قطعانه من الماعز والخراف أكثر من النمل والجراد فى ذلك الوادى،

- وظهرت النّبوّة تلو النّبوّة، وكأنها المشاعل لتوضيح الرسالة،

- وظهر يوسف فى الصلب الثامن[١]، فأبقى جماله دنيا بأسرها فى حسرة منه،

[١] يقول القرطبى فى تفسيره عن إخوة يوسف:

"... روبيل وهو شمعون ولاوى ويهوذا وزبالون ويساخر، وأمهم ليا بنت ليان، وهى بنت خال يعقوب، وولد له من سريتين أربعة نفر هم دان ونفتالى وجاد وأشر، ثم توفيت ليا فتزوج يعقوب أختها راحيل، فولدت له يوسف وبنيامين، فكان بنو يعقوب اثنى عشر رجلا... وقيل فى اسم الأمتين ليا وتلتا، كانت إحداهما لراحيل، والأخرى لأختها ليا، وكانتا قد وهبتاهما ليعقوب وكان يعقوب قد جمع بينهما، ولم يحل لأحد بعده، لقول الله تعالى. "وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف".

تفسير القرطبى، ص٣٢٥٩. طبعة دار الشعب.

- وقد كـان ليعقـوب أحد عشـر ابنًا، عدا يوسف، ولكن يوسف سكن شغاف قلبه،

- فمنذ ولدته أمه، ووجهه يضارع قمر السماء،

٤٧٠ - فهو غصنٌ نبت فى روضة القلب، وهلالٌ بزغ فى سماء الروح،

- وهو وردة نمت فى روضـة خليل الله، يليق بـها الحسـن والرّقة،

- ونجم ارتفع من برج إسـحـاق، فأضـاءت طلعـته وجـه الدنيا،

- وواحدة من الشقـائق أطلت برأسها من حديقـة يعقوب، فكان منها جرحه وبلسمه،

- وأضحى غزالأعبق الرائحة فى كنعـان، وبسببه أصبحت صحراء كنعان مثار غيرة «ختُن»،

٤٧٥ - وطالما كانت أمـه تنعم بالحيـاة،فإنها كـانت تغسل سكر شفته بلبنها،

- وحين رأت الأيام أن أمه قد احتضنته عامين، نفثت سُمّها فى طعامها،

- فأضحى درّة يتيمة من بحر الكرم، حرم من عطف أمه، ولازمته دموع اليُتم،

- وحينما رأى أبوه حال جوهره، جعل من صدر أخته صدفة لهذا الجوهر،
- ووجد طائر روحه الرعاية من عمته، فنبت ريشه وجناحه بحديقة الحُسن،

٤٨٠ - فهو يمضى بقامته حلو الخُطى، تنضح شفته سكر القول،
- وهكذا تعلق قلب عمته به، فلم تقدر على فراقه لحظة واحدة،
- فكان ينام كل مساء فى حضنها كأنه الروح، وكان شمس نظرها كل نهار،
- وكان أبوه - هو الآخر- متلهفًا للنظر إلى طلعته، وكانت الرغبة للتطلع إلى طلعته تحيط به من كل صوب،
- ولم يكن بقلبه المهموم شىء سواه، ولم تكن رؤيته لمامًا لتسكن ما به من ألم،

٤٨٥ - وهكذا فإنه كان يتمنى أن يكون هذا القمر البهيج أمامه ليلاً ونهارًا،
- فقال لأخته: يا من تهتزين على مفرقى، شفقةً وحنانًا، كأنك شجرة الصفصاف،
- إننى لم أعد قادرًا على فراق يوسف، فخلّصينى من هجره،

- وابعثى به إلى مكان خلوتى، وأرسليه إلى محراب تضرّعى.
- فلما سمعت أخته ما قاله، تظاهرت بتلبية رجائه،
٤٩٠ - ولكنها أعدت حيلة بينها وبين نفسها كى تسترده من يعقوب مرة أخرى،
- وكان عندها منطقةٌ لإسحاق، قد بليت من تأدية فروض الله،
- وهى منطقةٌ كانت تنجى كل يد كانت تتمنطق بها من آفات الدنيا،
- وحينما أدارت وجه يوسف صوب أبيه، ربطت تلك المنطقة سرًا على وسطه،
- وهكذا، فإنها شدّت تلك المنطقة على خصره، دون أن يشعر بذلك إطلاقًا،
٤٩٥ - وأرسلته إلى يعقوب متمنطقًا بها، ثم صاحت بين الجميع بأعلى صوتها،
- قائلة: «لقد فقدت تلك المنطقة من بيننا»، وكانت تتهم كل شخص بتلك التهمة،
- وكانت تفتش تحت الثوب وتدير وجهها صوب كل شخصٍ آخر،

- حتى جاء الدور أخيراً على يوسف ففكت المنطقة من فوق خصره سريعًا،
- وفي تلك الأيام فإن كل ذي دين، كان حكم الشرع عليه هو:

٥٠٠ - «كل من يضبط لصًا، يسترقه صاحب المتاع المسروق»[١]،
- ومرة أخرى، حملته إلى منزلها بالخداع والحيل التي أعدتها،
- وجلست سعيدة مضيئة العين بوجهه، ثم أغمض الأجل عينيها، بعد فترة،
- فسعد خاطر يعقوب به، فما كان يغمض عينيه عن رؤيته،
- وحينما اتّخذ يعقوب من يوسف قِبلةً له، أشاح بوجهه عن بقية أبنائه

٥٠٥ - فكانت روحه مرتاحة إليه، وعينه مضيئة به،
- وكان كل أمر يشغله بسبب يوسف، وبه كان انتعاشه،
- حقًا! أينما يضيء القمر بهذه الصورة، فلا مجال لسواه، ولو كانت شمس الضحّى،
- فماذا أقول عمّا كان له من الحُسن والجمال، فقد فاق

[١] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾. سورة يوسف، آية (٧٥)

الحور والملائكة!

- لقد كان قمراً من سماء المعرفة، أضاء الكون والمكان،

٥١٠ - وهيهات! فهو ليس بقمر، إنه شمس مضيئة، انعكس شعاع منها على السماء،

- وماذا أقول؟ فأى مجال للشمس؟ إن عينها المضيئة هنا ليست إلا سرابًا،

- فهو نورٌ مقدَّس، منزّه عن قيد السبب (ماذا) وكيف، أطلّ برأسه من جلباب الصورة،

- وما إن استقر ذلك الذى لا شبيه له، على تلك الكيفية، حتى أطلق عليه اسم يوسف تستراً،

- ومع أن حبّه كان مكنونًا بقلب يعقوب، فلو جعل الروح له مقَرًا لكان مصيبًا،

٥١٥ - أما زُليخا التى كانت مثار غيرة حور العين، وكانت محتجبة خلف ستار العصمة فى بلاد المغرب،

- فإنها أصبحت أسيرة طيفه فى نومها، دون أن ترى شعاعًا من نور طلعته،

- ومادامت أحزان العشق تشتد على الغرباء، فإنه لا يكون بعيداً عن الأقربين.

فى وصف ونسب زليخا التى كان يتحول المغرب بشروق شمس جمالها مشرقاً. بل كان يفوقه بألف درجة

- هكذا قال عارف الكلام ووازنه، الذى كان بخزائنه من الكلام الكنوز،
- إنه: «كان ببلاد المغرب ملك مشهور، دقّ طبول المُلك واسمه "طيموس"،
- ٥٢٠ - وقد اكتملت له كل أسباب الملك، ولم يتبق بقلبه أمنية لم تتحقق،
- وظلّ الحظ متوجًا بمفرقه، وارتفع العرش منزلةً بقدمه،
- وتمنطق الفلك فى خيله بالجوزاء، وربط النصر بقبضة سيفه،
- وكانت له ابنة جميلة تدعى "زليخا"(١)، كانت سميرته من بين كل الخلائق،
- لم تكن ابنة، بل كانت نجمة من البرج الملكى، وجوهراً مضيئًا من الصندوق الملكى،

[١] لم يرد هذا الاسم فى التوراة أو القرآن، ولكن كتب التفسير ذكرته "راعيل" تارة، و"زليخا" تارة أخرى، ويبدو أن الشاعر قد اقتبس هذا الاسم من تلك الكتب. تفسير القرطبى. ص٤٤٧٨ طبعة دار الشعب.

٥٢٥ - يجلّ وصفها عن مقدرة البيان، وأجرّب الطبع مع خيالها،

- وإنى لأهبط من رأسها إلى أخمص قدمها كشعرها، وأصبح مضاء الضمير من مرآة وجهها،

- وأطلب العون من شفتيها الحلوتين، وأصف ذلك الذى تحتويه،

- فقامتها نخلة خلقت من الحنان، أطلّت برأسها من بستان الظَّرف،

- ارتوت من النهر الملكى، واكتسبت نضرتها من سرو الأنهار،

٥٣٠ - وشعرة فى مفرقها شرك العقلاء، وليس بينها وبين المسك كبير فرق،

- وقد مشط المشط شعرها بخفة زائدة، وصنع فرقًا لطيفًا فى منتصفه،

- ينفطر قلب النافجة من هذا المفرق، ويصعب أمر المسك فى النافجة بسببها،

- وتتدلى طرتها التى تفوح بعبير الياسمين، فتلقى بغصن الورد ظلاً على القدم،

- وكأن ضفيرتيها هنديان مـن صانعى الحبال يتأرجحان فى "شمشادها" الباسق[1]

٥٣٥ - وقد صنع الفلك من جـبينها لوحة فـضية، ليشرح عـليها درس جمالها،

- فأظهر من جانب لوحتها الفضية «نونين»[2] مقلوبتين من المسك الخالص،

- وتحت هاتين «النونين»، «صادان»[3] عجيبـتان خطهما قلم الأستاذ الماهر،

- وما بين حـدّ «نونها» إلى حلقـة ميمـها[4] رسمت أنف فضية مستقيمة «كالألف»،

- ثم زاد «صفـر» الفم على الألف، فـضاعف فتنة الـدنيا عشر مرات،

٥٤٠ - فإذا فكّت عُـقدةَ «مـيمهـا» بأسنانها، بدت «سـينها»[5] للعيان من ياقوتها الباسم،

- وقد تفـتحت الورود العديدة الألوان فى وجـهها، فـبدا شبيهًا ببستان إرم،

[١] شمشاد: اسم شجرة فارسية باسقة الطول، يستخدمها الشعراء عادة فى وصف قوام المحبوب، وترجمتها العربية: (السُمسق - المردقوش - العترة).

[٢] يعنى بالنون: حاجبها.

[٣] الصاد: كناية عن عينها، ويعنى بالأستاذ الماهر: الخالق سبحانه وتعالى.

[٤] حلقة الميم: دائرة فمها.

[٥] السين: كناية عن أسنانها.

- وعلى كل جانب من وجهها أثر خال، كأنه أطفال الزنوج فى إحدى الرياض،

- أما ذقنها ففضة بغير زكاة، بها بئر ملىء بماء الحياة،

- ولو يتجول العاقل بنظره أسفل ذقنها، لوجد قطرة من ذلك البئر قد التفت حولها،

٥٤٥ - ولن يجد هناك راحة قلبه، فإلى جانب البئر سيجد دوّامة،

- أما بياض رقبتها فأشدّ صفاءً من العاج، مما يجعل الغزلان تحمل فوق رقابها الخراج إليها،

- ويسخر صدرها وكتفها من الياسمين، ويجعلان الورد يتخذ من الجيب قميصًا،

- وثدياها قبتان من نور، أو كأنهما فقاعتان فى عين كافور،

- وكأنهما رمانتان نضرتان، نبتتا من غصن واحد، لم تجرؤ يدُ الأمل على لمسهما،

٥٥٠ - وفى أحضانها كنز فضىّ من ساعديها، يتضاءل عيار الفضة أمامه،

- وقد ملئت قلوب الصالحين بالدعاء - ليكون تعويذا لتلك الصافية صفاء الدّر،

- وجعلت ملائكيات الوجوه من أرواحهن سذابًا لها، ومن حبل أرواحهن رباطًا لتعويذتها،
- وقد ملأت أكمام ساعديها بالفضة، وأباحتها على عادة الملوك المتوجين،
- ففي راحتها راحة كل مبتلى؛ لأنها بلسمٌ لمن جرح منه الفؤاد،

٥٥٥ - واتخذت من أصابع يدها أقلامًا، كتبت بها كلمة الحب على صفحات القلوب،
- ومن ينظر إلى أظافرها، يُخيّل إليه أنهم زادوا على كل بدرٍ هلالاً،
- وقد أطبقت على القمر بأصابعها، وألحقت به الأذى بقبضتها القوية،
- وخصرها كالشعرة، بل إنه أقل من الشعرة، ويخشى على هذا الخصر من الشعرة لنحالته،
- فهي لاتستطيع أن تتمنطق بالشعرة، خشية أن يتمزق خصرها منها،

٥٦٠ - وبطنها تشبه صفحة القاقم[١]، قطعت المربية نافجتها بالرّقة،

[٢] القاقم: حيوان يتميز بجودة فرائه الشديد البياض.

- وكفلهــا جبل ولكنه من الفضــة الخالصة، وكــأنه الجبل الذى سقط أسفل خصرها،
- ورغم تلك النعومة، فلو أن قبضة ضغطت عليها لعادت إلى الإرتفاع،
- فالتزم الصمت، ولا تتحدث عن الذهب المعصور، وأقبل لتستمع إلى الفضة المعصورة،
- وإنى لن أمضى فى وصفها من أســفل نافجتها إلى أعلى ركبتها،

٥٦٥ - فلن تسمح قلعة عصمتها للفكر أن يتجوّل فى حرمة حرمها،
- وإنى أمضى بالكلام عن ساقهــا، فهى عمودٌ فضى لنمط الجمال،
- فهى، بسم الله، باقة ورد عجيبــة، إلا أنها محتجبة عن عين كل من حرم من النور،
- وقد أبدت جـمالها للمرآة، فــدخلت أمامها جــاثية على ركبها تأدبًا،
- ومن ثم فقــد صارت المرآة قــرينةً لها،لتحظــى بقبسٍ من نور وجهها،

٥٧٠ - فكل من يجلس قرينًا لهــا، يرى وجنة السعادة فى تلك المرآة،

- كما أن قدمها لـيست أقل من ساقها فى اللّطف، وليس هناك من هو ثابت القدم فى اللطف مثلها،
- وهكذا فإنهـا عندما تمضى مسرعة، فـإن قدمـها - من عقبها إلى أصابعها - كانت تفيض رقة،
- بحيث إنهـا لو استقرت على عين العاشـق، لامتلأ بطن قدمها بالبثور من دموعه،
- ولا أعرف مـا أقوله عن ذهبهـا وجواهرها، فـإن كل ما أقوله فى هذا المجال سيكون قاصرًا عن التعبير

٥٧٥ - فمـن الذى يستطيع أن يصف ذلك الملاك مـن كثـرة ما عليه من الزينة؟ فجمالها زينة للزينة نفسها،
- فعلى رأسها إكليل ملىء بالجواهر، كل جوهرة فيه تعادل دخل إقليم،
- والدرّ والياقوت المتدلّى من أذنها، كان ينتزع برقّته الوعى من القلب والروح،
- ولو أنها كـانت تفك الجواهر من عنقها، لأصبح ثوبها وحجرها كنزًا مليئًا بالجواهر،
- أمـا رباط شعـرها المرصع الذى كـان يربط شعـرها من الخلف، فكان يساوى فى قيمته آلاف العقود من الجواهر،

٥٨٠ - ومالم تمنح رقتـها العون للسّوار، فـمن كان يستطيع أن يربطه على يدها بالحيلة؟

- ولا أستطيع أن أحكى أكثر من ذلك عن الذهب، فقد صار خلخالاً ووقع على أقدامها،
- فتارة كانت تجلس متدلّلة على العرش، متّشحةً بالديباج الرومى والصّينى،
- وتتبختر تارة أخرى في ساحة القصر، فى ثياب مصرية وشامية مزركشة،
- فما كان يشرق صباح يوم جديد إلا وعلى جسدها ملابس جديدة،
- وما كانت تطل برأسها من فتحة ثوب واحد مرتين، بل كانت تظهر كالقمر كل يوم من برج، ٥٨٥
- وكانت قد سحبت أذيالها بعيداً عن تقبيل العظماء لأقدامها، وما كان يحظى بهذه السعادة أحد غير ذيلها،
- وما كانت تأذن لأحد إلا لقميصها، فكانت ترى جسده فى أحضانها،
- فتملك هواها ممن قامتهم كشجر السرو، ووقع فى عشقها أصحاب الوجوه الملائكية،
- وقد وقف أمامها للخدمة - ليلاً ونهاراً - آلاف ممن فى عمرها من بنات الحور،

٥٩٠ – ما جثم على صدرها عبء البتة، ولا وخزت قدميها أبدًا شوكة،

– ولا عَشَقت ولا عُشَقت، وما منحت قلبها مَيْلاً لتلك الرغبة، فكانت تنام الليل كنرجسة ندية، وتزدهر فى السَّحر كبرعمة باسمة،

– وكانت – تلعب – فى صحن منزلها مع فضيات الرقاب من الصغيرات وكأنهن الغزلان الجميلة،

– فقلبها خالٍ من تقلبات الفلك، وما كان يشغلها من أمور الدنيا إلا اللَّعب،

٥٩٥ – وهكذا كانت سعيدة مبتهجة، وكان قلبها بمنأى عن أحزان العشق،

– فماذا سيصيبها من الدهر، وأى شىء ستلده لها الأيام الحوامل؟!

رؤيا زليخا سيف شمس جمال يوسف للمرة الأولى في غمد المنام، وقتلها بسيف عشقه

- فى ليلة بهيجة، كأنها صباح الحياة، حافلة بالسعادة كأيام الشباب،
- وقد سكنت الطيور والأسماك عن الحركة، وجرّت الحوادث قدمها فى ذيل ثوبها،
- ولم يبق مفتوحًا فى هذا البستان الملىء بالمشاهد إلا أعين النجوم،
- ١٠٠ واختطف سارق الليل عقل العسس، وربط محرّك الجرس لسان (جرسه)،
- وأضحت حلقات أذيال الكلاب أطواقًا لها، فضل نباحها طريقه فى تلك الحلقات،
- وسلّ طائر الليل من ريشه الطويل خنجراً وقطع نايه عن استغاثة الصباح،
- وحينما أبصر الحارس صورة الخشخاش فى شرفة القصر الملكى،
- لم تعد عنده قدرة - هو الآخر - على السهر، وأسلمته خواص الخشخاش للنوم،

١٠٥ - وتوقف ضــارب الطبل عن ضربه، فـقد ربطت هجــمة
، النوم يده على العصا،
- ولم يهلل المؤذّن بقوله: (ياحىّ)، فقد طوى بساط الغفلة
ليل النائمين،
- كانت زليخـا، ذات الشفة السكرية الخالصــة، قد ملأت
عينيها بسكّر النوم اللذيذ،
- وقد سحقت رأسها جدائل السنبل على الوسادة، ووهب
جسدها لسريرها بيدر الورد،
- واضطرب سنبلها من الوسادة، فرســمت خيوطًا حريرية
على جسمها (الشبيه بالورد)،
١١٠ - وكان النوم قد أغمض عينها المبـصرة، بيد أنها كانت قد
فتحت من قلبها عينا أخرى،
- وفجأة دخل شاب من بابهــا، ماذا أقول؟ لا، ليس شابًا،
ولكنه الروح،
- فهو صــورة مباركة من عالم الـنور، أغار على الحور فى
جنة الخلد،
- واختطـف منهن كل الحسن والجــمال، وجــردّهن واحدة
واحدة من غنجهن ودلالهن،

- قامته باسقة كـأنها "الشمشاد" النّضر[1]، حتى إن السّرو المعتدل يصبح عبدًا له، لشدة اعتداله،

١١٥ - وقد دلّى طرة كسلسلة ربط بها يد تدبير العقل وقدمه،

- يتوهج بريق النور من جبينه، ويخر الشمس والقمر أمامه ساجدين،

- وحاجبـه المقوّس محراب الطاهرين، وكأنـه مظلة معنبرة تظللّ الوسنانين،

- ووجنته قمر من قـمة برج الفردوس، سكن برج القوس من حاجبه،

- وقد تكحلت عيناه بكحل الدلال، وصارت أهدابه ضاربة بالسهام فى الأكباد،

١٢٠ - وشفتاه مبتسمتان تنضحان سكراً، وفمه يمزج السكر بالكلام،

- وبريق درّه من بين شـفتيـه، كأنه برق يلمع من الـشفق الملون،

- وهو يسكب النور من الثريا بابتسامته، ويسيل فمه الملىء بالفتنة عذوبة،

- وذقنه تفاحة محاطة بلهاة كأنها قطرة من الماء، متدلية من التفاحة،

[١] سبق الحديث عن شجرة الشمشاد .

- قد ازدانت حديقة وجنته بشامة من المسك، بدت كغراب عشّشَ فى حديقة،

٦٢٥ - فعـضده غنى من فضـة ساعده، أمّـا خصره فكالشـعرة النحيلة افتقاراً إلى الفضة،

- وحينما فتـحت زليخا عينها على وجهـه، حدث لها ما حدث من نظرة واحدة،

- إذ رأت جمالاً أبعد ما يكون عن حـدّ البشر، لم يشاهد بين الملائكة ولم يسمع عنه بين الحور،

- فأصبحت أسيرة لحـسن صورته ورقة شمائله، بمائة قلب لا بقلب واحد،

- وقد رأته فى النوم وهى فى عامها السابع، فربطت قلبها بحبله،

٦٣٠ - ورسمت لقامـته صورة فى فؤادها، وغـرست فى قلبها غصنًا لمحبته،

- وأضرمت ناراً فى صـدرها بسبب طلعـته فأحـرقت بها متاع صبرها ودينها،

- وعلقت بكل خيط من خيوط تلك الطرة المعنبرة البهيجة حبل روحها،

وأمـست قرينة الآهات بسـبب انحناء حـاجبـه، ونامت غارقة فى الدماء بسبب عينه الوسنانة،

- وضاق قلبها من رؤية شفتيه السكريتين الضيِّقتين،
وجعلت من أهدابها عقدًا لجواهر الدموع بسبب رؤية أسنانه،

١٣٥ - وغسلت يدها من العقل بسبب ساعده الفضى،
وتمنطقت بمنطقة العبودية،

- ورأت خاله المسكى الجذاب على وجهه، فجلست على النار بسببه، وكأنها السَّداب[1]،

- وذاقت ألم الروح بسبب تفاحة رقبته، ومن ذا الذى يستطيع أن يقطف مثل تلك التفاحة بسهولة،

- فيا لله!! أية صورة جميلة كانت، تلك التى قلّلت الصورة، وضاعفت المعنى،

- فهربت زليخا من وجودها، وسكنت إلى المعنى بدلاً من الصورة،

١٤٠ - فلو أنها كانت بذلك المعنى، لكانت واحدة من الواصلات على الطريق،

- ولكن بما أنها كانت أسيرة الصورة، فإنها لم تكن عارفة فى البداية بالمعنى،

[١] بذرة نبات طيب الرائحة، توضع على النار ليطرد دخانها عين السوء.

- فقـد بَقينا جمـيعًا فى إســار التصــورات، وظللنا أسرى المظاهر،

- فكيف يميل قلبٌ إلى صورة لا توصّل إلى المعنى؟

- فالظمآن يدرك يقـينًا أن بالجرة قطرات من الماء، ومن ثم يمدّ يده إلى رقبتها،

٦٤٥ - وحينما يغرق فى زلال بحرها، لا يذكر شيئًا عن خزفها المبلّل.

هبوب نسيم السحر على زليخا، وتفتّح نرجسها الوسنان

- عندما طار غراب الليل فى السّحر، وأذّن ديك الصباح،
- وعزفت العنادل لحنًا جذابًا، فمزقت حجاب البرعم عن الورد،
- وغسل الياسمين وجهه بقطرات الندى، كما غسل البنفسج جدائله العنبرية،
- وكانت زليخا لاتزال غارقة فى نومها اللذيذ، وقد يمّمت وجه قلبها صوب محراب البارحة،

١٥٠ - وما كان ذلك نومًا لذيذًا، بل كان فقدًا للوعى، فقد كانت فى حيرة من فكر ليلها،

- ووضعت الجوارى وجوههن عند قدميها، وقبّل الخدم يدها
- وكشفت النقاب عن شقائقها النّدية[١]، وفتحت عينها الوسنانة من النوم،
- فجعلت طوقها مطلعًا للشمس والقمر، وأطلت برأسها ونظرت كل صوب،

[١] يعنى بالشقائق: وجهها.

- فلم ترَ أثـراً لمتـوردّ الـوجنة الذى رأته فى الـبـارحـــة، فتداخلت فى نفسها كالبرعمة،

١٥٥ - واسـتقـر رأيها على أن تشق قـميـصهـا على جسـدها كالوردة، حزنًا على ذلك السّرو المدلل،

- ولكن خجلها من الناس منعهـا عن ذلك، وربط قدمها بأذيال الصبر،

- فكانت تخـفى سرّهـا فى قلبهـا الضـيّق، كأنهـا منجم الياقوت، والياقوت فى قلب الصخر،

- وكانت تبتلع - كالوردة -دمها فى قلبها، ولم تخرج من قلبها قطرةً واحدة،

- فشفتـها مع جواريها تقص حكايتها، وقلبـها من جرّائها يئن بالشكوى،

١٦٠ - وفمـها فى ابتسامـة حلوة مع رفيقـاتها، وقلبهـا به مائة عقدة كأنه قصب السكر،

- ولسانهـا يلوك الأساطير مـع صاحبـاتها، وبقلبهـا مائة وسمة من جرح العشق،

- فعينها تنظر إلى صورة الخلائق، وقلبها دائما مع الحبيب،

- وأنّى يكون عنان القلـب بيدها، وهو مع ذلـك الساحـر الذى خطفه حيثما حلت،

- فالقلب الذى يكون فى فم التمساح بسبب الحب، تقصر قدم التمنّى عن البحث عنه،

١٦٥ - فلا أمنية لها غير الحبيب، ولا راحة لقلبها سواه،

- فلو تحدثت، فمع الحبيب الحديث، ولو طلبت تحقيق رغبة، فمنه تطلبها،

- وقد فاضت روحها على شفتيها آلاف المرات، لينقضى يوم محنتها هذا،

- فقد خلق الليل على هوى العاشقين، أمينًا على أسرارهم،

- ومن ثم فإنهم يؤثرونه على النهار، فهذا يمزّق الأستار، وذاك أمينٌ عليها،

١٧٠ - وحينما أقبل الليل أدارت وجهها صوب حائط الحزن، وحنت ظهرها باكية، وكأنها القيثار،

- وجعلت من خيوط الدموع أوتارًا على القيثار، وعزفت ما يشغلها على أوتار قلبها،

- ورفعت من الشجن نغمة حزينة، وأخذت تنوح وتتأوه فى ارتفاع وانخفاض،

- وقد أجلست صورة الحبيب أمام عينها، وأخذت تنثر الجواهر من كلٍ من عينها وفمها[١]،

[١] يعنى ذلك أنها كانت تسكب الدموع وهى تناجى طيف الحبيب.

- قائلة: «أيها الجـوهر الطاهر!! من أى منجم أنت؟ فإنى أنثر هذه الجواهر بسببك،

١٧٥ - وقـد اختطفـت قلبى دون أن تخبـرنى عن اسـمك، أو تذكر لى علامة عن مكان إقامتك،

- ولست أدرى ما هـو اسمك حتى أجـعله وِرْدًا لى، ولا أعرف مقامك حتى أطوف حوله،

- ولا أدرى ممّن أستـفسـر عن اسمك، ولا أين آتى حـتى أسأل عن مقامك،

- فلو كنت ملكًا، فـخبّـرنى عن اسمك، ولو كنت قـمرًا فأين منزلك؟

- فلا كان أحـدٌ أسيرًا مثلى، فـقد خلت يداى من القلب ومالكه،

١٨٠ - لقـد رأيت طيفك، فـاختطف النوم منى، وأجـرى الدم الصافى من عينى وقلبى،

- وها أنذا أملك الآن جسدًا مؤرقًا، وقلبًا مضطرمًا بنارك،

- فماذا يحـدث لو سكبت الماء على النار، ولم تكن كالنار محرقًا متمردًا؟

- فلقد كنت وردة من روضة الشبـاب، نضرة طازجة كماء الحياة،

- لم تهب ريحٌ على رأسى أبدًا، ولـم تخز شـوكة قـدمى على الإطلاق،

٦٨٥ - فأسلمتنى بدلا لك إلى التَّلف، وغرست آلاف الأشواك على مخدعى،

- وأنّى لجسدٍ أرقّ من ورق الورد مئات المرات أن ينام على فراشٍ شائك؟"

- وكان هذا شغلها طول الليل حتى السحر، إذ كانت هذه شكواها لطيف الحبيب،

- فإذا انقضى الليل غسلت بالدموع المنهـمرة عينها، رجمًا لكل الظنون،

- فكانت شـفتاها نـديتين من شرب دم الليل، فـحكّتهـما بحجر - لسانها - اليابس،

٦٩٠ - ومنحت الـنّضـرة لـلوسـادة مـن ورق الورد النّدى[1]، والروح للفراش من سَرْوِها الفضّى،

- وكـانت تمضى ليلهـا ونهـارها على هذا النَّسق، دون أن تتحوّل عنه قيد شعرة.

[١] يعنى بورق الندى: وجه وزليخا.

وقوع عقدة الحيرة فى خيط تفكير الجوارى من جرّاء رؤية تغيير حال زليخا، وحلّ المربية تلك العقدة من ذلك الخيط بطرف إصبع الاستفسار

- أينما يطلق قوس العشق سهمه، فإن إحكام التدابير لا يفيد،
- فحين يعمل قوس العشق متخفيًا داخل بيت السهام، فإن عليه من الخارج مائة دليل ودليل،
- وما أطيب قول هذه الطرفة من الحكماء: «لا يمكن إخفاء العشق والمسك».

١٩٥ - فلو أن المرء يحجب المسك بمائة طيّة، فإن رائحته تشى عليه داخلها،

- وكانت زليخا تكتم أمر عشقها، وتزرع بذرة الأحزان فى صدرها فى الخفاء،
- إلا أنه كان يطل برأسه كل لحظة من موضع، وكان ينمو ويترعرع داخلها،
- إذ كانت عينها تنهمر بالدموع أحيانًا، وأى موضع للدموع!! بل هى تسكب الدم الصافى،

- وفى كل قطرة تسكبها من أهدابها، كانت تفشى سرّها الدّفين،

٧٠٠ - وكانت تتأوه أحيانًا أخرى، من لظى قلبها، فكان دخان آهتها يشق طريقه إلى السماء،

- وفى كل آهة كانت تخرجها من قلبها كانت الخلائق تشمّ رائحة شواء قلبها،

- ولما كانت بغير نوم أو طعام، ليل نهار، فقد بدت وردتها الحمراء صفراء كالشقائق الصفراء،

- وكان الجميع يدركون أن الشقائق لا تنمو فى بستان وهى خالية من الجراح،

- فلما رأ ت الجوارى هذه الدلائل، رسمن عليها خط الاضطراب[١]،

٧٠٥ - إلا أن سبب ذلك لم يتضح، ولا من هو محرك هذه الحالة العجيبة،

- فقالت واحدة منهن: «إن أحداً لم ير مثلها، وربما أصابتها عين إنسان».

- وقالت أخرى: «بل هو من أعمال ساحر، علّق صوراً من سحره على أذيالها».

[١] ربما يقصد الشاعر بهذا حيرة جوارى زليخا فى أمرها، وتخيلهن أن مَسًا من الجنون قد أصابها.

- واستحسنت أخرى الرأى القائل بأن ذلك «قد أصابها من شيطان أو جنّى».

- وقالت رابعة: «إن كل هذا من آثار العـشق، وقلبها دون ما شك مثقل تحت وطأة العشق،

٧١٠ - بيد أنها لم تشاهد أحدًا فى يـقظتها، لكأن هذه الآفة قد أصابتها فى نومها».

- وكانت كل واحدة منهن تذهب بهـا الظنون مذهبا، وكنّ يتناولن أمرها معًا بالقيل والقال،

- بيد أنّ سرّ قلبـها ما كان يتضح لأحـد، وما كان الكلام لينتهى إلى شىء من الأشياء،

- وكان لزليخا من بينهن مربية ساحرة، على قدر كبير من الإلمام بالسّحر،

- خبيـرة بطرق العشق، إذ كانت عـاشقة تارة، ومعـشوقة أخرى،

٧١٥ - فهى تصل المعشوق بالعاشق، وتجعل الحبيب العنيد يوافق،

- ذات ليلة أقـبلت، وقبّـلت الأرض بين يدها، وذكرتهـا بخدماتها،

- وقالت لهـا: «يا برعم البسـتان الملكى!! يا من يتـباهى الحسان بجمالك!!

– ليكن قلبك سعيدًا، وفمك باسما، وليكن حظنا مبتهجًا بطلعتك،

– فأنت ذلك السَّرو النضر فى حديقة الجمال، وأنت عشيقة طائر روحى[1]،

٧٢٠ – وما أنا إلا جدول من بحر وفائك، وقد رعيتك فى أحضانى زمنًا،

– وكنت أول من رأى طلعتك منذ البداية، وقطعت نافجتك بسيف الحنان،

– وغسلت قوامك بالمسك وماء الورد، وخاطبتك باسم (ماء الورد المسكى)،

– وصنعت قماطك من شغاف القلب، ولففتُ منطقته بحبل الروح برقة،

– وأطعمت سكّرك[2] اللبن، ورعيت جسدك الذى يحمى روحك،

٧٢٥ – فإذا أقبل الليل، كنت أنام لخدمتك، وإذا أقبل السَّحر زينّت وجهك الجميل،

[١] الترجمة الحرفية لهذا الشطر:
«الذى جعل ببغاء روحى حجلاً له»
[٢] المقصود بالسكر: فمها.

- وإذا ذهبت، كنت زينة كتفى، وإذا نمت، ضمّك حضنى،
- وحينما أصبح غصن وردك سروًا باسقًا، فإنى إلى الآن لم أنفض يدى من أطراف ثوبك،
- فأنا خادمتك فى كل عمل، ومشغولة دائما بشئونك،
- فأينما ذهب سروك الجذاب، تبعتك كظلّك،

٧٣٠ - وإذا جلست، وقفت أنا للخدمة، وإذا اضطجعت، وضعت رأسى على قدميك،
- وما زلت إلى الآن فى نفس العمل الذى كنت فيه دائمًا، أسيرة تلك الصدقة التى تعوّدتها،
- فلماذا تحجبين عنّى سرّ قلبك؟ ولماذا تبعديننى عنك بهذه الصورة كالغرباء؟
- وخبّرينى أخيرًا، من ذا الذى زجّ بك فى هذا المجال؟ ومن هو الذى سرق حمارك، وألقى بمتاعك؟
- ولماذا أنت مضطربة وغير مستقرة هكذا؟ ولماذا التألم ومحالفة الأسى إلى هذا الحد؟

٧٣٥ - ولماذا اصفرّ ورد وجنتك الأحمر بهذه الصورة؟ ولماذا بردت أنفاسك الحارة إلى هذه الدرجة؟
- وأنت شمس، فما سبب خسوفك كالقمر؟ وما سبب رغبتك فى الزوال وقت الضّحى؟

- أنا أعرف يقينًا أن قمرًا قطع عليك سبيلك، فصارحيني من يكون ذلك القمر؟

- فلو كان ملاكًا في السماء، سُبكت ذاته من نور القديسين،

- فإني أسبّح وأدعو إلى أن أحضره من السماء إلى الأرض،

٧٤٠ - ولو كان شيطانًا هائمًا في الجبال والغابات، فإني أجعل قراءة العزائم عملي وحرفتي،

- وأتلو التعاويذ لتسخيره، وأضعه في زجاجة وأجلسه أمامك،

- ولو كان من جنس الآدميين، فإني أريح خاطرك به في الحال،

- فمن يكون ذلك الذي لا يرغب في وصالك؟ إنه لن يطلبك جاريةً، بل سيدةً له».

- وحينما رأت زليخا ذلك الحنان، واطلعت على سِحرها وأقاصيصها،

٧٤٥ - لم تَرَ بُدًا من قول الحقيقة، ونثرت بالبكاء النجوم على صفحة القمر،

- قائلة: «إن كنز أملي محتجب كلية، وباب ذلك الكنز مفقود مفتاحه،

- فكيف أرشدك إلى طائر يشارك العنقاء عشها،
- بل إن العنقاء ذات اسم عند الناس، أما طائرى فمفقود اسمه أيضًا،
- فكم تطيب الحياة المرّة لمن يعرف اسم من يهواه،
٧٥٠ - فعلى الرغم من أنه يتجرع المرارة بسبب البعاد، فإنه يحلّى لسانه بذكر اسمه»
- وحلت عقدة لسانها فى ذلك الوقت أمام مربيّتها، فرفعت من شأنها بمشاركتها أسرارها،
- فأيقظتها برؤياها، وأكسبتها من فقدان الوعى صوابها،
- ولما قرأت المربية كلمة من دفترها، أطرقت حائرةً فى علاجها،
- حقًا! إن هذه الحكمة مطبوعة فى كل خيال، وهى: «من المحال طلب المجهول»،
٧٥٥ - فما لم تكن تعرف مرادك منذ البداية، فكيف يمكنك البحث عنه فى النهاية؟
- ولما لم تستطع أن تفك قيود قلبها، فكّت القيد عن لسانها لنصحها،
- فقالت لها فى البداية: (إن هذا من عمل الشيطان، وعمل الشياطين دائمًا هو المكر والخداع،

- فهم يبدون للخلائق بصورة جميلة، ليفتحوا أمامهم باب الوله»،

- فقالت زليخا: «أى قدرة للشيطان فى أن يبدو فى مثل هذا الشكل الجذاب؟

٧٦٠ - فمعاذ الله أن يتولّد ملاكٌ من الجسد الذى خلقت طينته من الفتنة والشرّ»،

- فقالت لها ثانية: «إنها أضغاث أحلام، فكيف نهلك الروح فى سبيل الكذب؟»،

- فقالت: «لو كانت هذه الرؤيا كاذبة، فكيف اختطفت الصادقين بهذه الصورة؟

- ويعد أهل القلب هذه الحكمة صادقة، وهى أن: (الطيور على أشكالها تقع»[1]،

- فقالت لها: «إنك عاقلة، فأبعدى هذه الهواجس عن خاطرك»،

٧٦٥ - فأجابتها: «لو كان الأمر بيدى، لما حطّمنى هذا العبء الثقيل،

- لقد أفلت زمام التدبير من يدى، وأفلت زمام الاختيار أيضا،

[١] الترجمة الحرفية للشطر الثانى:
«المعوجّ يميل إلى المعوجّ، والمستقيم يميل إلى المستقيم».

- وقد رسخت بقلبى صورة له، أشدّ إحكامًا من النقش على الحجر،
- فلو هبت الريح، أو انهمر المطر، فلن يزيلا تلك الصورة عن الحجر».
- وحين أدركت المربية رسوخ قدميها فى العشق، حبست الأنفاس من إسداء النصيحة،

٧٧٠ - وذهبت فى الخفاء، وأخبرت والدها، فاضطرب الوالد من تلك القصة المؤلمة،
- ولما كانت يد التدبير عاجزة، فقد أسلم أمره ليد المقادير.

رؤيا زليخا ليوسف فى المنام للمرة الثانية، وتحريك سلسلة عشقها، وجرّها إلى ورطة الجنون

- ما أسعد ذلك القلب الذى يسكنه العشق، فيلهيه عن أمور دنياه،
- ويتوهج فيه برق مضىء، يحرق متاع الصبر والعقل،
- ولا يتبقى به أحزان الخوف على السلامة، ويصبح جبل اللّوم عليه قشّة،

٧٧٥ - وتتعوّد روحه على اللوم، ويزيد اللوم عشقه،

- وكانت زليخا تدخل النقصان كالقمر طيلة سنة، بعدها أمسى بدرها هلالاً،
- وذات ليلة جلست مقوسة الظهر كالهلال، غارقة فى شفق عينيها،
- وكانت تقول: «أيها الفلك! ماذا صنعت بى؟ لقد أوصلت شمسى إلى درجة الشحوب،
- وجعلت قامتى المعتدلة كالقوس، وصيّرتنى هدفًا لسهم الملام،

٧٨٠ - وأسلمت عنانى فى يد متمرد، لم أعرف عنه سوى العناد،
- وألقى فى قلبى شعاعًا من المحبة، وضنَّ علىّ حتى فى الأحلام،
- فلا هو يُجالسنى فى اليقظة، ولا يُمتّعنى برؤياه فى المنام،
- إن الرؤيا التى أرى فيها ذلك القمر المنير، هى علامة سعادة الحظ،
- إن عينى لا تستريح فى النوم، وأنا أستعير نومها من حظّى النائم،
٧٨٥ - فلعل حظّى يستيقظ فى النوم، فيبدى لى الحبيب طلعته،
- قالت ذلك الكلام هزيعًا من الليل، وفاضت روحها على شفتيها ألمًا،
- وفجأة اختطفها النوم من بين هذه الأفكار، وما كان ذلك نومًا بل كان فقدان وعى،
- وما كاد جسدها يستريح على الفراش، حتى دخل أمنية روحها من الباب،
- ودخلت نفس الصورة التى قطعت عليها طريقها منذ البداية، بطلعةٍ أشد بهاءً من القمر،

٧٩٠ - ولم تكد تلقى بنظرها على طلعته الجميلة، حتى وثبت من مكانها، وألقت برأسها تحت قدمه،
- وقبّلت الأرض قائلة: «يا شجرة السّرو الوردية القوام!! يا من نزعت الصّبر والراحة من قلبى!!
- بحقّ من سوّاك من النور، منزهًا عن كل خبث،
- وتوّجك على طائفة الحسان، ومنحك الفضل بالرّقة على ماء الحياة،
- وجعل قامتك غصن ورد بستان الروح، وجعل شفتيك منبع قوتها،
٧٩٥ - وأضاء من وجنتيك البهيجتين شمعة أحرق بها طائر روحى كالفراشة
- ووهبك أنشوطة من الجدائل المسكية، كل شعرةٍ فيها تعدّ قيدًا لى،
- وبحق من جعل جسدى نحيلاً كخصرك الشبيه بالشعرة، وقلبى ضيقًا كميم فمك،
- أن ترحم روحى الولهانة، وتفتح شفتيك الجميلتين بالإجابة،
- وخبرنى: من أى أسرة فى الأصل أنت؟ بمالك من الحسن والجاذبية؟

٨٠٠ - وأنت جوهر متلألئ، فأين منجمك؟ وملك عزيز، فأين إيوانك؟»
- فقال لها: «إنني من سلالة آدم، خلقت من الماء والتراب،
- وأنت تدّعين أنك تعشقينني، فلو أنك صادقة بما تقولين،
- فارعيْ حقّ حبّي ووفائي، واهتمّي برضائي بألاّ تتزوّجي،
- ولا تجعلي سكّر شفتيك موردًا لأسنان أحد، ولا تبيحي عفّتك لأي إنسان،
٨٠٥ - فلو كان بصدرك جرح مني، فلا تظني أنّي خالٍ من الجراح،
- فقلبي بدوره أسير شراكك، وصرت هدفًا لجراح عشقك».
- وحينما رأت زليخا العطف، وسمعت من ياقوت شفتيه تلك الأسرار،
- جنّ جنونها من جديد، واضطرم الجحيم في أعماق الفراشة،
- ونهضت في السّحر ورأسها ثمل من طيف الحلم، وكبدها حرّى، وقلبها محترق،

٨١٠ - وازداد الحزن فى قلبها، حتى وصل دخانه السماء،
- وتولّد عن ولهها الواحد مئات أخرى، وفاق اضطرابها من أجله كل حدّ،
- وأفلت منها زمام العقل، وتحرّرت من قيد النصيحة والمشورة،
- فكانت تمزّق ثياب الروح كالبرعم، وتصبّ دم القلب على الأرض شقائق،
- فتارة كانت تمزّق وجهها من فرط حبها لوجهه، وأخرى تقتلع شعرها حين تذكر طرته،
٨١٥ - وقد التفت الجوارى حولها، ضاربات حلقة وكأنهن الهالة حول القمر،
- ولو كانت تحدث فجوة فى تلك الحلقة، فإنها كانت تنطلق منها كأنها السهم،
- وما لم تمسك تلك الحلقة بثيابها، لهام سروها الباسق على وجهه فى السهول،
- وما لم يضق الحصار عليها كالبرعم، لولّت وجهها كالوردة شطر السوق غير مُحجّبة،
- ولما أحيط والدها علمًا بذلك طلب العلاج من علماء البلاط،

٨٢٠ - فطرقوا لعلاجها كل الأبواب، فلم يجدوا حيلة أنجع من السلاسل،
- فأمروا بإحضار ثعبانٍ ملتوٍ من الذهب، يكون طلاؤه بالياقوت والجواهر،
- ويلف ذلك الثعبان المطلىّ بالجواهر حول ساقها الفضية، كأنه الحيّة فوق الكنز،
- حقًا!! إن زليخا كنز الجمال، ولا مفرّ من أن يكون لكل كنز حيّة،
- ولما نام الثعبان الذهبى تحت ذيلها، كانت تمطر اللآلئ من عينها قائلة:
٨٢٥ - «إن قلبى مكّبل بقيود العشق، وهى عندى أفضل من هذه الحياة،
- فلماذا تثقل قدرة الفلك - التى تسحق العمر - قدمى بهذه القيود؟
- فلم أعد أستطيع السير، ولم يبق عندى تفكير فى ذهاب أو إياب،
- فما جدوى تكبيل قدمى إذن بتلك القيود الثقيلة؟ وما سرّ جرح قلبى بسيف الظلم هذا؟
- لقد غاصت جذر السّرو فى الطين، وتعسّرت عليه الحركة،

٨٣٠ - فما حـكمة البستـانى فى أن يصبّ على هاتين القدمين سلاسلَ الماء؟

- كان أجـدى أن تكبّل قدم المحبـوب، الذى اختطف قلبى منى فى لحظة،

- حتى لا يغيب عن ناظـرى، وأتملأ برؤية وجهه الوردىّ، فإنه يمرّ مـرور البرق المتـوهج، فيـثير الدخـان من قلبى الملتهب،

- فلو أن حظى السـعيـد يحالـفنى، لربطت قدمـيه بهـذه السلسلة الذهبية،

٨٣٥ - فأشاهد وجهه وقتما أشتهى، ويبيض به سواد نهارى،

- ماذا أقول؟ إن دميةً صاغـها الدلال، لو استقرت ذرّة من الغبار على ظهر قدمها،

- فإن ركامًـا من الأسى يجثم على روحى، وأطوى بساط السرور،

- وكـيف يسـرّنى أن يقع عـلى كـاهله عبء، أو أن يمسّ ساقه الفضية أذى القيد؟

- أهونُ علىّ أن أطعـن بمائة سـيف فى قلـبى، ولا تلمس شوكة ذيل ثوبه،

٨٤٠ - وفجأة، أصابت واحدةٌ من هذه الأمنيات مرماها،
- فتمزق صدرها من جرّائها، وسقطت على الأرض كالصيد الجريح،
- وحالفها فقدان الوعى زمنًا، ثم عاد لها الصواب ثانية،
- وشرعت فى قصتها من جديد، لتسرّى عن قلبها المدله،
- فتارة تبكى، وأخرى تضحك، ومرة تموت، وأخرى تعود إلى الحياة،

٨٤٥ - كان حالها يتبدل كل لحظة، وظلت على هذا المنوال عامًا كاملاً.

رؤيا زليخا ليوسف عليه السلام فى المنام للمرة الثالثة، واستفسارها عن اسمه ومقامه، وعودتها إلى عقلها وصوابها

- تعال أيها العشق الساحر الخدّاع، الذى شأنه السلام تارة والحرب أخرى،
- تارة تظهر العاقل مجنونا، والمجنون حكيما تارة أخرى،
- وحين تضع على جبين الحسان سلاسل الطرر، فإنك توقع العقلاء فى سلاسل الجنون،
- ولو فككت من هذه الطرر خصلة، لأضاء لها مصباح العقل،

٨٥٠ - وذات ليلة، شربت زليخا الثمالة من كأس الألم،
- وكانت حرقة الأسى ترعدها، لنفاد صبرها وضياع عقلها، ومحالفتها الأحزان، واحتضان المحن[١]،
- وحسرت رأسها، وحثت التراب علهيا من نار قلبها،

[١] اقتضت الترجمة إدخالها جزءًا من البيت السابق فى هذا البيت.

- وانحنى - من السجود - ظهر السروة المدللة، فجعلت الأرض مثار غيرة إرم[1]

- وصبّت قانى الدمع من نرجس عينها، وتهيأت بلسان عذب كأنه السّوسنة،

٨٥٥ - وباحت بشجى قلبها الحزين، وشرعت فى سرد القصة على حبيبها،

- قائلة: «يا من أسلمت للضياع عقلى وراحتى، وبعثرت فى أيامى القلق،

- لقد منحتنى الحزن دون أن تزيله، وسلبت قلبى دون أن تعوّضنى عنه حبا،

- إننى لا أعرف اسمك حتى أجعله لى وِردًا، ولا أدرى مكانك حتى أجعله مطافى[2]،

- لقد كنت قانعة بحالى، سكّرية الابتسامة، أما الآن فبى عقدٌ منك وكأنى قصب السكر،

٨٦٠ - وما أكثر ما شربت من الدم - من فرط حزنى عليك - كالبرعم، وقد سقطت كالوردة خارج الكِمّ،

[١] دليل على شدة جمال وجه زليخا.

[٢] سبق أن ورد هذا البيت تحت رقم (٦٨١)، وربما كان هذا التكرار من إضافة النّساخ، وفى رأينا أن ذكره فى الموضع السابق لا يتمشى مع سياق الأحداث فى القصة.

- وإننى لا أقول إننى عزيزة فى نظرك، ولكننى أقل جارية فى جواريك،
- فمـاذا يحدث لو دلّلـت جارية لك، وحـررّتها من قـيد محنتها؟
- فلا تضمَّخ أحـدٌ بالدم مثلى، ولا عرت الفضيـحة أحدًا من بين الخلائق مثلى،
- لقـد ضاق قلب أمى من سـوء قرابتى، وأوغـرت بنوّتى قلب أبى،

٨٦٥ - وهجرتنى خادماتى وتركتنى يطحننى الغم فى وحدتى،
- وأضرمت النار فى روحـى وكأننى حزمـة من الأشواك، ولا يحرق أحدٌ إنسانًا وحيدًا بهذه الصورة،
- وظلت تناجى أمنية روحها وقـلبها على هذا النحو، إلى أن اختطفها النوم،
- وحينما انتشت عينها بكأس النوم، أقبل إلى نومها سالب النوم هذا،
- بهيئـة أحلى من كل ما أقول، ولا أدرى مـاذا أقول بعد هذا،

٨٧٠ - فتعلقت فى ذيله نائحـة، وسكبت دم القلب من أهدابها على قدمه،

- قـائلة: «يا من ولّت من قلبى الراحـة، وطار من عـينى النوم بسبب آلام عشقك!
- بحق الطاهر الذى خلقك طاهراً، واصطفـاك من حسان كلا العالمين،
- أن تقصر أمد حزنى وتخبرنى عن اسمك ومدينتك».
- فقال لهـا: «لو أن أمرك يستقيم بذلك فأنا عـزيز مصر، ومصر مقامى،

٨٧٥ - وأنا من المقرّبين إلى ملك مصر، وقد منحنى العزيز[١]، العزة والجاه فيها».
- فلما وجـدت زليخا تلك العـلاقة من الحبـيب، صارت كميت من مائة عام عادت إليه الروح،
- وعادت - بعد هذا الحـديث الحلو حلاوة الشراب - إلى جسدها القوة، وإلى قلبها الصبر، وإلى كيانها العقل،
- وبسبب تـلك الرؤيا التى رأتها ، من حظهـا السعـيد، نهضت عاقلة، وكانت قد نامت مجنونة،
- فـقد أعـادها ذلك الخـبر - من ذلـك القمـر الذى أثار الاضطراب فى قلبها - إلى عقلها وصوابها،

[١] يعنى بالعزيز هنا: الخالق سبحانه وتعالى.

٨٨٠ - فنادت علي جواريها من كل صوب، قائلة «يا رفيقاتى في حزنى!

- بشرن والدى بالسعادة، وخلّصن قلبه من نار المحنة،

- فقد عاد إلىّ عقلى ووعيى مرة أخرى، وعاد الماء يجرى في نهرى الذى جف ماؤه،

- فتعالين، وارفعن القيد الذهبى عن فضّتى، فلم يعد هناك خوف علىّ من الجنون بعد،

- وافككن القيد عن ساقى بأيديكن، ولا تدعنه - كما يفعل البخيل - فى فضّته»

٨٨٥ - وحينما طرقت تلك البشرى مسامع أبيها، طار عقله لاستقبالها،

- وفقد وعيه لأول وهلة، كما يفعل العاشق، ثم ولّى وجهه شطر تلك السَّروة،

- وفتح فم تلك الأفعى ذات الرأسين، وخلّص فضة الجسد من قيد الحزن،

- فطأطأ الجوارى رؤوسهن عند قدمها، ووضعن عرش الذهب تحت قدميها،

- وأجلسنها على عرش الدلال، وتوّجنها بالتاج الذهبى،

٨٩٠ - واحتشدت ملائكيات الوجه من كل مكان، وصِرْن فراشاتٍ يحمن حول شموعها،

- وكلما كانت تجلس مع رفيقاتها فى المجلس، كانت تنثر الكلام من فمها الياقوتى كالببغاء،

- فكانت تفتح غطاء صندوق الحكايات، وتبدأ الحديث عن كل مدينة،

- فتُثير الحديث عن الروم والشام، وكان حديثها يفيض عذوبة كلما تعرّضت للحديث عن مصر،

- وكانت تُنهى حديثها عن المصريين، لتذكر اسم عزيز مصر،

٨٩٥ - فإذا جرى اسمه على لسانها، خرّت ساقطة على الأرض،

- وكانت تنثر سيل الدماء من سحب عينيها، وكانت أنّاتها تجاوز عنان السماء،

- وكان هذا شأنها دائمًا، ليلها ونهارها، إذْ كانت تسوق الكلام عن الحبيب وعن دياره،

- وكانت تجتهد فى هذا الكلام الجميل، أو تكفّ عن الكلام (تمامًا).

مجىء الرسل من كل مدينة - عدا مصر - لخطبة زليخا، وعودتهم إلى ديارهم يائسين

- رغم اضطراب حال زليخا، فقد طبقت شهرة جمالها الآفاق،

٩٠٠ - وأينما وصلت قصة حسنها، فُتن بها كل من سمع عنها،

- وأسر الحكام عشقُها، ووصلت شهرتها إلى محافل الملوك،

- فكان يقدم إليها رسول كل لحظة، من قبل ملك من الملوك، أملاً فى الزواج منها،

- وذلك بعد أن نجت من الجنون، وجلست عاقلةً على عرش المحبَّة،

- فأقبل الرسل من قِبَل ملوك كل الأقاليم والأوطان؛ فهذا رسول ملك مملكة الشام، وذاك عن الروم،

٩٠٥ - وأقبل مايزيد عن عشرة أشخاص، واستراحوا فى بلاط جلالتها،

- ويقبضة أحدهم قائمـة ملكه وماله، وبإصبع الآخر خاتم سليمان،
- فكل هدية لملك منهم هى عـلامة منه على طلب الزواج بها،
- بحيث إن أى موضع تضع فـيه قدميهـا - تلك التى تثير غيرة الشمس - يكون عاصمتها التى تتوج فيها،
- ويكون تاج الملك ثرًى تسـير علـيه فى كل إقليم يصـبح مجتلىً لها،

٩١٠ - فلو أنها اسـتقرت - كـالقمر - فى بلاد الشـام، فإنهم يدعون لها من الصباح حتى المساء،
- ولو اتجهت صوب الروم، لأضحى الجمـيع عبيدًا لها من الصباح حتى المساء،
- وعلى هذا فإن كل رسول كان يعبّر عن رسالة على لسان ملك مشهور،
- وحينما وقفت زليخا على هذا الأمر، اضطرب قلبها من الحيرة،
- وقالت: هل بينهم رسول من مصـر؟ فإن عشق المصريين قد قصم ظهرى،

٩١٥ - وإن قلبي لينجـذب نحو المصـريين، وإذا لم يكن بينهم
رسول من مصر فلست أدرى ما سيحدث؟
- إذ إن النسـيم الـذى يهبّ من مـصـر، ويكحـل عـينى
بغبارها،
- خيـرٌ لى مائة مرة من تلك الريح الـتى تحمل المسك من
صحراء التتار»
- وبينما هى فى هذا التفكير، استدعاها والدها، وأجلسها
أمامه بحنان،
- وقال لها: يا نور العين وبهـجة القلب! ومن حرّر قلبى
من قيود الحزن!
٩٢٠ - إن الملوك فى عواصم الدنيا، والمتوجين على عرش العظمة،
- قد حـملوا فى قلوبهم جرح الرغـبة فـيك، وزرعوا فى
صدورهم بذرة الوله بك،
- وقـد أقبل إلينـا رسول من كل ملك منـهم، طمعًـا فى
القبول،
- وإنى أسرد عليـك حكاية كل منهم، لأرى على من يقع
اختيارك،
- لأجعـلك فى الحال حـاكمـة لشعب أى إقليم يميل إلـيه
قلبك

٩٢٥ - وكان والدها يتكلم بينـما هى صامتـة، وكانت مصغـية أملاً فى سماع ذكر من تحب،

- فما أطيب الاستمـاع إلى الكلام من مصدر يأمل الإنسان فيه أن يسمع شيئًا عن الحبيب،

- وسرد القصص عن الملوك واحـدًا تلو الآخر، بيد أنه لم يتعرض للحديث عن المصريين،

- وأدركت زليخا أنه لم يأت رسـولٌ من مصر إلى ديارها، يبغى الزواج منها،

- فنهـضت من أمـامه يائسـة مـرتجفـة من الغم كـشجـرة الصفصاف،

٩٣٠ - وكـانت تثقب اللآلئ بأهداب عـينيـها، وتمطر الدمـوع منها، وهى تقول:

- ليت أمى لم تلدنـى، وليت أحدًا مـا أرضـعنى بعـد أن ولدتنى،

- فلست أدرى على أى طالـع ولدت، وأين هوى بى هذا الطالع!!

- إذ لو ارتفع سحاب يمطر ماءه على شفتى كل ظمآن،

- فإنه حـينما يتّجه إلىّ وأنا جـافة الشفتين، لا يمطر غـير اللهيب،

٩٣٥ - ولست أدرى، أيهــا الفلك، ماذا تكنُّ لى؟ ومــاذا تبغى من إغراق ذيلى بالدماء كذيلك؟

- فما دمت لم تهــيئ لى فرصة الطيران إلى الحــبيب، فلا تقذف بى بعيدًا عنه هكذا، ولو مرّة،

- ولو أنك تتــمنّى لى الموت، فــهأنذا قــد متّ، وأسلمت الروح من حيفك،

- ولو تتمنّى لى الألم والحزن، فقد أثقلت قلبى بمائة لوعة كالجبال،

- فإلام تثبت قــشة تحت الجبل؟ وحتّام تصارع نبــتةٌ أمواج الأسى؟

٩٤٠ - إن بقلبى مــائة موضع لجراح قــسوتك، فلو ترحــمنى، فهذا مجال الرحمة،

- فماذا يضيرك إن كنت سعيدة أو حزينة؟ مُرَّةً أو حلوة؟

- فــمن أنا؟ وماذا أفــاد مولدى؟ ومــا جدوى وجــودى أو فنائى؟

- فلو عصفت الريح بمحصول وجــودى فقل لها اعصفى، فإن مائتى كومة منه لا تساوى فتيلاً عندك،

- إذ أسلمت للريح آلاف الورود النضــرة، وكويتــها بالنار بجرح الفناء،

٩٤٥ – فأنّى يُؤرّق خاطرك، وأنا واحدٌ ممّن أفنيت؟»

– وأمضت يومـها حتى المسـاء، وسط النواح والألم، وقد طفح قلبها بالدم مثل البرعمة،

– وكانت تسكب الدموع من عينيها المبللتين، وتهيل التراب على رأسها بيد المرارة،

– وحينما رأى والدها ولهـها واضطرابها، وعويلها عـشقًا لعزيز مصر،

– أذن للرسل بالرحـيل، حاملين هدايا ملوكـهم، متـحلاً لهم كثيراً من الأعذار المختلفة،

٩٥٠ – (قائلاً): إن لسـانى مرتبط مع عزيز مـصر من أجل هذه الابنة الغالية،

– وواضح لأولى الرأى أن الفضل دائمًا يكون للسابقين،

– وليس هناك أفـضل مما ينطق به لسـان الوجـود أن: «لا بديل لليد المتقدمة»

– فتـخلّى الرسل عن هذه الأمنيـة، وعادوا تعـصف على أكفهم رياح اليأس.

إرسال والد زليخا رسولاً إلى عزيز مصر، لعرض زواج زليخا عليه، وقبوله هذا الأمر

- أصاب كبد زليخا جرح العشق، وزادها اليأس جرحًا فوق جرح،

٩٥٥ - فكل يوم يبدو وجهه متألقًا فى البياض، اللهم إلا نهار اليأس الأسود،

- ولما رأى والدها اعتلال روحها من أجل مصر، أدرك أن علاج سقمها يكون فى ذلك،

- أن يسلك حكيم طريق مصر، ويطلب دواءها من عزيزها،

- ويحمل معه عدة رسائل منه، ويعقد له عليها،

- فاختار حكيما من المقربين إليه، وأثنى عليه كثيراً لما له من حكمة،

٩٦٠ - وحمله مائة نوع من الهدايا النفيسة، واستقر الرأى على ذهابه إلى العزيز،

- وحمله رسالة يقول فيها: يا من يقبّل الدهر تراب أعتابه!!

- لتزدك ألطاف الفلك كل يوم عزة فوق عزة،
- إنّ لى شمسًا فى برج العصمة، أصابت كبد القمر حرقةٌ منها،
- وهى أعلى من القمر منزلة، ولم تَرِ عينُ الشمس ظلّها،
٩٦٥ - فجسدها أشد صفاءً من الجوهر المكنون، وأكثر تلألؤًا فى شرفها من النّجم،
- وهى تنظر إلى القمر مُخفيةً وجهها، خشية أن تراها عين النجوم،
- لم تَرَ طلعتها إلا المرآة، ولم يحلل شعرها سوى المشط،
- ليس ميسرًا لأحد أن يلقى برأسه على قدميها، إلا طرّتها فى بعض الأحيان،
- ولا يجرؤ أحد على تقبيل قدميها وهى تتبختر فى صحن بيتها إلا ذيل ثوبها،
٩٧٠ - لم تمسّ الماشطة ذقنها بيديها، ولم يداعب إصبع آدمى شفتيها،
- سحب جمالها عن الورد أذياله، لأنه مزّق قميصه بسوء السمعة،
- وأغمضت عن النرجس عينيها، لأنه ثمل قليل الحياء،
- ولا تمشى فى ضوء الشمس أو القمر، حتى لا يرافقها ظلّها فى طريقها،
- ولا تمرّ على ينبوع أو جدول، كيلا تقع عين صورتها فى

الماء على وجهها،

٩٧٥ - وقد اتخذت لها من داخل الأستار منزلاً، ورغم هذا فقد أثارت خارجها كل الاضطراب،

- فكل الملوك عشاق هواها، ضحايا رقتها التى تأسر الألباب فُجاءةً،

- وقد ارتشف العظماء جميعًا - من حدود الروم حتى الشام - دماءَ قلوبهم شوقًا إليها،

- بيد أنها لم تستجب لأى منهم، وليس فى قلبها إلا عشق مصر فحسب،

- فلا يستريح خاطرها لبلاد الروم، ولا تتفاءل بماء الشام وترابه،

٩٨٠ - فعيونها سبيل على طريق مصر، ودموعها من أجل مصر نهر نيل،

- ولست أدرى سرّ هذا الشغف بمصر، ولا من أثار هواها إلى ذلك المكان؟

- لكأنما عجنوا هناك ترابها، أوعندهم خطّوا براءة رزقها!!

- فلو أن ساميَ رأيكم يقبل، فإنى أرسلها إلى تلك البلاد الجذّابة،

- فإن لم تكن زينةً فى صدر قصركم، كانت جاريةً تكنس

تراب أعتابكم

٩٨٥ - فلما سمع عـزيز مصر هذه البشرى، تسامى فـخراً حتى لمس بقلنسوته عنان السماء،

- وتواضع قائلا: «من أنا حتى أزرع فى قلبى بذرة هذا التفكير؟

- ولكن ما دام الملك قد رفعنى من الأرض، فمن حقى أن تتجاوز رأسى الأفلاك،

- فمـا أنا إلا ذلك التـراب الذى تمطر عليه سـحب الربيع قطرات من اللطف،

- فلو ينبت من جسـدى مائة لسان -كـما تنمو الخـضرة- فلست بمستطيع شكرَ ألْطافك ،

٩٩٠ - وبهذا اللطف الذى أظهره الملك، فإن من الواجب - لو يحالفنى الحظ-.

- أن أجعل من رأسى قدمًا، ومن عينىّ حذاءً، وأتجه بهما صوبه،

- ولكنى سألزم خدمة ملك مصر ينبوع الحكمة،

- فلو أبتعد عنه ساعة، لتعذّبت بسيف سطوته،

- فليعفنى والدها من المثول بين يديه، وليبعـد عن خاطره تهمة تكبّرى،

٩٩٥ - فلو أنه يأذن لسيّرت إليه مائتى هودج ذهبى، عرفانًا بالجميل،
- وآلافًا من الجوارى المتبخترات، والعبيد الطوال القامة كالصنوبر،
- وغلمانًا أشدّ صفاءً من حور الجنّة، لفرط جمالهم،
- وثغورهم حلوة التّبسُّم، وقد تمنطقوا بمناطق مطرزّة بالياقوت والدّر على خصور نحيلة،
- وقد تزينوا وأمالوا قلنسواتهم، وامتطوا سروجهم فى منازلها الذهبية،

١٠٠٠ - أما الجوارى فقد اتّشحن بحلل من النور، فصرن كأنهن الحور المبرأة من نقائص الماء والطين،
- وتناثرت طررهن المعنبرة على وجوههن الوردية، واتخذن من حواجبهن قبابًا مقوّسة فوق الأقمار،
- وتحلّين بالجواهر، وجَلَسْنَ متجليات فى هودجهنّ الذهبى،
- وكل من هو ملائم من أرباب الكياسة، أو لائق من أصحاب الفراسة،
- أرسلهم ليحضروها بكل إعزاز، إلى قصر خلوة الدلال.

١٠٠٥ - فلمــا سمع الرســول الحكيم هذا الكلام، طأطأ الرأس إعجابًا، وقبّل التراب،
- (وقــال له): يا من عزّت بك مـصر، واســتعــاد بك الكرم نضرته،
- إن ما يتمناه سلطاننا ليس هو الخـيل والحشم، فكل ما وهبت ليس بذى قيمة أمامه،
- فــما يمـتلكه من العــبيــد والجــوارى، لا يدخل تحت حصر،
- ومــا يخلعه على المحظوظـين فى محــفله، أكثــر من أوراق الشجر،
١٠١٠ - والجواهر التى تغدقها يداه، أكثر من رمال الصحراء،
- وليس له من أمل ســوى قــبــولك فــما أســعــد ذلك الشخص الذى يحنو عليه خاطرك،
- ومــا دامت تلك الـفــاكــهــة قــد لـقــيت منك قبولاً، فسيرسلها إليك سريعًا.

هبوب نسيم القبول من جانب مصر، وشدّ رحالِ محمل زليخا كأنه كِمّ الورد إلى مصر

- وحينما عاد ذلك الحكيم من مصر، ليفك عن روح زليخا القيد،
- وأتى لها من العزيز بأخبار سعيدة، فإنه أنساها وجودها، وملأها بوجود العزيز،

١٠١٥ - تفتحت أزهار حظها، وحلّق طائر سعادتها،
- فقد عقدت الرؤيا أمرها، ثم أقبل طيف (يوسف) فحرّرها من تلك القيود،
- حقا!! إن مصدر التعاسة أو المسرة فى الدنيا إما الأحلام وإما الخيال،
- فطوبى لمن تحرّر منهما، ونجا من مثل تلك الدوامة،
- فلما رآها والدها مسرورة، أطلق العنان لترتيب جهازها،

١٠٢٠ - فأعدّ لتلك العروس آلاف الدمى، صينيّة وروسيّة،
- أفواه الجميع كالفستق، ونهودهن كالرمان، وخدودهن بساتين ورود تعلوها بساتين،
- وقد علّقن فى آذانهن عقوداً من الجواهر، وقد

كحّلْنَ، الأقواس المسكية من الأذن إلى الأذن،

- نضرات كـأوراق الورد فى الصباح، بريئـات من عار المساحيق والحمرة المصطنعة،

- وكـأن خصـلات شعـورهن المجعـدة فوق رءوسـهن خصلات عنبر فوق الشقائق، وقد تعلّق بآذانهن لؤلؤ ندىً،

١٠٢٥ - وألف غلام أمرد مثـير للفتنة، يسلب بدلاله الأرواح، ويسيل دم العيون بغمزاته،

- وقد أمـالوا القلنسوات الحمراء فـوق رءوسـهم، وفكوا ثنيات خصلهم المسكية،

- وبدت أطراف الشعرات من تحت القلنسوة، مثلما تبدو أغصان السنبل تحت الشقائق،

- وقد اتشـحوا بحرير مـقصّب، فـبدت الثيـاب عليهم لطيفة كالبرعم، متوائمة كقصب السكر،

- وتمنطقوا بمناطق مرصّعة فوق خـصورهم النحيلة كالشعرة، وقد تعلق بشعرة كل منهم - من كل جانب - مائة قلب،

١٠٣٠ - وألف حصان جميل المنظر، مـتناسق الأعضاء، سريعة وقت السير طيّعةٌ تحت السَّرج،

- وهى أسـرع فى عـدوها من الكرة أمـام الصولجـان،

وأنعم فى لطفها من الندى على وجه الخضرة،

- فلو أن السَّوط يلقى بظله عليها، لوثَبت خارج إطار الزّمان،

- وكأنها حُمُر الوحش المستنفرة فى الصحراء، أو فقاعات الماء السابحة على سطح البحر،

- تحطم الصّخر الصّلد بحوافرها، وتخجل شجر الخيزران من نعومة ذيلها،

١٠٣٥ - يستوى أمام سيرها السهل والحزن، ولا تخرج عن إحكام عنانها،

- وألف بعير كلها أصيلة، ظهورها كالتلال، وكأنها كثبان فى صحراء،

- فهى كالجبال أجسامًا، بيد أنها ذات أعمدة، ولا تقل سرعةً عن الريح،

- وكأنها الزّهاد قناعةً بقلة الزاد، وقدرةً على تحمل الأعباء،

- وتقطع الصحارى دون ملل، وتطعم الشوك وكأنه فى فمها السنبل والورد،

١٠٤٠ - وهى تسهر وتجوع حبا فى السّفر، وتقطع الصحراء على أنغام الحداء،

- ومائة بعير محملة بأنواع النفائس، حمل بعير منها يعادل دخل إقليم،

- ومائتا بساطٍ من الديباج الثمين، بعضها مصرى، وبعضها رومى، وبعضها شامى،

- ومائتا صندوق مُلئ بالمسك التّترى، وأخرى بالعنبر والعود القمارىّ،

- ومائتا صندوق من الجواهر اللامعة، من الياقوت والدّر، والياقوت البدخشى،

١٠٤٥ - فحيثما استقرت القافلة، أضحى وجه الأرض كصحراء الصين، طيبة الرائحة،

- وأعد لزليخا هودجًا رائعًا، كما لو كان محفل زفاف عروس،

- فقد كانت أوصال هودجها من الصندل والعود، وقد طليت لوحاته بالذهب،

- وسقفه مرصّع وكأنه تاج جمشيد، وقبته مزركشة وكأنها كرة الشمس،

- فهو من خارجه وداخله ملىء بمسامير الذهب، والدُّرَر المعلقة،

١٠٥٠ - وقد علقت ستائر حريرية مزركشة، جذّابة الألوان، جميلة المنظر،

- وانساب الهـودج على ظهور جمـال ريحية السـرعة،
كما ينساب العطر بين نسيم الربيع،
- وآلاف من الغلمـان طوال القـامـة، تعـبق وجـوههم
وصدورهم برائحة الياسمين،
- وأينما أراحوا تلك العروس، أخجلت حديقة إرم،
- واندفعـوا كالربيع الجـديد، مولين وجـوههم من بلاد
إلى بلاد،
١٠٥٥ - وأجلسوا زليـخا فى هودج زفافـها، وساقـوه بها إلى
مصر متدللاً،
- فالغلمـان نشاوى يسـرعون، والجوارى مـتدللات فى
الهودج يتجلّين،
- وقـد نصبت كل جـارية من طرّتها شـركًا صـادت به
غلامًا،
- وسحب كل غلام من كنـانته سهمًا، فـشقّ به صدعًا
فى روح أسير،
- فـالهـيام والدّلال من جـانب، والتـدلّه والعـشق من
جانب آخر،
١٠٦٠ - فآلاف العشاق لاهون مع المعـشوقين، وفى كل موضع
مائة متاع ومائة مشترٍ،

- كانوا يقطعون الفيافى على هذا النحو، يتّجه محملهم صوب مصر،
- وزليخا مسرورة القلب، سعيدة بحظها، فسيطوى طريق مصر سريعًا،
- وسيتنفّس سحر ليل الغم، وينقضى حزن الهجر،
- لم تكن تدرى أن ذلك الليل مازال حالك السّواد، وأن بينها وبين الصباح طريقًا طوله سنوات،

١٠٦٥ - وأخذ الركب يحث خطاه فى النهار المضىء، وفى الليل الحالك، إلى أن صارت مصر قريبة،
- وأرسلوا - وهم على البعد - رسولاً، ليقود هودجه أمامهم،
- ويتحسس الطريق إلى مصر، ويبشّر العزيز،
- أن السعادة قد أقبلت إليه مسرعة، «فانهض - إن شئت - لاستقبالها»

معرفة عزيز مصر بأمر قدوم زليخا ونهوضه لاستقبالها، وتزيّنه هو وجيش مصر

- حينما سمع عزيز مصر هذه البشرى رأى الدنيا كما لو كانت تسير على هواه،

١٠٧٠ - فأمر بأن يخرج جيش مصر بأكمله من البلاد،

- وأن يتحلّى الجميع بكل ما يملك من ألوان الزينة،

- فخرج أفراد الجيش غـارقين - من إخمص قدمهم إلى مفرق رأسهم - في الزينة والذهب والجواهر،

- وخـرجت مئـات الألوف من الغلـمان ذوى الوجـوه الوردية، والجوارى الفضيات الرقاب،

- وغلمـان بأطواق وتيـجان ذهـبيـة، كـأنهم نخل من الذهب، نما من مقاعد السروج،

١٠٧٥ - وقد ازدانت الجوارى بالألوان السبعة، في هوادج ذات ستائر مزركشة،

- وشرع المطربون ذوو الشفاه السكرية في الغناء، فتغنوا بجميل الصوت مهنئين،

- وأعدّ المغنى باب الطرب، وشرع فى الألحان العذبة،
- وبحركة أذن العود انسابت فيه الحرارة، فجادت أوتاره بألوان الألحان،
- وزفّت أنغام الـناى بشرى الوصال، فـولّد فى الأرواح أمل التّلاقى،

١٠٨٠ - بينمـا الرباب يمنح الـروح الأمان من أعـبـاء الحـزن، ويرتفع صوت الكمان بأنغام الاستحسان،
- وزفّ الدف عن الحـبيب إيماءً بأنه لم يعـد منه فى يد المسافرين سوى جلده،
- وولّوا وجـوهـهم صـوب الطريق علـى هذا المنوال. وأعطوا للسعادة والطرب حقهما،
- وحـينمـا قطعـوا - كـالقـمـر - من الـطريق منزلين أوثلاثة، وصلوا إلى تلك الـشمس ومن حـولهـا من الأقمار،
- فوجـدوا أرضًا خلت من الظـلمة، نصبـت بها آلاف القباب المضيئة،

١٠٨٥ - فكأنما هى سـحب السـمـاء غيـر المحـدودة، أمطرت النجوم بدلاً من البَرَدْ،
- وقد ضرب فى الوسط مخيّم ملكى، اصطفت الحسان حوله،

- وحينما رأى عزيز مصر ذلك المخيّم، تبسّم صباح فمه عن نور الشمس،
- ترجل عن حصانه الملكى، وأسرع صوب الخيمة مسروراً،
- فأسرع إليه حراس المخيّم، وقبّلوا الأرض بين يديه أملاً فى السعادة،

١٠٩٠ - فسلّم عليهم ورحّب بهم واحداً واحداً، وازدهر كالوردة فى وجوههم طرباً،
- وتساءل عن حال ذلك القمر، وعما أصابهم من تقلّبات الجوّ، ومشقة الطريق،
- ثم زيّن وجه الصحراء بالأشياء التى حملها على سبيل الهدايا، والتى بدت له أفضل مارأى،
- من جوارٍ جميلات، سكّريات الابتسامة، ومن لابسى قلنسوات ذهبية، متمنطقى الخصور،
- ومن خيل صنعت سروجها من الذهب، مزدانة بالجواهر من ذيلها إلى أذنها،

١٠٩٥ - ومن ملابس صوفية وحريرية، ومن خزائن الجواهر النادرة،

- وأكوام من السكر المصرى، وألوان مختلفة من لذيذ الشراب،
- ثم أبدى مزيدًا من الشفقة، وكثيرًا من الأعذار[1]،
- وحدّد الغد موعدًا للرحيل، ثم ولّى وجهه صوب مخيمه.

[١] ربما يعني الشاعر بذلك: أن عزيز مصر اعتذر عمّا لاقوه من مشقة أثناء السفر.

رؤية زليخا عزيز مصر من فتحة الخيمة، وصياحها بأن "هذا ليس ذلك الشخص الذى رأيته فى المنام، وتحملت الأسى عدة سنين من أجله"

- إن الفلك العجوز مشعوذٌ يحتال لإلحاق الضّرر بالخلائق،

١١٠٠ - فهو يأسر العاشق بقيوده، ملوحًا له ببريق الأمل، ثم يسلم وصاله آخر الأمر لليأس،

- ويظهر له فاكهة الأمل أمام عينيه من بعيد، ثم يعذبه بالحرمان فى آخر الأمر،

- فحينما ألقى عزيز مصر بظله فى الخيمة التى كانت زليخا ومربيتها فيها،

- سلب الشوق إلى رؤية الحبيب العنان من يدها، فقالت لمربيتها: «يا شريكة أحزانى!

- اصنعى لى حيلةً لألقى نظرة واحدة، فإنى لا أطيق الصبر بعد ذلك،

١١٠٥ - فحينما يـصبح الحبيب جارًا قريبًا، فـإن الشوق إليه لا يذكو أكثر من ذلك،

- وحينما يأخذ الظمآن قطرة ماء على شفتيه، فإن روحه تحترق مالم تبلّل فمه»

- ولما رأت المربية زليخـا مضطربة، ثقبت ثقبا ضـيقا فى تلك الخيمة، يشبه فى ضيقه عين الخيام،

- ونظرت زليخـا من تلك الخيمة، وتأوهت من أعـماق قلبها الحزين،

١١١٠ - قائلة: ويلاه!! لقد حدث لى أمـرٌ عجيب، فقد هوى علىّ جدارٌ ثقيل حمله!!

- ليس هذا هو الـذى رأيتـه فى المنام، وتحـــمّلت هذه الآلام بحثًا عنه،

- وليس هـذا هو الذى خطـف عـــقلى ولبّـى، وأسلم للضياع قلبى،

- وليس هذا هـو الذى باح لى بسّـــره، وأعــــادنى من الذهول إلى الصواب،

- فـواحسـرتاه!! إن حظى التّـعس يتعـثّـر، وقد خـيّم النّحس على مطلع نجمى،

١١١٥ - لقــد زرعت النخيل فــأثمرت شــوكًا، ونثــرت بذور المحبّة فأنبتت آلامًا،
- وتحملت عناءً لا حــدود له بغية الحــصول على الكنز، فأضحى التّنين من نصيبى فى نهاية المطاف،
- وذهبت إلى البستان أمــلاً فى اقتطاف الورود، فمزّقت حراب الأشواك أذيالى،
- وما أشبهنى بذلك الظمآن فى الصحراء يجرى فى كل صوب طلبًا للماء،
- وقد سقط لسانه على شفتيه ظمأ، وفاضت شفته بموج الدم ممّا تحملت من بثور،
١١٢٠ - ثم يبــدو الماء أمامه فــجأة من بعــيد، فــيجــرى صوبه متعثرًا،
- فيجد فى حفرة، بدلاً من المــاء، أرضًا ملحة متوهجة من أشعة الشمس،
- أو أننى كمن ضلت راحلته بين الجبال، وقد وقع تحت وطأة جبل من الحزن لنفاد الزاد،
- وقــد تمزقت قدمــاه من الحــجارة إربا، فــلم تعد لهــا القدرة على المسير ولا الأمل فى البقاء،
- وفجــأة ترى عيــناه المليئــتان بالدم طيف راحلتــه التى افتقدها،

١١٢٥ - فيسرع الخُطى نحوها بحماس، فيراها لسوء حظّه أسدًا مفترسًا،
- أو كأننى ذلك التاجر الذى تحطمت سفينته، وجلس عاريًا على أحد ألواحها،
- وفى كل لحظة يختطفه الموج من مكان إلى مكان، فيهبط به إلى الحضيض تارة، ويطفو به أخرى،
- وفجأة، يبدو أمامه زورق فتسرّه رؤيته، فبه سيهون أمره
- وحينما يقترب منه مسرعًا، يراه تمساحًا يبغى إهلاكه،
١١٣٠ - فليس هناك بين الخلائق عاشق مثلى، وليس بين العاشقين محروم مثلى،
- فقد فرغت كفّاى من قلبى ومن حبيبى، ولذا فالحجر على قلبى والتراب على رأسى،
- فارحمنى - بحق الله - أيها الفلك، وافتح أمامى باب المحبة،
- وما لم تضع الحبيب فى حجرى، فلا تدعنى أسيرة شخص آخر،
- ولا تمزّق قميصى بالفضيحة، ولا تلوّث ذيلى بيد إنسان،

١١٣٥ - لقد قطعت عهدًا مع مراد قلبى، أن أصون كنزى ما وسعنى الجهد،
- فلا تحرقنى - أنا العاجزة - بغمّك، ولا تسلم ليد التنين كنزى»
- وكانت تداوم البكاء والعويل، وتسكب الدم القانى من أهداب عينيها،
- وأخذت تنوح من روحها وقلبها الممزقين، وتمرّغ وجهها على التراب ألمًا،
- فدخل طائر الرحمة مرفرفًا، وناداها هاتف الغيب فجأة،
١١٤٠ - قائلا: «ارفعى - أيتها المسكينة - رأسك عن الأرض، فسوف ييسّر أمرك بعد عُسر،
- إن مراد قلبك ليس عزيز مصر، ولكنه لا يتحقق بدونه،
- فسيمكنك عن طريقه رؤية جمال الحبيب، وعن طريقه يمكنك الوصول إلى مرادك،
- ولا خوف عليك من صحبته، لأن قفلك الفضّى سيظّل سالمًا منه،
- فأسنان مفتاحه من الشمع، ومعلومٌ ما يتأتّى من مفتاح الشمع،

١١٤٥ - فلا حاجة بك للحفاظ على جوهرك، إذ لا يتأتّى عمل الماس من الحديد اللّين،

- وطالما أن إبرته شوكةٌ نضرة، فكيف يمكن الحياكة بحجر صلد؟

- وما دام الكمّ قد خلا من اليد، فإن الخوف من الخنجر لا يتأتّى من كمّ لا يدّ فيه»

- فلما سمعت زليخا هذه البشرى من الغيب، أحنت رأسها على الأرض شكرًا،

- وكفت لسانها عن النواح، وشفتيها عن الصياح، وشمّرت عن ساعدها لشرب الدماء كالبرعمة،

١١٥٠ - فكانت تتنفس أسى وهى تتلظى بدم غيظها، ولكنها تأبى أن تبوح بذلك،

- فكانت عين انتظارها على الطريق، ولسان حالها يقول: «متى تُحلّ عقدة أمرى؟!».

قدوم زليخا بصحبة عزيز مصر، وخروج المصريين بأطباق الذهب لنثرها على هودجها

- وفى وقت السحر، حينما دق الفلك ذو الكواكب طبول رحلة المساء على الطبلة الذهبية،
- وتركت الكواكب محفلها أيضا، وشدت رحالها فى صحبة الليل،
- ومن وهج تناثر الذهب من تلك الكرة، أضحى ذيل الطاووس بلون ريش الببغاء،

١١٥٥ - أقبل العزيز بأبهة الملك، وأخرج القمر من خيمته وأجلسه فى الهودج،
- ونظم الجيش من ورائها ومن خلفها، وعن شمالها وعن يمينها، بما يليق بمقامها،
- وكأن المظلات الذهبية على مفارق الحسان ظلال لأشجار ذهبية منتصبة،
- وكأن السرج المرصّع تحت قدم كل شجرة قد صار عرشا لكل حسناء منهن،

- فالشجرة والظل والعرش سائرة، أما السعيد فجالسٌ بينها،

١١٦٠ - وشرع المطربون فى الغناء، والحداة فى الحداء،

- حتى مُلئ طبق الأفلاك وصحن الصحراء بصوت الحداء وصدى الألحان،

- ولسرعة سير الخيل والجمال، فقد امتلأ الوادى والصحراء أهلةً وبدوراً[١]

- ولجريها فى كل صوب كأن وجه البدر يتمزّق أهلّة من جرح الحوافر،

- وأحيانًا يطلع بدر سعيد، فيتلاشى لأجله الهلال،

١١٦٥ - ويجرح الحصان الأرض بحافره، فيضع كف قدم الجمل بلسما على ذلك الجرح،

- وصار صهيل الخيل السريعة كعزف الأرغن فى آذان تلك الغزلان السكارى، راكبى السروج،

- وأضحى صياح الحداة أنغاما للمستقرات فى هودج الدلال،

- وكانت جوارى زليخا مبتهجات سعيدات، فقد نجت ملائكية الوجه تلك من شيطان الهجر،

- وكان العزيز ومن معه مسرورين، فقد صارت حوراء على هذا النمط سيدة منزله،

(١) يعنى بالهلال: حدوة الحصان، أما البدر فكناية عن خف الجمل.

١١٧٠ - وكان حلْق زليخا مـراً وهى فى هودجها، يكاد بكاؤها
ونواحها يصل إلى الأفلاك،
- (قائلة): «أيها الفلك! ماذا تضمر لى على هذا النحو؟
ولماذا تكنّ لى نفاد الصبر والراحة؟
- لست أدرى مـاذا صنعت بك، فـتلـقى بى هكذا فى
الألم والمتاعب؟
- إنك قد اختطفت قلبى منّى فى رؤياى - بادئ الأمر-
ثم زدتنى ألف حزن فى يقظتى،
- فتارة تأسرنى بقيد الجنون، وتطلق عقالى بالتّعقُّل أخرى،
١١٧٥ - ومادام قد ثبت يقينًا أنك سبب نكبتى، فمن العبث أن
أبحث عن دوائى منك،
- ومن كان يدرينى أنك - فى الوقت الذى أنشد العلاج
فيه - ستشردنى بعيدًا عن أهلى ودارى؟
- لقد كـان يكفينى جـرح الحرمـان، فزدت عليـه جرح
الغربة،
- فإذا كان صـهر الروح هو علاجك، فمـعاذ الله، ماذا
يكون إذن صهر الروح؟
- فلا تضع -أيها الفلك- شركًـا للخداع فى طريقى مرة
أخرى، ولا تقذف كأس صبرى بالحجارة،

١١٨٠ - إنك تعدنى أن تحقق أمنياتى منذ الآن، وتحقق لى الراحة من راحة روحى هذا

- وهأنذا جدّ مسرورة بذلك الوعد، ولكن ماذا أصنع إذا كان ذلك حظّى»

- وبينما كانت زليخا فى هذا الحديث مع الفلك، سمعت من يقول: «لقد آن أوان إنزال الهودج».

- وعلا صوت الدليل قائلاً «ها هى مدينة مصر، وها هو شاطئ النيل»،

- وكان آلاف الأشخاص، وقوفًا وركبانًا، مصطفين على شاطئ النيلوهم يصيحون،

١١٨٥ - وعلى أكفهم أطباق الذهب والدراهم، وأطباق أخرى من الجواهر والدّر، لينشروها على ذلك الهودج، تكريمًا لعزيز مصر،

- فكان أصحاب النثار ينثرونهم بالجواهر، كما تمطر سحب الربيع على أطراف الخميلة،

- ولكثرة ما نثرت الأكف من الذهب والجواهر، اختفى الهودج تحت هذا الركام،

- ومن كثرة ما سكب الناس من الجواهر، فإن سنابك الخيل لم تصل إلى الأرض،

١١٩٠ – فكلما كانت سنابك الخيل تدور، كانت تقذف الشرر من ارتطام الياقوت بنعال الخيل، وكأنه ارتطام للحجر بالحديد،

– واصطف الجميع أميالاً، وكلهم يلقون بالنثار من شاطئ النيل،

– ولكثرة ما ألقى فى النيل من الدرر الملكية، مُلئت أُذن كل سمكة بالجواهر فاستحالت صدفة،

– وأضحت التماسيح تمتلك الدراهم مثل السمك، من كثرة ما بذل ناثرو الدراهم من عطاء،

– ومضوا بهذه الزينة الملكية، إلى أن أوصلهم حظهم السعيد إلى قصر السعادة،

١١٩٥ – وكان قصراً، بل إنه جنة الدنيا، وما القمر والشمس إلا لبنتان فى بنائه،

– قد وضع فى قصر السعادة هذا عرش يفوق فى جماله كل عرش،

– وكان به صائغ حاذق، شغل بنثر الجواهر والذهب بغير حدود،

– وأوصلوا سريرها الذهبى إلى حافة العرش، واجلسوها كالجوهرة فى العرش الذهبى،

- بيد أن روحهـا لم تنجُ من ألم الجراح، فكانت تجلس في النار بسبب ذلك الذهب،

١٢٠٠ - ووضـعوا على رأسـها تاجًـا مـرصعًـا، وجلوها بين العرش والتاج،

- ولكنهـا كانت تحت جـبل، مما خـيّم على قلبهـا من حزن، رغم وجود ذلك التاج الثمين،

- ونثـروا على رأسهـا جواهر لا حدود لـها، بيد أنـها كانت في نظرها سحبًا وأمطارًا من الأسى،

- ولم يَجْرِ في عينيـها من تلك الجواهر التي تثيـر غيرة الشمس إلاّ دُرر الدموع،

- فالمرء الذي تمزّق قلبه هجرًا، لو مال للعرش فإنّ ذلك لفترةوجيزة،

١٢٠٥ - فأي رأس تتوّج في ذلك الميدان الذي تضـيع فيه مئات الرؤوس،

- فلما امـتلأت عينهـا بدموع اليأس، أصبح لا مـجال للدُّر فيها.

تضحية زليخا عمرها فى فراق يوسف عليه السلام وتلهّفها وتأسّفها مدى الأيام والليالى

- حينما ينعم القلب بمحبوبه، أنّى له أن يتمنّى وصال غيره؟
- فكيف يُتاح للفراشة أن تطير صوب الشمس، طالما أن أملها متجه صوب الشمع؟
- فلو وضعت مائة باقة من الريحان أمام البلبل، لما استراح قلبه إلاّ لرائحة الورد،

١٢١٠ - وإذا وقع لهيب الشمس على النيلوفر، فكيف يطمع أن ينظر إلى القمر؟
- وحينما تودّ روحٌ ظمأى شربة ماء، فإن السكر الخالص لا يُجدى معها نفعًا،
- فقد اكتملت أسباب الجلال لزليخا، فى ذلك المنزل السعيد،
- وأصبح العزيز أمامها عبدًا، ولم ينقصها شىء من المال والذهب،
- وأما وصيفاتها فكن ورديات الرائحة والثياب، وكن لا يسترحن ولا يتوانين عن خدمتها،

١٢١٥ - ولم تحاول الجوارى الجلوس لولههن، ولرغبتهن فى

خدمتها،

- أما الغلمان، فقد تزينوا بالقصب، وتمنطقوا بالأحزمة، فكانوا - من إخمص القدم حتى الرأس- فى حلاوة قصب السكر،

- سود اللّون، كما لو خُلقوا من العنبر، طاهرو الذيل من الشهوة مثل الملائكة،

- فالمقيمون فى الحرم - من الجوارى - مشغولون فى نظافته، والمؤتمنون عليه مشغولون فى ترتيبه،

- أما جليساتها من سيدات مصر، فممّن اتّصفن بالحسن وروعة الدّلال،

١١٢٠ - كن جميعًا فى عمرها وقوامها، وكن سعيدات معها للطف صحبتها،

- وجلست زليخا فى حجرة استقبالها مع الجميع، فكانت الحجرة تضم الأصدقاء والغرباء على السّواء،

- كانت قد نشرت بساط السعادة ،وكان قلبها ينزف دمًا وقت أن كانت شفتاها تفتران عن ابتسامة،

- فهى فى ظاهر الأمر تحدث الجميع وتسمع منهم، غير أن قلبها كان أسيرًا لمكان آخر،

- فشفتاها غارقتان فى الحديث مع الناس، وقلبها متعلق

بالحبيب دائمًا،

١٢٢٥ - وبسبب ذلك الحبيب الذى سرّها وأحـزنها، لم يكن يربطها بأحدٍ رباط محكم،

- فقـد كانت مع الخـلائق بجسمـها، أمـا روحها فـقد تحررت من كل خاطر،

- كان هذا شـغلها من الصباح إلى المســاء، وكانت هذه أفعالها بين خلاّنها،

- فإذا أقبل الليل متبرقعًا بقناعه المسكىّ، جلست وحيدة كالقمر تحت ستاره،

- واضعـةً طيف الحبيب علـى عرش الدلال، فى خلوة أسرارها حتى السَّحر،

١٢٣٠ - جاثيةً أمامه بأدب، مستعرضةً أحزانها أمامه،

- عازفةً لحن نواحهـا على ربابة المحنة، وقد شرعت فى غناءٍ غيرِ واعٍ،

- قـائلة: «يا أمنية روحى!! يـا من أخبـرتنى أن مصـر مقامك!

- وقلت إن اسـمك عـزيز مصـر فلتكن الـعزّة - آخـر المطاف - من نصيبك،

- وليُصَغْ من عـزّتك تاج الشرف، ولتظهـر على وجهى

آثار السعادة من خضوعى لك،

١٢٣٥ - إننى اليوم مهجورة وغريبة فى مصر، وقد حرمت من سعادة وصالك،

- ولا أدرى إلامَ أحترق بهذه الجراح، وأضىء مصباح الأسى بها؟

- فأقبل، وكن نضرة بستان قلبى، وليكن وصلك بلسمًا لجراحى،

- إنّ حالى قد آل إلى اليأس بسبب العشق، بيد أن هاتف الغيب أذكى فىّ جذوة الأمل!

- وهأنذا أحيا على هذا الأمل، وأنفض عن ذيلى غبار اليأس،

١٢٤٠ - وإنى لأدرك - بالضياء الذى غمر به جمالك قلبى - أننى سألقاك فى خاتمة المطاف،

- وعلى الرغم من أن عينى تمطر الدم شوقًا إليك، فإنها تبحث عنك فى جهات أربع، من الجهات الستّ،

- فأطيب بوقت تقبل فيه من الطريق صوبى، وتبدو لناظرى قمرًا،

- فأصير إلى عالم اللاوجود حينما أرى طلعتك، وأطوى بساط حياتى،

- وأفتقد مقدرتى على التفكير فى أمر ذاتى، ذاهلة عن أمرى، ضلالاً وفقدان وعى،

١٢٤٥ - فلا تراني في مكاني مرةً بعد مـرة، وتستقر أنت روحًا في كياني،

- وأطرح جـانبًا «أنـا» "ونحن"، لأني حين أبحث عن نفسي أجدك أنت،

- فـأنت أمنيتـي في كلا الدارين، فـحـينما أجـدك لا جدوى في أن أتحدث عن نفسي»[١]

- كانت تقضي الليل حتى السَّحر في هذا الحديث، ولا تكفّ عن هذا الكلام حتى الصباح،

- وحيـنما كان نـسيم السَّـحر يبـدأ في الهبـوب، كان حديثها يوقع على نغمة أخرى،

١٢٥٠ - فمـاذا كانت تقـول؟: «هبّي يارياح السَّحـر، واسكبي عبير المسك في جيب الياسمين،

- وزيّني مُجـتلى السَّرو والسَّـوسَنْ، وامسـحي بجدائل السنبل النديّ جبين الورود،

- إنك تحـركين أوراق الأغصـان، فتـستحـيل أجـراسًا، وترقص الأشجار رغم أن جذورها في الطين!!

- وتحملـين رسالة العاشـقين إلى المعـشوقين، فتـمنحين بذلك للعاشق راحته،

[١] واضحٌ من هذه الأبيات تأثر الجامي بابن عربي في القول بوحدة الوجود.

- وتحضرين رسالة الدلال من المحبوبين، فتزيحين الأحزان عن كاهل الأحبة،

١٢٥٥ - ليس على ظهر البسيطة من هو أكثر حزنًا منّى، ولا بالأرض من أدمن حياة الحزن بسبب جرح الهجر عن نفسى،

- لقد اعتلّ قلبى فاشفيه، وكثرت أحزانى فامحيها،

- فلا مكان فى الدنيا لست موجودة به على الدوام،

- فلو كان الباب حديديا لاخترقته، ولو أغلقوه لدخلت من النافذة،

- فارحمينى أنا الهائمة الضالة، وحاولى أن تبحثى عنه من أجلى،

١٢٦٠ - وادخلى عواصم الملوك، واصعدى عروش المتوّجين،

- وسلى فى كل مدينة عن قمرى، وابحثى عن أوصاف مليكى فوق كل عرش،

- ومُرّى بكل حديقة وكل ربيع، وتجوّلى على شاطئ كل نهر،

- فعسى أن تبصر عيناك ذلك السّرو الجذاب على شاطئ نهر وقت تطوافك،

- وضعى - كريمةً - قدميك فى صحراء خُتَن، واستريحى فى متاحف الصين،

١٢٦٥ - وفتشي عن أنموذج لطلعة وجهه، وصيدى على شذاه غزلانًا،
- وحينما يعتريك التفكير فى الرحيل من تلك الديار، ففى كل سهل أو جبل تمرين به،
- لو مرّت أمامك حمامة متبخترة، فتشبثى بأذيالها على ذكراه،
- ولو رأيت قافلة على الطريق، تهفو القلوب إلى دليلها،
- فانظرى بعينىّ إلى مليك روحى هذا، وأوصلى تلك القافلة إلى هذا الإقليم،
١٢٧٠ - فعسى أن أقطف زهرة من غصن الأمل، حينما أرى ذلك المحبوب»
- كانت تحمّل نسيم الصباح هذه الرسالة، حتى تأتى الشمس مسرعةً فى حلبة النهار،
- وقلبها يعتصره الألم، وعيناها تسكبان الدماء،
- فإذا أضاءت الشمس المجالس، أضاءت زليخا كالشمس مجلسها،
- واصطفت الجوارى أمامها، واستراح لرؤيتها رفاقها،

١٢٧٥ - واتخذت مكانها - بنفس الصورة - كالبارحة، مع صفيات القلوب، نقيات الصدور أولئك،
- كان هذا حالها كل يوم وليلة، وعلى هذه الوتيرة كانت تمضى سنىّ عمرها،
- وكلما ضاق قلبها من البقاء فى المنزل، كانت تسرع بالخيل صوب الصحراء،
- فتارة تضرب فيها خيمتها كالشقائق، وقلبها يدمى من التأوّه والبكاء،
- ثم تحكى للشقائق أسرار ذلك الوردى الوجنات، وتفيض فى الحديث عن جراح قلبها،
١٢٨٠ - وتارة أخرى تنحدر إلى الوادى مسرعةً كالسيل، تقصد النيل بعين باكية،
وتلقى بأحزانها أمامه، تغسل فى النيل ملابس أحزانها،
كانت تقضى عمرها بهذه الصورة، وعين انتظارها مشدودة إلى الطريق،
- لعل حبيبها يبدو من إحدى الطرق، فيبزغ شمسًا أو يبدو قمرًا،
- فأقبل يا جامى، لتشحذ الهمّة، ونحضر بدر كنعان[1]

من مدينته،

١٢٨٥ - إن عين زليخا معلقة بالطريق الرئيسي، وقلبها مفعم بالأمل،

- وقد تجاوز ألم انتظارها الحدود، فلنعالجها بوصال حبيبها،

- فما أطيب أن يصل العاشق إلى مراده بعد طول انتظار.

[١] المقصود به: يوسف عليه السلام.

بداية قصة حسد إخوة يوسف عليه السلام وانتظارهم للانتقام منه بالإجماع

- هكذا أعطى صاحب القلم للكلام حقّه في هذا الكتاب نقلاً عن الأستاذ القديم[١]،

- أنه: «لما رفع يوسف رأسه بالجمال، جعل قلب يعقوب أسيرًا له،

١٢٩٠ - وأجلسه كإنسان عينه فيها، وأغمض عينيه عن أبنائه الآخرين،

- وهكذا كان يسبغ عليه ألوان المحبّة، حتى أن غيرة إخوته كانت تزداد كل لحظة،

- وكان في فناء بيته شجرة زادتها خضرتها حُسنًا وبهاءً،

- متّشحة بالخضرة كساكني الصوامع، يشتدُّ وجدها وجلبتها أثناء الحركة،

- راسخة في مجال الاستقامة، تلقى بظل الكرامة على الأرض[٢]،

[١] ربما يشير بالأستاذ القديم إلى ناظم القصة قبله، أو من تناول هذه القصة بالشرح والتفسير.

[٢] قمت هنا بتقديم وتأخير في الترجمة ليستقيم المعنى.

١٢٩٥ - ولكل ورقة فيها لسانٌ يسبّح، وأقسم بالله، إنه لتسبيحٌ عجيب،

- وقد تجاوزت أغصانها السماء فصارت الملائكة طيورًا لأغصانها،

- وفى مقابل كل ابن رزقه الله كان يَنْبُتُ من تلك الشجرة السعيدة، الشبيهة بالسّدرة

- فى تلك اللحظة غصن جديد، ينمو باتّساق مع نموّ الابن،

- وحينما كان يصل إلى سنّ الرشد، كان يمنحه منه عصًا خضراء،

١٣٠٠ - اللهم إلاّ يوسف، الذى لم يوافقه - لمخالفة حظه - غصنٌ من تلك الشجرة،

- فقد كان نَبْتَه بستان الروح، ولا يليق أن يتساوى معه غصنٌ خشبىّ،

- وذات ليلة قال لوالده، بعيدًا عن إخوته: يا من كُتِبَ لساعد كفاحك التوفيق،

- ادعُ الله لى، ضامنَ الأعمال والأراضين، حتى ينبت لى عصًا من الجنّة،

- تشدّ أزرى حيثما أدبّ، من شبابى إلى شيخوختى،

١٣٠٥ - وتمنحنى الغلبة على كل أخ، فى ميدان الحرب واللعب»،

- فرفع الوالد وجه التضرع إلى الله، ودعا ليوسف،

- فهبط من السّدرة رسول الملك الأبدى، وفى يده عصًا خضراء من الزبرجد[1]،

- لم تَر جـرح فأس الأيـام، ولم تتحـمّل أمل منشـار الزمان،

- صلبة قوية غـالية القيمـة، خفيفة الوزن، لم يلحـقها عار التّلوث بالزيت أو الالوان،

١٣١٠ - وأخبـرهم بالرسالة قائلا: «إن هذا فـضل إلهى، فهى عمود البلاط الملكى،

- فلما أصـبح ساعد يوسف قـويًا بهذه التحـفة، حطم ظهر حاسديه من الحسرة،

[١] يقول الثعلبى: «قال أهل العلم بقصص الأنبياء وأخبار الماضين: كان ابتداء أمر يعقوب ويوسف عليهما السلام وبدء محبة يعقوب له وإيثاره على سائر ولده أن الله تعالى أنبت ليعقوب شجرة، فى صحن داره، فكان كلما وُلِدَ له ولدٌ أخرج الله تعالى من تلك الشجرة غصنا. فكان كلما كبر الغلام وشب طال ذلك الغصن وغلظ، فإذا بلغ ذلك الغلام قطع يعقوب ذلك الغصن ودفعه إليه فولد له عشرة بنين فأخرج الله تعالى من تلك الشجرة عشرة قضبان، فلما ولد له يوسف لم يخرج الله من الشجرة شيئًا، فلما كبر وشب قال لأبيه: يا نَبِىّ الله إنه ليس أحد من إخوتى إلا وله غصن إلا أنا، فادع الله تعالى أن يخصنى بغصن من الجنة، فرفع يعقوب يديه إلى السماء وقال: اللهم إنى أسألك أن تهب ليوسف غصنًا من الجنة يفتخر به على جميع إخوته، فهبط جبريل عليه السلام ومعه قضيب من الجنة من الزبرجد الأخضر......».

قصص الأنبياء، المسمى بالعرائس. الثعلبى... ص ١٢٢. القاهرة. (لم يحدد سنة الطبع)

- فإن تلك العصـا من يد القدرة فيهـا، أثقل عليهم من مائة عصا خشبية،
- وبسببـهـا تصور كل واحد من إخـوته تصوراً مـعينا، وزرع كل واحد غصنا من الحسرة فى قلبه،
- وشحذ كل منهم همتـه على ذلك فى البداية، بيد أن عملهم أثمر الخجل فى نهاية المطاف.

رؤيا يوسف عليه السلام، سجود الشمس والقمر وأحد عشر كوكبا، وسماع إخوته هذا الأمر، وزيادة حسدهم

١٣١٥ - ما أسعده ذلك الذى تحرّر من قيد الصورة، وأغلق عينيه عن سحر السحرة!

- فقلبه يقظ، وعيناه فى سبات لذيذ، ولم يرَ أحدٌ مثل تلك اليقظة أثناء النوم،

- وقد أغمض عينيه عن كل متاعٍ زائل، ووجّه همّته لكل ما هو خالد،

- وذات ليلة وضع يوسف رأسه على وسادة أمام عين يعقوب، وكان عنده محبوباً كعينه،

- وراح فى نوم لذيذ، مُحلّيًا ياقوته العذب بالابتسامة،

١٣٢٠ - فوقع الوله فى قلب يعقوب، بسبب تلك الابتسامة الحلوة من تلك الشفة السكرية،

- فلما استيقظ يوسف من نومه، استيقظ حظه بدوره من النوم،

- فقال له والده: «يا من يغار السُّكر منك، ما سرّ تلك الابتسامة العذبة؟»
- فقال: «إني رأيت أحد عشر كوكبًا مضيئًا والشمس والقمر،
- وقد أدّوا جميعًا فروض الولاء، وخرّوا أمامي سجدًا»[1].

١٣٢٥ - قال له أبوه: «كفّ عن هذا الكلام، واحذر أن تقصّ رؤياك على أحد،
- خشية أن يعرفها إخوتك، فلا يترددّون في أن يكيلوا لك صنوف الأذى (في يقظتك)،
- إذ إن قلوبهم مفعمةٌ بالحقد عليك، فَأنَّى لهم أن يتركوك وهم على هذه الحال؟
- ولن يتحمّلوا هذه الرؤيا حسدًا منهم؛ إذْ إنَّ تأويلها واضح كل الوضوح»[2]،
- وعلى الرغم من أن والده أوصاه تلك الوصية، فإن، القدر أسلم سلاسل التدبير للريح،

[١] اعتمد الشاعر في نظم هذه الأبيات على قوله تعالى. ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ سورة يوسف. آية(٣)

[٢] تأثر الشاعر هنا بقول الله سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾. سورة يوسف. آية (٤)

١٣٣٠ - فقد قصّ يوسف تلك الرؤيا على أحد الأشخاص،
فحكاها بدوره لإخوة يوسف[1]،
- وقد سمعت أن كلّ سرّ تجاوز اثنين، أصبح منتشراً
على كل لسانٍ فى وقت قصير،
- وقد قال أحد الحكماء: «إن هذين الاثنين ليسا إلاّ
الشفتين، وليس من الأدب مرور السّرّ بينهما».
- وما أكثر الأسرار التى تخرج من الشفتين، فتدمى
قلوب مئات الأبطال،
- وما أطيب ما قاله ذلك الحسن القول، الحسن الفعال:
«إذا أردت أن تحتفظ برأسك، فصُنْ سِرَّك».
١٣٣٥ - فإذا قفز طائر جارح من قيد قفصه، فلا يمكن أن تربط
قدمه بالحيلة مرة أخرى،
- فحينما سع إخوة يوسف قصته، مزّقوا ثيابهم حقداً،
- وقالوا: «يا إلهى ماذا يجول بخاطر أبينا؟ ذلك الذى
لا يميز ما يضرّه مما ينفعه،
- ألا يدرى ماذا يتأتّى من طفل؟ إن أى طفل ليس

[١] لم يحدّد الشاعر شخصية ذلك الشخص الذى حكى له يوسف رؤياه، وهل كان واحداً من إخوته أو أنه كان شخصاً آخر، وقد جاء فى «تفسير فارسى تربت جام» أن يوسف حكى رؤياه لخالته «ليا» فحكتها لبقية إخوة يوسف، ويبدو أن الشاعر تأثر بهذه الفكرة -يوسف وزليخا «تفسير فارسى تربت جام». أبو بكر عتيق بن محمد سور آبادى. ص (١٠). تهران- ١٣٤٣.

خليقاً إلا بالتطفل،

- إنه ينسج لكل واحد بعض الأكاذيب، ليرفع من شأنه بها،

١٣٤٠ - ويخدع ذلك الشيخ المسكين بكذبه، فيصبح متلهفًا على صحبته،

- ويقطع حسن صلاتنا، ويستأثر بحنان الأبوة من دوننا،

- وبهذه الصورة رفع والدنا من شأنه، ومع ذلك لم يقتنع بكل هذا القدر من الاحترام،

- بل يتمنى أننا - نحن المطهرين من الآثام - نخرّ له سجدًا،

- ولسنا وحدنا فحسب، بل معنا أبونا وأمنا، ولا ينبغى طلب الجاه بهذه الصورة،

١٣٤٥ - فنحن المتعلقون بأبينا لا يوسف، ونحن المحبّون له لا يوسف،

- ونحن رعاته فى الصحراء نهارًا، وحرّاس بيته فى المساء،

- ونحن قوة ساعده على الأعداء، ومفخرته أمام

الأصدقاء، فماذا رأى منه غير الاحتيال، فيختاره على رأسنا بهذه الصورة؟[1]،

- فهيّا بنا نتدبّر أمرنا، لنشرّده بكل طريقة ممكنة،

١٣٥٠ - فطالما أنه ليس على وئام معنا فليس له من علاج سوى التشريد،

- فينبغى أن نحزم أمرنا للبحث عن علاج، قبل أن يفلت من أيدينا زمام الاختيار،

- فحينما تنبت شوكة بسبب نحس الطالع، فينبغى اقتلاعها قبل أن تصبح شجرة،

- وقطعوا على أنفسهم عهداً للبحث عن وسيلة، واجتمعوا فى مكان للتّشاور.

[١] تأثر الشاعر في نظم هذه الأبيات بقوله تعالى. ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ سورة يوسف. آية (٧).

تشاور الإخوة مع بعضهم لتدبير حيلة لإبعاد يوسف عليه السلام عن أبيه وإقصائه عنه

- حينما يطرأ أمام العاقل مأزق، ويتعقّد بسببه أمره،

١٣٥٥ - فإنه يستعين بعقلٍ آخر، ليساعده على الخروج منه،

- وما لم تضئ شمعة واحدة منزلاً، فلابدّ من إشعال أخرى،

- بيد أن هذا الكلام لا ينطبق إلاّ على المخلصين، الذين سما شأنهم بإخلاصهم،

- ولا ينطبق على زمرة المنحرفين سيّئ التفكير، فلا ينتج عن مُعْوَجّينٍ إلا مزيد اعوجاج،

- وحينما اجتمع إخوة يوسف للتشاور فى أمره،

١٣٦٠ - قال أحدهم: «إنه قد سفك دماءنا حسرةً، فينبغى أن نحتال على سفك دمه،

- فإذا ظفرت بعدوك، فأرق دمه، وبذلك يمكنك الخلاص منه،

- فإذا قُتِلَ، فإن هذا السّرّ يظل محتجبًا؛ إذ لا يصدر من القَتيل صوت».

- وقال آخر: «أن نفكّر في قتل إنسان بريء، فهذا طريق إلى الكفر،

- فلو أننا نطلق لظلمنا العنان، فلا يجب أن يصل إلى حدّ القتل، فنحن - آخر الأمر - مسلمون،

١٣٦٥ - إنَّ الهدف هو أن نبعده عن هذا المكان، لا قتله أو ضربه أو موته،

- فمن الأفضل أن نطرحه في وادٍ شاسع، محرومًا مهجورًا، بعيدًا عن أبينا،

- وادٍ ليس به إلا الوحوش والشّراك، وليس به من حسن الدنيا وقبيحها إلا الثعالب والذئاب،

- ولا ماء به إلا دموع اليأس، ولا خُبزَ سوى قرص الشمس،

- ولا ظل غير حلكة الليل، ولا مضجع عدا أسنة الأشواك،

١٣٧٠ - فحينما يستقر فيه برهة، فإنه يموت تلقائيًا،

- فنتخلص من حـراب حيلتـه ومكره، دون أن نُخضّبَ سيفَنا بدمه[1]،

- وقـال ثالث: «إن هذا قتل بدوره، بل هو بديل أسـوأ من القتل نفسه،

- فانتزاع الروح بالخنجر فـجأة، أفضل من الموت جوعًا أو نظمًا،

- فمن الأفـضل أن نبحث فى كل اتجـاه عن بئر ضَيّـقةٍ مظلمة،

١٣٧٥ - ونُطيح به بعيدًا عن الصـدارة والعزة والجاه، ونُلقِى به فى تلك البئر مسربلاً بالمذلة،

- عسى أن تسـتقر هناك إحـدى القوافل، لتسـتريح فى ذلك المكان زمنًا،

- فيدلى واحدٌ منها بدلوه، فيـخرجه من تلك البئر بدلاً من الماء،

- فيتبنّاه أو يتخذه عبدًا، ويَحُثّ الخُطى حاملاً إياه،

(١) تأثر الشاعر فى الأبيات السابقة بقوله تعالى. ﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾ سورة يوسف. آية (٩).

- فبتقطع صلته بهذا المكان، دون أن يلحق به أذى منا»[1]،

١٣٨٠ - ولما حكى قصة البئر المليئة بالأذى، أبدى الجميع موافقتهم على تلك الفكرة،

- وكانوا يجهلون أغوار بئر مكرهم، فَهَوَوْا فيها جميعًا دونما نجدة،

- وما إن سلكوا سبيل النفاق إلى قلب والدهم، حتى اتفقوا على ذلك الخداع،

- وبعد ذلك ولوا وجوههم صوب عملهم، على أن ينفذوا وعدهم فى الغد.

(١) تأثر الشاعر فى هذا الرأى بقول الله سبحانه. ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ سورة يوسف. آية (١٠)

ذهاب إخوة يوسف عليه السلام إلى أبيهم، وطلبهم أن يرافقهم يوسف فى الذهاب إلى الصحراء بغرض الترويح والتنزّه

- ما أطيب هؤلاء الرجال الذين تخلصوا من أنفسهم، مستقرين فى زاوية التحرّر،

١٣٨٥ - وتطهروا من سلاسل الطبع وكدر النّفس، وصاروا ترابًا على طريق الألم وحيّ العشق،

- لا يستقر غبارٌ منهم على قلب الآدميين، ولا يقع عليهم منهم أى عبء،

- فهم راضون بألا ترضى الدنيا، يحملون كل عبء يقع عليهم،

- وإذا ناموا الليل، ناموا دونما حقد أو حسد، فينهضون سحرًا مثلما ناموا،

- وكان الناقمون على يوسف سعداء الطبع، مسرورين عند السَّحر بفكر البارحة،

١٣٩٠ - فألسنتهم تقطر بالحنان، وقلوبهم تطفح حقدًا، وكأنهم ذئاب تنكرت فى صورة النعاج،

- وعزموا على رؤية والدهم، ثم جثوا أمامه على ركبهم أدبًا،

- وفتحوا باب التملق والخداع، وتجاذبوا أطراف الحديث من كل مجال،

- وجاسوا بين القديم والجديد، إلى أن انتهى بهم المطاف إلى قولهم:

- «لقد أصابنا الملل من المنزل، وتملكتنا رغبة الذهاب إلى الصحراء،

١٣٩٥ - فلو أذنت لنا، فإننا سنتجه فى الصباح لنمضى نهار الغد فى الصحراء،

- ولأن أخانا يوسف - نور العين - لم يذهب إلى الصحراء إلا نادرًا، لصغر سنّه،

- فماذا يحدث لو تجعله رفيقًا لنا، وتتوّج رءوسنا بصحبته؟!

- إنه يقبع فى ركن المنزل صباح مساء، «فأرسله معنا غدًا يرتع ويلعب»[1]

- فنقطع معه سبل الصحراء تارة، ونطوف الجبال والوديان تارة أخرى،

[١] واضحٌ من هذه الأبيات تأثر الشاعر بقوله تعالى: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يرتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾. سورة يوسف. آية (١١).

١٤٠٠ - ونحلب اللبن من النعاج مرة، ونشربه أخرى، مسرورين ضاحكين،

- ونتخذ من بساط الطبيعة ملعبًا، ونشقّ طريقنا عبر الشقائق،

- ونختطف التيجان من رءوسها، ونجعل من مفرق يوسف مجتلّى لها،

- ونجعله يتبختر بين الخضرة، رافعًا أذياله كالحجل،

- ونرعى قطع الغزلان فى ناحية، فنسيل لعاب الذئاب فى ناحية أخرى،

١٤٠٥ - عسى أن يسرّ بهذه الأشياء، ويتحرّر من أحزان المنزل،

- فمع أنك تصنع آلاف الأعاجيب بالجدّ، فإن طبع الطفل لا يهشّ إلا للّعب،

- فلما سمع يعقوب هذا الكلام منهم، طوى عنهم بساط الرضا،

- قائلا: «أنّى يسرّنى حمله، وقلبى يأسى لفراقه؟

- إنى أخشى أن تجلسوا غافلين عنه، فلا تدركوا من أمره شيئًا، بسبب الغفلة،

١٤١٠ - فينشب ذئب معمر أسنانه فيه، فى تلك الصحراء العتيقة المثيرة للمخاوف،

- فلا يمزّق ذلك الجسد الرقيق فحسب، بل يمزّق روحى معه»[1]

- فلما سمع هؤلاء المخادعون ذلك، شرعوا من جديد فى خداع آخر،

- قائلين: «لسنا ضعاف الرأى إلى هذا الحدّ، فلا نثبت نحن العشرة أمام ذئب من الذئاب،

- فلو يكون أسدًا يخيف الناس لاذئبًا، فإنه يصبح فى قبضتنا ثعلبًا ذليلاً»[2]

١٤١٥ - فلما سمع يعقوب هذا الكلام منهم، أطرق لا يبدى اعتذاراً،

- ووافق على حمل يوسف إلى الصحراء، فأذن للبلاء فى دياره.

[١] اقتبس الشاعر مضمون هذه الأبيات - التي جرت على لسان يعقوب- من قوله تعالى. ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾. سورة يوسف. آيه (١٢).

[٢] تأثر الشاعر هنا بقول الله تعالى. ﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾. سورة يوسف. آية (١٣).

أخذ إخوة يوسف أخاهم من أبيهم، وإلقاؤه عليه السلام فى الجب

- واحسرتاه من هذا الفلك الدّوار؛ إذ يلقى بالقمر البهيج كل يوم فى أحد الآبار،
- ويضع غزالاً ترعرع فى رياض الروح فى قبضة ذئب مفترس،
- وحينما أودع يوسف تحت رحمة هؤلاء الذئاب، صاح الفلك قائلا: «لقد اختطف الذئاب الحمل»،
- وكانوا يتسابقون فى إبداء العطف عليه، وهو تحت عينى والده، ١٤٢٠
- فيضعه أحدهم على رأسه وكتفه تارة، ويحتضنه غيره بحرارة تارة أخرى،
- وما إن وطئت أقدامهم أرض الصحراء، حتى سلّطوا عليه أكفّ الجفاء،
- وألقوا بحمله عن كتف الرحمة، وزجّوا به بين الحجارة والأشواك،
- فكان يمشى على الأشواك حافى القدمين، فتخترق مسامير الأشواك والحطب قدميه الرقيقتين،

١٤٢٥ – وحين كانت بطن قدميه تلامس حجارة الطريق، كانت تتمزق من تأثيرها،

– وأضحت القدم التى كان الورد يغار منها، مضرجة بالدماء من الشوك والحجارة،

– وإذا تخلف – عن غلاظ الأكف هؤلاء – فإنهم كانوا يصفعونه على وجنتيه بعنف،

– ألا فلتقطع تلك الأيدى التى تصفع القمر بالسيف القاطع،

– وإذا تقدمهم، انهالت الصفعات عليه من الخلف، ليحاكى زرقة وجه العدو،

١٤٣٠ – إنه أولى بتلك اليد التى ينحنى ذلك القفا من إيذائها، أن تُشلّ من جذورها،

– وحين كان يسير إلى جوارهم، فإنهم كانوا يعركون أذنيه من كلتا الناحيتين،

– فلا أبقى الله فى قبضة من سحق تلك الأذن إصبعًا من أصابعه،

– وكلّما كان يتشبّثُ بأذيال أى منهم مستغيثًا، مزّق ثيابه غير راحم،

– وإذا سقط باكيًا على قدم أحدهم، وضع قدميه على رأسه ضاحكًا،

١٤٣٥ - وإن صاح بآخر نائحًا، شرع في توقيع ألحانٍ مغايرة،
- فلما يئس منهم صـرخ مستغيـثًا، فكان يزرع من دمع عينيه الشقائق على وجنتيه،
- فمرة يَغرق في دمه، وأخـرى يتمرغ في التراب، قائلاً والحزن يمزّق نياط قلبه:
- «أين أنت يا والدى، أين أنت؟ ومـا الذى أغفلك عن حالي هكذا؟
- تعـال، وانظـر أبناء الأمـة، الذين حـادوا عن طريق العقل[1]،
١٤٤٠ - تعال، تَر في أى حال أنا، وكـيف تطؤنى أقدام هؤلاء الحاقدين!!
- لقد ذللت عزيزك بيدك، وأبحته لمخالب أعدائه،
- وألقـيت به في قبـضة القـساة، فـوضعت غـزالاً في مخالب الذئاب،

(١) اعتمد الشاعر في تصوير هذا الموقف على كتب التفسير، وبخاصة تلك التى نقلت عن الإسرائيليات، ومن ثم ينبغى التزام الحذر إزاء مثل هذه الأفكار، ومن الممكن أن يكون الشاعر قد تأثر بما ذكره الطبرى في تفسيره، حيث يقول:
« ..... فأرسله معهم فأخرجوه وبه عليهم كرامة، فلما برزوا به إلى البريّة أظهروا له العداوة وجعل أخوه يضربه فيستغيث بالآخر فيضربه فجعل لا يرى منهم رحيما، فضربوه حتى كادوا يقتلونه، فجعل يصيح ويقول: يا أبتاه! يا يعقوب! لو تعلم ما صنع بابنك بنو الإماء.....»
تفسير الطبرى، جـ١٢، ص٨٩، المطبعة الميمنية بمصر.

- وانظر ماذا يصنعون بتوأم قلبك، وكيف يؤدون شكر إحسانك!!
- فالوردة التى ترعرعت فى رياض روحك، وأوردتها أمطار إحسانك.

١٤٤٥ - ذبلت هكذا ظمأ، واستلبت نضرتها، وضاع عبيرها،
- والغصنُ المدلّل فى الجنان، والذى زرعته فى رياض عمرك،
- أسقطته على الأرض رياح الظلم، حتى علته الأشواك والأعشاب،
- والبدر الذى كان ينير ليلك، وكان بمنأى عن ظلمة الفلك،
- أصابته يد الفلك بالأذى، حتى أنه يستجدى الهلال شعاعًا من نور!!»

١٤٥٠ - وظل على هذه الحال ثلاثة فراسخ، منه السلام ومن هؤلاء الغلاظ القلوب الحرب،
- ومنه اللّين، ومنهم جهامة الوجه، ومنه حارُّ القول ومنهم بارده،
- إلى أن وصلوا فجأة إلى حافة بئر، فتوقفوا عند حافتها،
- بئر ضيّقة مظلمة كقبر الظالم، تحار عينُ العقل فى ظلمتها،
- حافتها كفم التّنين، تختطف الناس من خارجها قوتًا لها،

١٤٥٥ - وباطنها مؤذٍ كقلب الظالم، مليء بالأفاعي لإيذاء الناس،

- فدائرتها مدار نقطة الأحزان، وغورها خارج حدود التفكير،

- ومحيطها مليء بألوان الكدر، ومركزها بعيد، وهواؤها متعفّن، وماؤها ملح،

- فلو استقر فيها متنفّس لحظة، لاستحال عليه التنفّس،

- ولما وقع اختيارهم على تلك البئر التّعسة، ليلقوا فيها ذلك البدر الوردى الطلعة،

١٤٦٠ - استجار مرّةً أخرى من ظلمهم، وشرع فى البكاء والنواح، بطريقة

- لو فهمها الحجرُ، لاستحال من حرقتها أرقَّ من الشمع نعومةً،

- بيد أنه كلما اشتدّ توسّل ذلك الصوت، زادت صلابة قلوبهم الحجرية،

- وماذا أقول عما اجترموه من ظلم؟ إن قلبى لا يصدّق ما فعلوه!!

- فعلى ذلك السّاعد الذى لو مسّه خيط حريرى من الجنة، لأصابه الألم منه،

١٤٦٥ - ربطوا حبلاً من صوف الضـأن، فصار طرف كل شعرة فيه إبرة،

- أما خصـره الذى كان أرقّ من الشعرة، فـقد أحكموا وثاقه بحبل - آخر - من الصّوف،

- ونزعوا قـميصه عن جسـده، فأضحى كالبـرعم عُرّى عن أوراقه الخضراء،

- فسربلوا أنفسهم - من جرّاء ذلك - بملابس من اللوم تثقل أجسامهم إلى يوم القيامة،

- وحـينئـذ أدلوه فى البـئـر، ثـم ألقـوا به فى الماء من منتصف المسافة،

١٤٧٠ - وكـان حـسنه نوراً للكون، فـألقت به المقـادير فى الماء كشمس مضيئة،

- وكان بالبئـر حجر يعلو عن الماء فاتخذه مـقعداً له فى الحال[١]،

- فانـظر أى سعـادة وجدها أخـيراً ذلك الحـجر، فـقد أصبح منجماً لجواهر غالية الثمن،

[١] يقول الطبرى فى تفسيره « .... فدلوه فى البئر حتى إذا بلغ نصفها ألقوه إرادة أن يموت وكان فى البئر ماء فسقط فيه ثم أوى إلى صخرةٍ فيها فقام عليها...» المرجع السابق. ص٨٩-٩٠.

ويقول الخازن: « .... فانطلقوا به إلى بئر هناك على غير الطريق واسع الأسفل ضيّق الرأس فجعلوا يدلونه فى البئر فتعلق بشفيرها فربطوا يديه ونزعوا قميصه.... وكان=

- ومن حلاوة شفتيه الياقوتيتين، المشبهتين بالسكر،
تحوّل الماء المالح شهداً لذيذاً،
- واستضاء البئر من نور وجنته، كما يستنير وجه
الأرض ليلاً من القمر المنير،
١٤٧٥ - وولّت العفونة هاربةً من هواء البئر، منهزمة أمام رائحة
جدائله العطرية،
- وزحف كل حيوان مؤذٍ إلى جُحْرٍ، هيبةً من نور طلعته،
- وكانت معه تعويذة تحتوى قميصًا، نُجّى به جدّه
إبراهيم من النّار،
- أرسله رضوان إلى إبراهيم، فاستحالت النّار عليه
روضة،
- وفى الحال وصل جبريل الأمين من السّدرة، وفكّ
تلك التعويذة من ساعده،
١٤٨٠ - وأخرج منها القميص، ملبسًا إياه ذلك الجسد
الطاهر[1]،

= فى البئر ماء فسقط فيه ثم آوى إلى صخرة كانت فى البئر فقام عليها ....».
تفسير القرآن العظيم. الإمام على بن محمد المعروف بالخازن. جـ ٣ ص٢١٩. مطبعة التقدم العلمية بمصر. ١٣٣١هـ.

(١) تأثر الشاعر بما ذكره الثعلبى فى كتابه قصص الأنبياء، حيث يقول:
«.... قالوا: فلما ألقى يوسف فى الجب أضاء له الجب وعذب ماؤه حتى كان يغنيه عن الطعام والشراب، وبعث الله تعالى إليه ملكا فحلّ عنه قيده، وكان إبراهيم حين ألقى فى النار جرّد من ثيابه وقذف فى النار عرياناً فأتاه جبريل عليه السلام بقميص من حرير=

- ثم قال له: «أيها المهجور الحزين!! إن الله سبحانه وتعالى يقرئك السلام،

- ويخبرك أن هؤلاء الخونة، وتلك الفئة الضّالة، سأوصلها اليك يومًا،

- منكّسة الرؤوس، وجرحها أنكى من جرحك،

- وسوف تحصى لهم هذه المظالم، مخفيًا أمرك عنهم،

١٤٨٥ - وبينما هم يجهلون أمرك تمامًا، فأنت تعرف كنههم تفصيلاً[١]،

- فلما سمع يوسف هذا الكلام من جبريل، استراح من ألم إخوته ومحنتهم،

- وبدا له هذا المقعد الحجرى عرشًا فجلس عليه ملكًا سعيد الحظ،

- وأضحى الروح الأمين نديمه الخاص، يسرّى عن نفسه الحزينة.

=الجنة فألبسه إياه، وكان ذلك القميص عند إبراهيم فلما مات إبراهيم ورثه إسحق فلما مات إسحق ورثه يعقوب منه فلما شب يوسف جعل يعقوب ذلك القميص فى تعويذ وعلقه فى عنقه لماكان يخاف عليه من العين وكان لا يفارقه، فلما ألقى فى الجب عريانًا جاء الملك، وكان عليه التعويذ فأخرج القميص وألبسه إياه....»

قصص الأنبياء المسمى بالعرائس. الثعلبى. ص١٢٦.

[٢] اقتبس الشاعر مضمون هذه الأبيات من قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾. سورة يوسف. آية (١٤)

وصول القافلة إلى حافة الجب، وطلوع يوسف كالقمر

- قسمًا بالله، إنها لقافلة سعيدة، تلك التى يكون فيها طالب ماء ذكى،

١٤٩٠ - حينما يجرّ دلوًا من أحد الآبار، يبدو له - فجأةً - من برج الدلو قمر،

- فقد قضى ذلك القمر فى البئر أيامًا ثلاثة، وكأنه قمر "نخشب" فى بئرها[1]

- وفى اليوم الرابع أشرقت شمس يوسف المفقودة من جُبّ المشرق فى القبّة الزرقاء،

- وارتحلت قافلة من مدين إلى مصر، يحدوها حظها السعيد،

- فضلت طريقها، ووصلت إلى ذلك المكان، وألقت من أجل الراحة رحالها[2]

[١] نخشب: اسم مدينة تقع بين بلخ وبخارى. أما قمر نخشب" فهو عبارة عن قمر أو جسم مضيء أخرجه المقنّع أو هشام بن حكيم من أحد الآبار عندما طلب منه أحد أتباعه أن يأتيهم بمعجزة. تاريخ بخارى. أرمينوس فامبرى. ترجمة أحمد محمود الساداتى. ص ٢٩ وحاشية (١) ص٨٢.

[٢] يقول ابن كثير: «يقول تعالى عما جرى ليوسف عليه السلام حين ألقاه إخوته وتركوه فى ذلك الجب وحيداً فريداً: فيمكث فى البئر ثلاثة أيام.... فساق الله سيارة فنزلوا قريباً من تلك البئر...». =

١٤٩٥ - وما أسعد ذلك الـضال الذى يحمله الطريق إلى مكان يكون فيه مثل يوسف دليلا ومرشدًا،

- وعلى مقـربة من البئر اتخـذوا منزلاً، وولوا وجوههم صوبها طلبًا للماء،

- وفى البداية، أقبل رجل سعيد - منهم - وشقّ طريقه صوب ماء الحياة،

- وأدلى - ذلك الشبيه بالخضر - بدلوه فى ظلمة البئر، ليختبر وجود الماء،

- فقـال جبريل الأمين لـيوسف: «انهض، وصب زلال الرحمة على الظمأى،

١٥٠٠ - واجلس فى الدلو، شمـسًا مضيئـة، وأسرع من المغرب إلى المشرق،

- واجعل من حـافة البئر إطـارًا للسماء، وأضئ خيـمة الأفق بنورك مرة أخرى،

- وألقِ بشـعاعٍ من وجـهك على العـالم، وأترع الكون ضياء من جديد»،

= تفسير ابن كثير. جـ٤. ص٤٢٢-٤٢٣. القاهرة ٢٤٦ هـ.

ويقول الخازن: ﴿وجاءت سيارة﴾ وهم القوم المسافرون، سمّوا سيارة لسيرهم فى الأرض، وكانوا رفقة من مدين يريدون مصر فأخطأوا الطريق فنزلوا قريبًا من الجب الذى كان فيه يوسف...).

تفسير الخازن. جـ ٣. ص (٢٢٠). القاهرة ١٣٢١هـ.

- فوثب يوسف فى الحال من فوق الحجر، واستقر فى الدلو، كماء الحياة،

- وشدّ ذلك الرجل القوى دلوه، وهو على علم بمقدار وزن الدلو ووزن الماء،

1505 - فقال: «إن دلونا اليوم ثقيل، لا بدّ أن به شيئًا آخر غير الماء»،

- وحين بدا ذلك القمر المنير، صاح الرجل من أعماقه قائلا: «يا بشرى»[1]،

- إن البشرى التى خرجت من تلك البئر المظلمة، لهى قمر أضاء الدنيا بأسرها،

- فهو وردة ازدهرت له فى تلك الصحراء، بيد أنه أخفاها عن الآخرين،

- وحمله إلى منزله سرا، وأسلمه إلى رفاقه خفيةً،

1510 - حقا! حينما يعثر محظوظ على كنز، فإنه يجد المتاعب إذا لم يُخفه،

- وكان حسّاد يوسف على مقربة من ذلك المكان يتسقّطون أخباره،

[1] تأثر الشاعر فى هذه الأبيات بقوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾. سورة يوسف. آية (١٩).

– فقد عوّدوا أنفسهم على الانتظار دائمًا لمعرفة ما سيئول إليه أمره فى نهاية المطاف،

– فعلموا بأمر القافلة، وتجمعوا حول البئر لمعرفة الخبر،

– ونادوا على يوسف بصوتٍ خفيض، فلم يجبهم غير صدى صوتهم،

١٥١٥ – فاتجهوا صوب القافلة ليعيدوا يوسف إلى قبضتهم،

– وبعد طويل سعى، وشاق جهد، عثروا عليه بين القافلة،

– فأمسكوا به قائلين: «هذا عبدنا، وقد أبق وشقّ عصا الطاعة[1]،

– وهو غير راغب فى الخدمة، يسلك للهرب كل طريق ممكنة،

– وليس من شيمه حسن الخدمة، ولذا نبيعه ولو كان وليد منزلنا،

١٥٢٠ – فإذا أساء عبدٌ خدمته، فإنه يكثر من سيئها، ويقلّ من حسنها،

– فمن الخير أن تبيعه بأقل الأسعار، وتستريح من

[٢] يقول البيضاوى: «كان يهوذا يأتيه – أى يوسف – بالطعام كل يوم فأتاه يومئذ فلم يجده فيها فأخبر إخوته فأتوا الرفقة: وقالوا هذا غلامنا أبق منا فاشتروه فسكت يوسف مخافة أن يقتلوه». تفسير البيضاوى، ص ٣١١ المطبعة العثمانية (١٢٠٥ هـ)

اعوجاجه والتوائه،

- ونحن نبيعه بأية قيمة، ولا نرهق أنفسنا في إصلاحه بعد ذلك»،

- واشتراه منهم الرجل الذي أخرجه من البئر بثمن بخس،

- وكان ذلك الرجل يدعى (مالك)[1]، فجعله مملوكًا له بدراهم معدودة[2]

١٥٢٥ - وبعد ذلك شدّت القافلة رحالها، وجلسوا في محاملهم متجهين إلى مصر،

- إنهم لخاسرون أولئك الذين يبيعون جنس الروح، إذ يبيعونها بهذا الثمن البخس،

- فنظرة منه تساوي دخل مصر، ومتاع الروح بكلمة واحدة منه،

- بيد أن يعقوب يدرك هذه القيمة، كما أن زليخا

[١] تكاد كتب التفسير المعاصرة للشاعر تجمع على أن اسم هذا الشخص هو: مالك بن ظفر (ذعر) الخذاعي.
تفسير الخازن جـ٤. ص ٢٢١، القرطبي ص ٢٣٨١ طبع دار الشعب، البيضاوي ص٣١١، الثعلبي ص ١٢٩ قصص الأنبياء.

[٢] تأثر الشاعر في هذه الأبيات بقوله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾. سورة يوسف. آية (٢٠).

بمقدورها الشراء،

- فالأحمق يـعطى كنز السعادة، فيـأخذه المعتوه ببـضعة دراهم.

بلوغ مالك بيوسف إلى مشارف مصر، ومعرفة ملك مصر، وإرسال عزيز مصر لاستقباله وطلبه إلى بلاطه

١٥٣٠ – حينما غاصت قدم (مالك) فى الكنز دون أن يتعب ساعده في تلك الصفقة،

– لم تلمس قدمه أرض الطريق فرحًا بوجه ذلك المحبوب،

– فكان ينعش روحه برائحته ويمضى، وكان يختصر المسافتين فى مسافة واحدة،

– وحينما اقترب من مصر، من طريقه البعيد، كانت القصة قد اشتهرت بين المصريين،

– قائلين: «هاهو ذا مالك قد عاد من السفر، وبرفقته غلام عبرانى،

١٥٣٥ – وهو قمر منير فوق قمة الحسن، وملك سعيد على مملكة المحبة،

– لم تر الأفلاك – بآلاف العيون التى لها – صورة مثله فى متحف الدنيا».

- فلما سمع ملك مصر هذه الشهرة، اضطربت نفسه غيرة،
- قائلا: «إن أرض مصر هى بستان الجمال، ومحالٌ أن تكون هناك ورود أجمل من ورودها،
- فالوردة التى تنمومن وردة روضة الفردوس، تلقى بوجهها فى التراب خجلا من ورودها».

١٥٤٠ - وقال لعزيز مصر: «أسرع لاستقبال القافلة،
- وانظر بعينيك ذلك البدر، وأحضره بنفسك إلى هذا البلاط».
- فولّى عزيز مصر وجهه صوب القافلة، ونظر فى وجه راحة الروح هذا،
- فأفقدته تلك النظرة وعيه، وكاد - وهو فاقد الوعى - أن يسجد له،
- بيد أن يوسف رفع رأسه عن الأرض، ولم يدعه يسجد أمامه،

١٥٤٥ - قائلاً: «لا انحنت رأسك أمام أحدٍ سوى من وضع الرأس فوق الرقبة».
- وأثناء ذلك طلب العزيز من «مالك» أن يحضره إلى بلاط ملك العالم،

- فقـال: «إنّى أفكر فى الذهاب إلى البـلاط بيد أن لى
رجاءً فى عطفكم،

- هو أن تتـــركـنا هذا الوقت، وتمـهلنا فى هـذا المكان
للراحة،

- علّنا نستريح يومين أو ثلاثة، فنحن فى حـاجة للطعام
والنوم من عناء السّفر،

١٥٥٠ - ونغـسل وجوهـنا من التراب وأجـسـامنا من الأذى،
ونقصد الملك بأجسام نظيفة».

- فلما سمع عزيز مصر هذا الكلام، عاد مرةً أخرى إلى
خدمة سيده،

- وحكى للملك قليلا عن جمـال يوسف، فجعل روح
الملك قرينة الغيرة،

- وأمـر أن تلبس آلاف الحســـان وملوك الجـمـال فى
العاصمة تيجانهنّ على رءوسهن،

- وأن يلبسنَ الملابس المزركشة من فوق الصدور،

١٥٥٥ - ويتمنطقن بأحـزمة مرصّـعة على الخصـور، وثغورهن
تقطر سكرًا من الابتسامة،

- وأن يَختَرن من حديقـة الحسن من هنّ فى رقة الورد،
وطلعتهن كالورد،

- فإذا أُحضر يوسف إلى السوق، وعُرِضْنَ أمام عين المشترى،
- صُفِفن جميعًا بهذه الصورة، مستعرضاتٍ أنفسهن فى مقابَلته،
- فيكسد سوقه - ولو كان شمس الدنيا المضيئة - بذوات الوجنات المتوقدة كالنار.

ورود يوسف إلى نهر النيل، واغتساله من غبار السفر، وجلوسه فى الهودج النفيس للقاء ملك مصر

١٥٦٠ - ولما بزغت شمس اليوم الرابع، وهو موعد يوسف الشبيه بالشمس، من حافة السماء الشبيهة بشاطئ النيل،

- قال «مالك» ليوسف: «يا بهجة القلب! اتخذ مكانك كالشمس على ضفاف النيل،
- وأزل عنك غبار الطريق، وامنح النيل شرف ترابك»
- فأسرعت تلك الشمس إلى النيل فى الحال، حسبما أراد «مالك»،
- ودلّى يده خارج القميص، فغطى الياسمين بستارٍ من النيلوفر،

١٥٦٥ - وخلع القلنسوة الذهبية عن رأسه، فتولّد غراب الليل من بيض الشمس الذهبى،

- ثم سحب قميصه من رأسه، فأضحى طوقه مغربًا للقمر، وذيله مشرقًا له،

- وظهر كتفه وصدره من أحد جوانب الذيل، كما يظهر إلصبح المضئ من الفلك الدّوار،

- وعقد إزاره الأزرق بسرعة، فبدا كأنه شجرة سرو فضية أقبلت على شاطئ النيل،

- فعلت صيحة من الفلك الأزرق (تقول): «لقد عمرت مصر بمجيء ذلك البدر،

١٥٧٠ - فكم تكون سعادتي لو أنني كنت مكان النيل، وماذا كان يحدث لو أني ظفرت بتقبيل قدمه؟».

- وصار الأمر على هذا النحو بأن أشرقت الشمس، وسكبت ينبوع أشعتها على صفحة النيل،

- ولما لم تر ينبوعها هذا جديراً بيوسف، فإن ماء النيل المصبوغ بالطمى غسل يديه وقدميه،

- ووضع قدمه فى النيل من الشاطئ، كما يدخل القمر فى برج الحوت،

- وكان فى طلعته كالشمس المضيئة، وغطس فى الماء كالنيلوفر،

١٥٧٥ - وحينما غاص جسده العارى فى الماء، دخلت الروح جسد الماء الجارى،

- وما أن فك جدائل طرره، حتى ربط بسلاسله قدم الماء الجارى،

- وأعدّ منه شبكة معنبرة، لتصيد من أعلى الكون حتى أسفله،
- فتارة كان يصب الماء من يده على رأسه، فكان القمر يزيّن وجهه بالثّريا،
- وتارة كان يحك الورد بكف يده، أو يمشط بأصابعه أغصان السُّنبل[1]،

1580 - ولما زال الغبار عن وجهه، والأذى عن جسده، بدا كشجرة سروٍ ترعرعت على شاطئ النيل،
- وطلب القميص من حامل ملابس «مالك» وزيّن الورد برداء الياسمين[2]،
- ولبس على صدره ديباجًا جذابًا، عليه نقوش كثيرة جميلة،
- وأذهب بمقدار القمر بقلنسوته الذهبية، وتمنطق بمنطقة مرصّعة،
- وبتدلّي طرره البهيجة، فاح هواء مصر عنبراً،

1585 - وأجلسوه بهذا الحسن فى الهودج، وساقوا محمله متجهين به صوب قصر الملك،

[1] يعنى بالورد جسد يوسف عليه السلام،وبأغصان السنبل شعره.
[2] يشير بذلك إلى ارتدائه ثوبًا أبيض اللون.

- وبدا لهم عرش خارج القصر، كـان الملك قد شدّ فيه رحاله،
- وقد اصطف أمامه كثير من الحسان، تهيّأن لرؤية يوسف،
- فوضع الهودج أعلى العرش، ففتحت دنيا بأسرها عيونها على الهودج،
- وكانت شمس العالم المضيئة قد احتجبت مصادفة بسبب السحب السّوداء،
١٥٩٠ - فقال مالك ليوسف: «يا بهجة القلب! اخطُ بقدميك من الهودج صوب العرش،
- وأنت شمس، فارفع النقاب عن عارضيك، وزيّن الدنيا بنورك»
- وحينما رفع يوسف الستار عن الهودج، كأنما ألقت الشمس بأشعتها فى أعين الخلائق،
- فظن الناظر إليه أنها الشمس وقد طلعت من السحاب الأزرق،
- فنظروا إلى الشمس المضيئة، فأدركوا أن هذا الضياء من وجه يوسف،

١٥٩٥ - فما زالت الشمس تحتجب خلف السحب، فلا بد أن هذا الضياء من وجه يوسف،

- وأخذ المتفرجون يصيحون من كل جانب، ضاربين أكف الحيرة،

- قائلين: «يا إلهى! من هذا الكوكب المبارك؟ الذى يُخجل القمر والشمس معًا؟»[١]

- وظلت حسان مصر مطرقات برءوسهن، وأخذن يقرأن فى لوحة كلمات نسخهن،

- حقا! حينما تظهر الشمس المضيئة، فلا حيلة للسُّهى سوى الاحتجاب.

[١] يبدو أن هذه الصورة من وحى خيال الشاعر، وقد أشار الثعلبى إلى بعض الخوارق التى بدت من يوسف، حيث يقول:
«قال مالك: ما نزلت منزلا ولا ارتحلت، إلا استبان لى بركة يوسف، وكنت أسمع تسليم الملائكة عليه صباحًا ومساءً، وكنت أنظر إلى غمامة بيضاء تظله وتسير فوق رأسه إذا سار، وتقف على رأسه إذا وقف، فلما قدموا مصر أمره مالك بن دعر أن يغتسل فاغتسل وألبسه ثوبًا حسنًا وعرضه للبيع.....» قصص الأنبياء المسمى بالعرائس. الثعلبى.ص١٢. وقد وردت بعض هذه الأحداث فى القصة المنسوبة للفردوسى.

وصول زليخا إلى بلاط الملك
واستفسارها عن سبب احتشاد الخلائق
ورؤيتها جمال يوسف وتعرّفها عليه،
واضطرابها من أجله

١٦٠٠ - وكانت زليخا لا تدرى أن بينها وبين يوسف مقدار خطوة أو خطوتين،

- بيد أن روحها كانت تحس بذلك، فقد احترق كبدها عشقًا،

- فلم تكن تدرى من أين جاء هذا الشوق، فكانت تحتال لتسكينه،

- فخرجت إلى الصحراء متوسلة لإخراج أحزان المنزل من قلبها،

- وقضت هناك بضعة أيام فى محنة، ما أكثر ما صبرت وهى تحتملها

١٦٠٥ - وأخذت بأسباب اللذة والطرب، بيد أن حزنها كان يزداد كل لحظة،

- فإذا زاد حزنها فى الصحراء، فكان الحنين يعاودها للمنزل مرة أخرى،

- واستقرت فى هودجها على ظهر الراحلة، وآثرت العودة إلى منزلها،
وعلى الرغم من أن وجهها كان متجهًا إلى منزلها، فإن نظرها كان مركزًا على ساحة قصر الملك،
- فلما رأت ذلك المحفل قالت: «ما هذه الجلبة؟ أهذا يوم الحشر فى مصر؟!»

١٦١٠ - فقال واحد: «إنها من أجل شخص مبارك، هذا بساط العرض لغلام كنعانى،
- إنه ليس غلامًا، بل شمس مضيئة، نال ما يتمنى من مملكة الجمال!!»
- فرفعت زليخا ستائر الهودج، وتعرفت على الغلام بمجرد أن وقعت عليه عينها،
- وارتفعت من قلبها صرخة بغير إرادة، سقطت من جرّائها فاقدة الوعى،
- وفى الحال ساق ساحب الهودج الراحلة، وأوصلوها إلى خلوتها الخاصة،

١٦١٥ - وما إن وصلت إلى خلوة أسرارها، حتى استعادت وعيها مرة أخرى،
- فسألتها مربيتها (قائلة): «يا مضيئة القلب!! لماذا تأوهت من أعماقك المحترقة؟

- ولماذا سقطت فاقدة الوعى بتلك المرارة؟ وكيف فتحت شفتيك الجميلتين بالعويل؟».
- فقالت: «ماذا أقول لك أيتها الأم الرءوم؟ إن كل ما أقوله يصبح آفةً لى!
- إن الغلام الذى رأيته فى ذلك الحشد، وسمعت عن أوصافه من أهل مصر،
١٦٢٠ - هو قبلة روحى فى الدنيا، فلتكن روحى فداءً له، فهو حبيبى!!
- وقد أبدى وجهه الجميل فى النوم، فانتزع الصبر من روحى الولهة،
- والتهب جسدى، واشتعل قلبى بسببه، وغرقت عينى فى الدم الصافى من جرائه،
- وقد هبطت بذلك الإقليم حبًا له، ونزلت بتلك المدينة شوقًا إليه،
- فشرّدنى عن أهلى، وجعلنى عاجزةً فى هذا البعاد،
١٦٢٥ - إن ما شاهدتنى فيه من محنٍ بضع سنوات، وأقلّنى من راحة الدنيا،
- كان تلهفًا لوجهه، واشتياقًا لقامته البهيجة،
- إنّ حُزنى اليوم أثقل من الجبل، ولا أدرى ما سيئول إليه حالى،

- فلقصر من سـيكون قمرى؟ ومن ستتألق ليـاليه بشمع وجنته؟

- وستقرّ به عين من؟ وأى منزلٍ سيصير روضةً به؟

١٦٣٠ - ومن سيتحقق أمنيـته من شفته التى تهب الروح، ومن سيستريح فى كنف سروه؟

- ومن سينسج أنشوطتـه المسكية المجّعة؟ ومن سيـتباهى بوصال نخله الفضى؟

- ومن تلك التى ستقامر بما عندها ثمنًا له؟ وتجعل كحل عينيها تراب أقدامه؟

- هل سـيـصلح به أمـرى أو لا؟ وتصل يدى إلى تلك السعادة أو لاتصل؟».

- فلما أدركت مربّيتـها سرّ حُرقتها، بـكت بسبب ما بها من لهيب،

١٦٣٥ - وقالت: «أيتهـا الشمعة! احتفظى بحـرارتك، واكتمى أحزان ليلك، وآلام نهارك،

- لقد صبرت عمرًا، فـلا تجعلى زمام الصبر يفلت منك اليوم،

- فعسى أن يتحقق بالصبر أملك، وترتفع من السحاب الأسود شمسك.

عرض "مالك" يوسف فى معرض البيع، وهجوم المشترين عليه، وشراء زليخا إياه بضعف ما وصل إليه ثمنه

- ما أسعده وقتًا وأطيبه زمنًا، ذلك الذى يستمتع فيه حبيبٌ بوصال حبيبته،
- فيتوهج مصباح المحبّة، ويجد الحبيب الخلاص من جرح البقاء،

١٦٤٠ - فحين راج سوق يوسف لجماله، صار جميع المصريين مشترين له،
- وتملكت رغبة شرائه كل مَنْ فى السوق، فأراد أن يحتويه بكل ما ملكت يداه،
- وقد سمعت أن عجوزًا اضطربت حزنًا عليه، وكانت تغزل خيوطًا بيديها وهى تقول:
- على الرغم من أن يدى قصيرة، فإنه يكفينى أن أكون ضمن من يشترونه»
- وكان الدلاّل يصيح يمنةً ويسرةً: «من يشترى غلامًا خاليًا من العيوب؟

١٦٤٥ - وجهه مشرق الصباح المنير، وشفتاه جوهرتان من منجم الملاحة؟

- ومن سمات صلاحه امتلاء وجهه بالنور، وعمران صدره بأخلاق الكرام،

- ليس على لسانه غير الصدق، ولا التواء فى كلامه ولا اعوجاج»

- فبرز واحد من بينهم، بادئ ذى بدء، مشتريًا إياه ببدرة من الذهب الأحمر،

- فلو أنك تريد أن تحصى ما بهذه البدرة، فستجده ألفًا من الذهب الخالص،

١٦٥٠ - وتمادى المشترون الآخرون، فأوصلوا ثمنه إلى مائة بدرة،

- وزاد عليها ثرى آخر قدر وزن يوسف مسكًا خالصًا،

- فزاد عليهم حكيم مقدار وزنه من الياقوت الخالص والدّر المكنون،

- وكانوا يزيدون الثمن بهذه الصورة، ويضيفون أنواع النفائس،

- وعلمت زليخا بما تمّ، فضاعفت ذلك كله مرةً واحدةً،

١٦٥٥ - فأغلق المشترون الآخرون شفاههم، وجثوا على ركب اليأس،

- وقالت لعزيز مصر: «يا صائب الرأى! اذهب وادفع لمالك هذا المقدار»،

- فأجابها: «إن ما هو دفين عندى من الكنوز والجواهر والذهب بالخزائن

- لا يصل إلى نصف ثمنه، فكيف أوفّيه حقّه كاملاً؟!»

- وكان عند زليخا صندوق ملىء بالجواهر، ليس صندوقًا بل برجًا مليئًا بالنجوم!!

١٦٦٠ - وكانت قيمة كل جوهرة من ذلك الدّر المكنون قدر دخل مصر، بل تزيد عليه،

- فقالت: «أعطه هذه الجواهر ثمنًا له، يا من جوهر روحى فداه»

- فتعلّل العزيز من جديد، مرة أخرى، قائلاً: «إن ملك الزمان يميل إليه،

- ويود أن يكون هذا الطاهر الأذيال زعيمًا لغلمانه الكثر»

- فقالت له: «اذهب إلى ملك الزّمان، وأدّ فروض الطاعة كما ينبغى،

١٦٦٥ - وقل له: ليس هناك من حـزنٍ فى قلبى سـوى أنّى لا أجدُ ابنًا أمام ناظرى،
- فامنحنى علوّ الهـامة بهذا الشّرف، وأدخل هذا الـعبد تحت إمرتى!!
- فـيكون كـوكب برجـى المضىء، ويكون لـى ابنًا، وللملك عبدًا»
- وبأمـر زليخـا أقبل العـزيز، وقص الحكاية على الملك المبجّل،
- فلما سمع الملك هذا الكلام الحلو، لم يتردّد فى قبوله التماسها،
١٦٧٠ - وأذن له فاشتراه فى الحال، واتخذه - لفرط حبه له - ولدًا،
- وحمله إلى المنزل مسرورًا سعـيدًا، وتحرّرت زليخا من قيد محنتها،
- وكانت تثـقب بأهدابها جواهر دموع الفـرحة، وتحكّ عينيها قائلة:
- «أفى يقظةٍ أنا أم فى نومٍ يا إلهى؟ إن روحـى سعـيدةٌ بالحبيب!
- فكم كنت أتمنّى فى الليـالى الحالكة أن يبـيضّ نهارى على هذه الصورة،

١٦٧٥ - وقد علا صباح ليلى السعيد، ووضع حدا لأحزان ليلى وآلام نهارى،
- وأصبحت أنا وحبيبى حبيبين متآلفين، فيحقّ لى الآن أن أزهو على الفلك،
- فمن مثلى خالٍ من الأحزان فى دار الحزن هذه؟ ومن انتعش بعد الذبول مثلى؟
- فماذا كنت؟ سمكة فى مأتم من الدموع، ترتجفُ على الرّمال الساخنة حزنًا على الماء،
- فهطل سيلٌ من سحابة العناية، وحملنى من الرمال سالمةً إلى البحر،
١٦٨٠ - ومن كنت؟ ضالة فى حلكة الليل، بلغت روحى الحلقوم من الضلال،
- فعلا فى الأفق بدرٌ منير، بيّن لى الطريق إلى درب السعادة،
- ومن كنت؟ راقدة على فراش الموت، تمزّق حراب الموت عروق روحى،
- فدخل الخضر فجأةً من بابى، ومنحنى ماء الحياة،
- فحمدًا لله، أن حالفتنى السعادة، وكفّ الزمان عن إيلامى،

١٦٨٥ - فلتكن آلاف الأرواح فـداءً لذلك الصالح، الذى جـاء بيوسف إلىّ،

- فـأى ضررٍ لو أننى كـسـرت صندوق الجواهر، مـادام منجم الجواهر فى يدى؟

- وأى قيمةٍ للجـواهر أمام نقد الروح؟ فليكن كل شئ فداءً للحبيب،

- لقـد أعطيت بعض الجـماد واشـتـريت الروح، فمـا أرخص ما اشتريت بحق الله!

- ومـتى يرى نفعًـا فى مالـه، ذلك الذى يُعطى عيـسى ويأخذ بعض الخذع؟

١٦٩٠ - فمع أننى أنفـقت الخذع فقد اسـتفدت، مادام عـيسى رفيقًا لى»

- وكـانت تنخل هذه الأسـرار بغـربال فكرها، وتسكب أطنان الجواهر من عينيها،

- فكانت تبـقى صامتـة تارة أمام وجـه يوسف، بيد أن بالها خالٍ من جرح الهجر،

- وتارةً تتذكر هجر الماضى، فتسرّ خاطرها بوصاله.

قصة فتاة اسمها "بازغة" من نسل عاد، كانت فريدة عصرها فى مالها وجمالها وعشقها جمال يوسف دون أن تراه ومشاهدتها جمال الحقيقة فى تلك المرآة ووصولها من المجاز إلى الحقيقة

- إن العشق لا ينبع من الرؤية فحسب، فما أكثر ما تنبع السعادة من الكلمات،

١٦٩٥ - وتعرف جلوة الحسن طريقها عن طريق الأذن، فتسلب الروح راحتها والقلب صوابه،

- وليس للدلالة عمل أكثر من أن تحكى قصة دمية جميلة،

- فتجعل الأشخاص يعشقون دون أن يتوسط بينهم أى أثر للرؤية،

- فقد كان بمملكة مصر فتاة جميلة، لها الزعامة على نسل عاد،

- وضع عقيق فمها الابتسامة على درّ أسنانها، فأغرقت مصر شهداً من ابتسامتها الحلوة،

١٧٠٠ - ومن كثـرة الحلاوة فى بسـمتـها السكرية، صـار قلب قصبْ السكر أسيرًا لها،

- ولما كـانت تصب السكر من يـاقوتهـا البـاسم، كـان السكر نفسه يعضّ أنامله (غيظًا)،

- وكان قلب السكر يضيق من شفتها، أما الحلوى فكأنها الزجاج على الحجر، غيرة من ياقوتها،

- ولّما كانت شـفتاها أكـثر حسنًا من سكّر النبـات، فإنه يصاب بالخجل فلا يخرج من زجاجته،

- ومع أنه كان يتـظاهر بالشجاعـة أمام الزجـاجة، فلم يكن يستطيع مواجهة شفتيها الياقوتيتين،

١٧٠٥ - فـإنه ليس بمأمن من ياقـوتهـا العـربيـد، ويعلم أنهـا ستهزمه مع ما له من شجاعة،

- وكانت مثار غيرة الحور هذه فتنة للدنيا، فملأت مصر جلبةً بسبب حلو سكّرها،

- فوقع الحكام فى عشقها، ومال إليها حسان المدينة،

- بيد أنهـا سحقت الفلك بإكليلهـا، ومن ثمّ فلم تفكّر فى أىّ منهم،

- وبسبب مالها من العزّ والمال وعلوّ الجاه، فإنها لم تُلق نظرةً إلى أى منهم،

١٧١٠ - فلما سمعت قصة يوسف وأوصافه، تحرّك حبها نحو وجهه القمرى،
- ولما توالت الأحاديث عنه، رسخت تلك الفكرة فى قلبها،
- فمال خاطرها لرؤيته بعد السماع عنه، حقا! إن السماع بذرة الرؤية!
- وكانت تدرك بنفسها مدى قيمته، فاستوفت إعداد ثمنه،
- وهو: ألف بعير أصيلة، محملة بالديباج والمسك والجواهر والذهب،
١٧١٥ - وكل ما كان عندها من ألوان النفائس، مما بدا لها جديرًا بأن يكون ثمنًا له،
- وأعدّت نفسها وسلكت طريق مصر، ولم تترك فى خزائنها شيئًا من الأموال،
- وذاع مقدمها إلى مصر، وعلت فى مصر ضوضاء جديدة،
- وأقبلت إلى مصر، ميممةً طريق يوسف، مستفسرةً عن مكانه،
- وحينما أحيطت بموضعه علمًا، أطلقت العنان لقلبها السعيد نحوه،

١٧٢٠ - فشاهدت جمالاً لا يحدّه إدراك، لكأنما هو روح منزهة عن التلوث بالماء والطين،
- لم تَر مثله قطّ فى الدنيا، ولم تسمع من أحد عن شبيه له على الإطلاق،
- فخرجت فى البداية فاقدة الوعى لرؤيته، وتحرّرت من نفسها من لذة فقدها لوعيها،
- ثم استعادت وعيها بعد فقده، واستيقظت من نوم غفلتها،
- وأطلقت لسانها وشرعت فى السؤال، وبحثت عن الجواهر فى خزانة الأسرار.
١٧٢٥ - وقالت: «يا من يستقيم بك أمر الجمال، من ذا الذى زيّن جمالك بهذا الحسن؟
- ومن الذى جعل شمس جبينك لامعة؟ حتى اقتبست هالة القمر نورها من طلعتك؟
- وأىّ رسّام قام برسم صورتك؟ وأى بستانىّ تولّى رعاية دَوحتك؟
- وأى فرجار ذلك الذى رسم قوس حاجبك؟ ومن الذى منح طرّتك هذه التجاعيد المسكية؟
- ومن أين ارتوت وردة وجنتك النضرة؟ ومن ذا الذى أحضرها بهذه النضرة فى هذا البستان؟

١٧٣٠ - ومن الذى علّم سرو قوامك حُسْنَ الخُطَى؟ ومن ذا الذى علم ياقوت فمك عذب الكلام؟

- وصفحةٌ مِن كتابِ من وجهك القمرى؟ وكلمةٌ فى قلم من طرف طرّتك؟

- ومَنْ الذى أضاء عينك النرجسية المبصرة؟ وأيقظها من نوم العدم؟

- ومن الذى أغلق بالقفل الياقوتى صندوق درّك؟ ومن الذى قوّى قلبك، وغذّى روحك؟

- ومن الذى حفر بئرًا فى ذقنك؟ ومن أفعمه بماء الحياة؟

١٧٣٥ - ومن زيّن وجنتك بخالٍ عنبرى؟ فأجلس بذلك غرابًا فى حديقة؟»

- فلما سمع يوسف منها هذا الكلام، نثر غذاء الروح من فمه الحلو،

- قائلاً: «إنّى من صنع ذلك المبدع، وأنا قانع بقطرةٍ من بحره،

- وما الفلك إلا نقطة من قلم كماله، والدنيا إلا برعمٌ من بستان جماله،

- وما الشمس إلا شعاعٌ من نورحكمته، وما السماء إلا فقاعةٌ من بحر قدرته،

١٧٤٠ - فقد كان جمالاً منزها عن العيب، مستترًا فى حجاب الغيب،

- فخلق من ذرّات الكون مرايا، وألقى فى كل واحدة منها بصورة لوجهه[١]

- فلو أنك أمعنت النظر، فإن كل ما هو جميل أمام عين فطنتك ما هو إلّا صورة طلعته،

- فابحثى عن الأصل حين يقع بصرك على صورة، فإن الصورة تفقد جمالها أمام أصلها،

- ولو أنك تبتعدين - معاذ الله - عن الأصل، فإنك تُحرمين من النور فى النهاية كالصورة،

١٧٤٥ - فعمر الصورة ليس طويلاً، كما أن لون الورد غير دائم الوفاء،

[١] هذه الأبيات تأثر فيها الشاعر بالحديث القائل: «كنت كنزًا لا أُعرف، فأحببت أن أعرف، فخلقت خلقا، فعرفتهم بى فعرفونى، وفى لفظ. فتعرفت إليهم فبى عرفونى»، قال ابن تيمية: ليس من كلام النبى صلى الله وعليه وسلم، ولا يعرف له سند صحيح ولا ضعيف. تبعه الزركشى والحافظ بن حجر فى اللآلئ والسيوطى وغيرهم، وقال القارى: لكن معناه صحيح مستفاد من قوله تعالى:
«وما خلقت الجنّ والإنس إلا ليعبدون» أى ليعرفونى، كما فسّره ابن عباس رضى الله عنهما، والمشهور على الألسنة. «كنت كنزًا مخفيًا، فأحببت أن أُعرف، فخلقت خلقًا فبى عرفونى»، وهو واقع كثيراً فى كلام الصوفية واعتمدوه وبنوا عليه أصولاً لهم.
كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس. إسماعيل بن محمد العجلونى. (ـ ٢) - ص ١٩١ (مكتبة التراث الإسلامى بحلب).

- فلو أنك تطمعين فى الدوام، فالتمسى الوفاء من الأصل،
- فحتى الحزن، الذى يمزّق أوتار الروح، يوجد تارة وينعدم أخرى»
- فلما سمعت الابنة الحكيمة هذه الأسرار، طوت بساط عشقها ليوسف،
- وقالت له: «حينما سمعت أوصافك، حملت جرح الرغبة إليك فى قلبى،

١٧٥٠ - وسلكت طريق محبّتك، وجعلت من الرأس قدمًا للبحث عنك،
- ولما رأيت وجهك طار صوابى، وعَزَمْتُ على أن أسلم الروح تحت قدمك،
- ومادمت قد ثقبت جوهر الأسرار، وكشفت لى منبع الأنوار،
- وأبديت البراعة فى تحقيق المراد، وأشحت بوجهك عن حبى،
- وأزلت النقاب عن وجه أملى، وأرشدتنى إلى الشمس بدلاً من الذرة،

١٧٥٥ - فإن محبتك الآن - وباب هذه الأسرار قد فتح لى -
إنما هى من قبيل المجاز،
- وحينما تفتح عينى على الحقيقة، فمن الخير أن
أتخلّى عن عشقى المجازى،
- وما دمت قد فتحت عينى، فليجزك الله، فقد جعلتنى
نجيةً لروح الروح،
- وقطعت قلبى عن حب الأغيار، وأسكنتنى حرمة
الوصال،
- فلو أن كل شعرة منّى تصير لسانًا، لأقصّ حكاية
عنك بكل لسان،
١٧٦٠ - فإنى لا أستطيع أن أثقب جوهر شكرك، ولا أستطيع
الحديث - قدر شعرة - عن إحسانك»،
- ثم ودّعته وانصرفت، وتخلّصت من أسباب عشقه،
- وأسرعت ببناء صومعة - بعد رحيلها - على شاطئ
النيل،
- وأذّنت فى المساكين والمحتاجين، بقلب قد تحرّر من
ملك العوالم وأمواله،
- فنهبوا ممتلكاتها وأموالها، وجعلوها محتاجة لقوت
ليلها،

١٧٦٥ - وقنعت بغطاءٍ بـالٍ على الرأس، بدلاً من التـاج المرصّع بالجواهر،
- وربطت رأسـها بخـرقة صـوفيـة، بدلاً من العصـابة الذهبية،
- وعرّت جسدها من الأطلس والحرير، واتخذت لنفسها - كالمرآة - لباسًا من اللبد،
- وبيدها مـسبحة من الخـزف للتسبيح، بدلاً من العـقد المصنوع من الجواهر،
- وسلكت طريقها إلى زاوية فى تلك الصـومعة، وولت وجهها عن العالم صوب ذلك المحراب،
١٧٧٠ - وأحضرت رمادًا من الموقد، وافترشته بديلاً عن السَّرير السنجابى،
- ووضـعت وسـادة من الحجـر الصلد تحت رأسـهـا، فناحت الدنيا شفقةً عليها،
- وكـانت تقضى عـمرها فـى هذه الصومـعة، وتثبّت أقدامها فى الطاعة،
- ولما أنهت عـمرها فى الـعبـادة سُرّت - كـالأبطال - بإسلام روحها،
- فلا تظن أنهـا أسلمت الروح عبثًا، فـقد شاهدت نور وجه الحبيب وأسلمت الرّوح،

١٧٧٥ - فتعلّم أيها القلب من تلك المرأة البطولة! وتدرّب على الرثاء في مأتمها،

- وابتلع أحزانك حتّى لو لم تجد، وأقم مأتمًا، وإن لم يكن عندك،

- فقد انقضى العمر في عبادة الصورة، ولم تتحرر لحظة من التفكير فيها،

- فجمال الصورة معرّض كل آونةٍ للزوال، ومتقلّب كل لحظة من حالٍ إلى حال،

- فلا تطأ بقدمك أرضًا صخرية كل لحظة، ولا تَتَنقّل كل ساعة من غُصنٍ إلى غُصن،

١٧٨٠ - واتخذ مقعدك أعلى من الكون والمكان، وعشّك فوق قصر المعنى،

- فالمعنى ذو شكل واحد، أمّا الصورة فلها آلاف الأشكال، فلا تطلب من الصور المختلفة راحة،

- فحيث توجد الكثرة يكون الاضطراب، ولذا فإن الالتجاء إلى الوحدة حِصنٌ منيع،

- فإذا لم تقوَ على حرب العدوّ، فمن الأفضل أن تحاصره بدلاً من حربه.

تهيئة زليخا أسباب الراحة ليوسف، وخدمتها له بكل ما تستطيع

- لما أضحت السعادة أسيرة شباك زليخا، ضربت السماء عملتها باسمها،

١٧٨٥ - فأغمضت عينها عن رغبات الدنيا، وأعدّت نفسها لخدمة يوسف،

- فطرزت ملابس من الخزّ والديباج ملائمةً له، وجميلة كقوامه،

- وتيجان من الذهب، ومناطق ذهبية، كل منها مرصع بالجواهر اللامعة،

- أعدت من كل نوع منها ثلاثمائة وستين، بعدد أيام العام، وجلست مرتاحة البال،

- وكانت تلبسه خلعةً جديدةً كل يوم، إن تنفّس صباح جديد،

١٧٩٠ - فإذا تتوّجت الشمس بتاجها الذهبي، توّجت مفرقه بآخر،

- وإذا نهضت السروة الباسقة برأسها، شدت خصره على نسقٍ ثانٍ،
- أما محياه، شمس الأحبة، فلم يكن يبزغ كل يوم من طوق قميصٍ واحد،
- وما كان سرو رياض الدلال هذا يتوّج بتاجٍ واحد مرتين إطلاقًا
- ولم يكن ذلك السكريّ الشفة يربط خصره بحزام واحد، بل كان يُجدّد حزامه كقصب السكر،

١٧٩٥ - وحينما كان تلبسه تاجه الذهبى على رأسه، كانت تطبع عليه آلاف القبلات،
- (قائلة): «فليكن تراب أقدامك تاجًا لى، وليكن معراجى إلى أوج العظمة»
- وحينما كانت تسحب عليه قميصه، كانت تناجيه سرًا،
- (وتقول): «فليكن جسدى خيطًا فيك، ولترو غُلّتى من نمط مثلك».
- وحينما كانت تصلح القباء على قوام ذلك السرو البهيج، كانت تقول للقباء:

١٨٠٠ - «إننى أشتهى ذلك السرو الوردى، وليتنى أُضم فى أحضانه مثلك».

- وحينما كانت تشدّ الحزام على خصره، كانت هذه الأمنية تجرى على لسانها:

- ما كان أحلاه لو كانت يدى حزامًا، وما كان أطيبه لو أننى استمتعتُ بوصاله».

- وحينما كانت تمشّط جدائل طرّته، كانت تعلّل قلبها الموله،

- وكانت تنسج من العنبر الخالص شبكة عنبرية لضيد روحه،

١٨٠٥ - وكانت تحتفظ به فى حجرة طعامها ليلاً ونهارًا، متعللة بطعام العشاء والإفطار،

- وكانت تعد موائد مختلفة، مزينة بألوان النعم العديدة،

- وكانت تعدّ السكر المستعار من شفتيه، ولب اللوز المستعار من أسنانه لتحليته،

- وأحضرت له من الفواكه العديدة ما كان قد اكتسى شكل تفاحته الفضية،

- فتارة كانت تهيئ له شواءه من صدور الدجاج، وتضعه أمامه كقلبها،

١٨١٠ - وتارة تصنع له أنواعًا من المربّى المخصوص، الحلو المذاق كياقوتة النّضر،
- ولما كانت تصنع شرابه من خالص السكر، كان سكر عرقها يسيل خجلاً منه،
- وكانت تحضر أمامه - فى الحال - ما يميل خاطره إليه من كل هذه الأشياء،
- وحين كان يخامره خيال النوم فى المساء، كانت قوتها تخور من متاعب يومه،
- فكانت تفرش له فراشًا وثيرًا، وتضع عليه الديباج والحرير،
١٨١٥ - وحينما كان يغلق حجاب النوم نرجس عينيه، كانت ترافق شموعه وهى محمومة،
- فكانت تجعل عينيها الثملتين ترعيان حتى السحر فى حديقة حُسن ذلك كالقمر،
- فتارة تصبح رفيقة أسرار عينيه، وأخرى أليفة لبرعم فمه،
- وتارة تجنى الشقائق من بستان وجنتيه، وأخرى تشترى الورد من بستان وجهه،
- وتارة ترشف الرضاب من ينبوع فمه، وآونة تلتف حول ذقنه،

١٨٢٠ - وتارة تتناجى مع طرتـه (قائلة): «يا شـبـيـهة غُـصنِ الدلال!

- إن الدم الخـالص يهطل من عـينى، لأن الشـيطان مضطجع مع ملاك[١]»

- وكانت تعض ظهر يدها متحسرة، تمضى ليلها طويلاً كطرته إلى آخره،

- وكان هذا شأنها فى أيامها ولياليها، فلم يكن يهدأ لها قرار لحظة،

- وكانت تتحمل أحزانه وتزيلـها عنه، ورغم أنها سيدته فقد كانت فى الواقع خادمته،

١٨٢٥ - حقـا! إن العاشق يبيع الروح دائمـا، ويسعى لخـدمة المعشوق بذاته،

- ويلتقط بأهدابه الأشواك من طريقه، ويزيل مـا بقدميه من أذى بعينيه،

- ويجلس مستـعداً لخدمته بعـين روحه، عسى أن يلقى عنده القبول.

[١] الشيطان إشارة إلى طرته السوداء، والملاك إشارة إلى وجه يوسف عليه السلام.

شرح يوسف عليه السلام قصة مشقة الطريق وآلام الجب، وإدراك زليخا أن الحزن الذى أصابها فى ذلك اليوم كان بسبب تلك الأحداث

- هكذا يورد ناظم كلام هذه القصة الجميلة قصة أخرى بينها،
- إذ قبل وصول يوسف، كانت زليخا - ذات يوم - فى ألم ولوعة مبرحين،

١٨٣٠ - فارق قلبهـا الصبر وجسدها الراحـة، وترك الصبر فى نهاية الأمر روحها الحزينة،
- فلم تكن مرتبطة بعـمل فى المنزل، ولم تكن مسرورةً بأحد خارجه،
- فأهدابهـا مليئة بالدموع، وقلبـها ملىء بالدم، فكانت تدخل المنزل تارة، وتخرج منه أخرى،
- فقالـت لها تلك المربية سعـيدة الحظ: «يا من حطمت القمر! وجعلت الشمس ظلاً!!
- لا أصابتك قسوة ظلم الفلك، ولا لحق بك اضطراب من حيف الزمان،

١٨٣٥ - إنى لا أدرى ما أنت عليه اليـوم، فروحك غريقة فى بحر الملل،

- إنك مثل ورقة الشجر، يعصف بها النسيم، ولا يراها أحدٌ تستقر فى مكان،

- فتارةً تسقط على ظهرها، وأخرى على وجهها، وتارة يقلبها هنا وآونةً هناك،

- لاتستريح فى جـانب، وليس لهـا من رغـبة سـوى الدَّوران،

- فـخـبـرينى، من هو سـبـب هذا الاضطراب، وممّن أصابك هذا الألم الجديد؟».

١٨٤٠ - فـقالت: «إنى حـائرة اليوم مـع نفسى، مـضطربةٌ فى أمرى،

- فإنى حزينة، ولا أدرى مصـدر هذا الحزن، ولابسبب مَن هذا المأتم؟

- إن ألمًا خفـيًا قد انتزع راحـتى، وأودعنى لحيف دوران الأيام،

- وما أنا إلا تراب ساكن بطبيعته، إلى أن حلّـت به زوبعة،

- فرغم أن وجـوده ليس خالٍ من أمر الحركـة، فإنه لا يعى شيئًا عن الريح»،

١٨٤٥ - فلما صار يوسف جليسًا لزليخا، ولازمها على الدوام،

- وكان يبوح لها ذات ليلة بأسراره، ويحكى لها أحزان الماضى وآلامه،

- وفجأة، أطلق لسانه فى ثنايا كلامه عن شرح رحلته، وقصة البئر،

- فلما سمعت زليخا قصة البئر، تلوّت كالحبل،

- وأيقنت أن ما وقع بقلبها كان ذلك اليوم؛ إذ كانت روحها فى حزن حارق للروح،

١٨٥٠ - فلما شرعت فى حساب اليوم والشهر جيدًا، صدق حدسها،

- حقا! إن القلب الذى يكون عارفًا، يعلم أن هناك طريقًا يربط بين القلوب،

- وخصوصًا من مزّق قلبه ألم العشق، يكون صادقًا فى طريق معشوقه،

- فيُشَقُّ طريق من كل جرح فيه، وينظر إلى معشوقه من ذلك الطريق،

- ومن هذا الطريق يقع شعاع بأحوال الأحبة على أجسام المحبين وأرواحهم،

١٨٥٥ - فلو أن شوكةً وخزت قدم المحبوب، لأدمت قلب العاشق،

- ولو أن ريحًا تهبّ على طرته لاضطربت بسببها روحه،

- ولو استقر على عذاريه غبار، فإن ظهر العاشق ينحنى تحت أعبائه،

- وكنت قد سمعت أن ليلى توجهت إلى الفصّاد ذات يوم بغية الفصاد،

- فلما وخز ليلى المفصد لإخراج الدم، وهى فى حيّها جرى الدم فى الوادى من يد المجنون،

١٨٦٠ - فأقبل يا جامى! وازهد فى وجودك، وتخلّص من التفكير فيه،

- فلو كان عندك فخرٌ وشهرة، فهما من ظنونك، ولو أن عندك رائحة ولونًا، فهما من تصوّرك،

- فصفّ نفسك من الحقد والمحبة الدنيويين، واصقل صفحة مرآتك،

- فعسى أن يتألّق نور جمال محبوب الغيب من طوقك، مثل كليم الله،

- فتضىء عين بصيرتك بذلك النور، ولا يبقى سرّ الأحبّة محتجبًا أمامك.

رغبة يوسف عليه السلام فى الرَّعى؛ إذ إنه لم يكن نبىٌّ قط لم يشتغل بالرعى[1]، وتهيئة زليخا أسباب الرعى له

١٨٦٥ - ما أسعد العاشق الذى تحالفه السعادة، فيسعى لتحقيق رغبة الحبيب،

- ويتخلى كليا عن رغبته، ويقبل ضرر نفسه لتحقيق رغبة حبيبه،

- وحينما يطلب الحبيب روحه منه، فإنه يحضرها على شفته ويقبّل الأرض، ويودعها أمامه،

- وحينما يرغب فى القلب، يدمى قلبه حزنًا، ويخرجه من عينه بدلاً من الدمع،

- ولو يقول: «انهض»، لاتّخذ من الرأس قدمًا، ورفع رأسه عاليًا فى خدمته،

[١] ورد هذا الحديث فى مسند ابن حنبل، حيث يقول: «حدثنا عبد الله حدثنى أبى حدّثنا عثمان بن عمر حدثنا يونس عن الزهرى عن أبى سلمه عن جابر أنه قال. كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم نجتنى الكباث فقال عليكم بالأسود منه فإنه أطيبه، قلنا: وكنت ترعى الغنم يا رسول الله؟ قال: نعم، وهل من نبى إلاّ قد رعا؟». مسند ابن حنبل؟ الجزء الثالث. ص٣٢٦، كما ورد هذا الحديث بصورة أخرى فى فتح البارى، حيث يقول: «ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم». فتح البارى بشرح صحيح البخارى. حـ ٤ ص ٤٤١ المطبعة السلفية.

١٨٧٠ - ولو قـاده، لما لوى الرأس، كـما لو كـان قلمًـا، ولو طلبه، ما لوى وجهه كصفحة الكتاب،

- فقد كانت الرغبة فى الرعى تراود يوسف بإلحاح،

- فلما وقفت زليخـا على أمر تلك الرغبة، لوت العنان لتحقيقها،

- فطلبـت - بادئ ذى بدء - من مـهـرة هذا الفن أن يصنعوا له مقلاعًا،

- فنسجـوا له حبلاً من الذهب كأنه الشـمس، وجدلوه كالطرة المعنبرة،

١٨٧٥ - وكانت زليخا بدورها تتمنى أن تكون شعرةً فيه،

- (وكأنهـا تقول): «مـادمت عاجزةً عن ربط نـفسى به بغير سبب، فإنى بتلك الحيلة أقبل يده بين الفينة».

- وتارة تقـول: «أنَّى يروقنى هذا؟ فـإنى آسـره بشعـرةٍ واحدةٍ منى!»

- ورصـعتـه كأهدابهـا بالدّر والجـواهر، بغيـة الجمـال والزينة،

- فلو وقع الياقوت الثـمين فى قبضتـها، لألقت به مثل الحجارة، لتفاهة ثمنه،

١٨٨٠ - ثم أصدرت أمرها للرعاة أن يرعوا قطعانهم فى الجبال والوديان،
- وأن يفصلوا عدة حملان نادرة، لا نظير لها ولا مثيل،
- وكأنها غزلان «ختَن»، وقد رعت السنبل، ولم تؤذها الذئاب قطّ،
- وأصوافها كالدروع، وكأنها شعر الزنجى، أصفى لونًا من الحرير،
- وأذنابها متساوية فى حمل أثقالها من الدسم، لطيفة فى مشيها على الطريق من شدّة ثقلها،
١٨٨٥ - فكلما ذهبت للرعى فى سهل، بدت كسيل من الزيت متلاطم الأمواج،
- ولعلوّها صفعتها الرياح، فاتخذت شكل السلاسل،
- وجرى يوسف مسرعًا بين ذلك القطيع، وكأنه الشمس المتوهجة فى برج الحمل،
- وقد ولّى وجهه صوب الخراف، وكأنه الغزال المسكى الشّارد،
- وسيّرت زليخا صبرها ولبّها وعقلها وروحها كلابًا خلف الراعى،

١٨٩٠ - وكلّفت بعض الحرّاس، أن يحفظوه من كل أذىً،
- وظلت على هـذه الحـال؛ لأنهـا تريد ألا يشـعـر أن اختياره كان بعيداً عن إرادته،
- فـهو راعٍ فى الصـحراء مـتى أراد، وسلطان فى ديار الروح متى رغب،
- بيد أن ذلك الملائكى المـولد كان متـحرراً فى ذاته من الملك والرعى كليهما،
- فـأنّى يتعـلق شخصٌ من العـارفين بمثل هذه الأمـور (الدنيوية)؟

طلب زليخا وصال يوسف عليه السلام وتعفّفه عن ذلك

١٨٩٥ - حينما يربط عاشق قلبه بمحبوب، لا يقرّ له قرار أبدًا،

- فإن لم يجد نقد الوصال فى راحته، وقع فى عشق طيفه بالنَّسيئة،

- بيد أن دمه يسيل من قلبه، إذا انتقل أمره من القلب إلى العين،

- وحينما تحظى عينه الدامعه برؤيته، يجول بخاطره فكرة تقبيله -واحتضانه،

- ولو حظى بتقبيله واحتضانه، لظلّ متألمًا خوف الهجر والفراق،

١٩٠٠ - فليس فى العشق أمل لسعادة، ولا صفاء لحياة،

- فأوّله سفك دماء، وآخره موت، ولا شىء غيره،

- فكيف يرتاح شخص محب، وكل همه سفك دم أو موت؟

- فزليخا لم تسترح برؤية يوسف، لا فى المنام ولا فى اليقظة،

- وما كانت تطمح من وراء بحثها فى أكثر من رؤيته،

١٩٠٥ - فلما رأته، وظفرت بسعادة النظر، رغبت فى التدرج إلى ما بعده،

- فأدارت مفتاح البحث، لتحضر يوسف فى أحضانها،

- وتحقق رجاءها بالقبل من ياقوته، وتجد راحتها بالأحضان من سروه،

- حقا! إن المتفرج الذى يقبل صوب البستان، يصبح صدره مليئًا بالجوى شوقًا إلى الورد،

- ويصبح فى البداية ثملاً لرؤية وجهه، ويتطلع بعد ذلك إلى أن يقطفه،

١٩١٠ - فقد كانت زليخا تحتال للوصال، بيد أنه كان يتجنبها،

- وكانت تسكب الدم من عينيها، بيد أنه كان يهرب منها،

- وأصابها جرح عميق، بيد أنه لم يكترث بأمرها،

- وكانت تتطلع إلى هذا اللقاء السعيد، بيد أن يوسف كان يغض الطرف عنها،

- وكانت تحترق طمعًا فى نظرة واحدة، إلا أنه كان لا ينظر إليها،

١٩١٥ - فكان لا ينظر إلى وجهها خوف الفتنة، ولا يتوجه نحوها بعين الرغبة،

- فالعاشق لا يوجّه تلك النظرة إلى العين، حتى لا تقع عينه على عين حبيبه،

- فدموع العاشق وآهاته المستمرة، ليست إلا أملاً فى رؤية الحبيب،

- وإذا أغمض الحبيب عينيه عن حال العاشق، فخليق به أن يذرف دم قلبه من عينيه،

- ولما حلّ هذا الحزن على زليخا، خارت قواها فى أيام قلائل،

١٩٢٠ - ودخل وردها الأحمر خريف المحنة والألم، فمال إلى الاصفرار،

- فزاد على قلبها عبء الأحزان، فأحنى سروها الباسق،

- وولّت النضرة التى كانت فى ياقوت شفتيها، وانطفأ ما بروض وجنتها من نور،

- فلم تعد تمشط شعرها العنبرى، بل كانت تقتلعه بأصابعها،

- ونادرًا ما كانت تتطلع بوجهها فى المرآة، اللهم إلا أن تضعه على رُكبتيها،

١٩٢٥ - ومن كـثرة مـا سكبت من دمائهـا الطازجة، لم يعـد وجهها بحاجة إلى حمرة الزينة،

- واسودّ العـالم بأسره فى عينيـها، فأى مجـال للإثمد آنئذ؟

- وما كـانت تبحث عن الكحل لتلك العيـون السوداء، فقد كان الدمع يغسل الكحل من نرجسها،

- فلما جرح كبدها من هذا الحـزن، فتحت على نفسها لسان اللّوم،

- (قائلة): «يا من جـرّكِ أمرك إلى الفضيحـة، وابتعت غلامًا - من ولهك - بالذهب!

١٩٣٠ - أنت ملكة على عرش العظمة، فلماذا تقعين فى عشق عبدٍ عندك؟

- اطلبى ملكًا مثلك، يكون حبـيبًا لك، فلا يليق بالملك إلا ملك مثله،

- ومما يثير العجب أن العبد لا يستجيب لوصالك، كبرًا وخيلاءً!

- ولو علمت نساء مصر بحالك، لصوّبن إليك سهام اللوم،

- ولسـحبن لسـان الطعن عـليك، ولأشـرن عـليك بأصابعهن كالهلال الجديد».

١٩٣٥ - كانت تـقول هذا، بيد أن، فـريد عصـره لم يكن فى قلبهٰ مسكنٌ لها،

- فليتـها كانت تستطـيع إخراجه من خاطرها، فـتداوى آلامها بتلك الحيلة،

- حقـا! إذا امتـزج حبيبٌ بحـبيبـه، لا يمكن للروح أن تنفصم من رباطه،

- فيـقطع رباط الروح بالجـسد فى لحظة، بيـد أنه يظل محكمًا إلى الأبد مع الحبيب،

- وما أطيب مـا قاله ذلك الذى اكتوى بجـراح العشق:

«من الممـكن زوال الرائحـــة من المسك، والـلون من الورد،

١٩٤٠ - بيـد أنه من المحال أن يُطلب مـن عاشقٍ التـخلّى عن أحبّته».

استفسار المربية من زليخا عن سبب احتراقها وانصهارها بسبب مشاهدة شمع جمال يوسف

- لما رأت المربية زليخا بهذه الصورة، سألتها عن حالها، والدمع يهطل من عينيها،
- (قائلة): «يا من أضاءت عينى برؤيتك! وقلبى بستان من صورة وجنتك!
- إن قلبك ملىء بالألم، وروحك مفعمة بالملل، ولست أدرى ما أنتِ عليه الآن؟
- إن راحة نفسكِ أمامك دائما، فلماذا تحترقين لعدمها؟
- ولو كنت قد ابتعدت عنه، لعُذرت فى احتراقك، **١٩٤٥**
- والآن، لماذا هذا الاحتراق وأنتِ فى عين الوصال؟ وما سبب إحراق شمع الروح بجراحه؟
- ولمن من العاشقين مُنحت هذه السطوة، فطأطأ معشوقه له الرأس إذعانًا؟
- إنه طالعك السعيد فقط هو الذى أتى بسلطانك، وجعله لك عبدًا،
- وهو قمرٌ جدير بتاج الملك، وبات تحت إمرتك، فماذا

تريدين بعد؟

١٩٥٠ - فلتسعدى، ولتسرّى بوجهه، ولتتحرّرى من أحزان الدنيا،

- ولتحققى رغبتك من سروه الشقائقى، ولتهدئى بمشيته الجميلة،

- فانظرى إلى شفته، وأنعشى الروح بها، وارشفى زلال السعادة منها».

- فلما سمعت زليخا هذا الكلام من مربيتها، ضاعف دم قلبها دموع عينيها،

- وأخذت تسحّ دم القلب من سحاب عينيها، وأخذت تسرد أمامها قصتها المؤلمة،

١٩٥٥ - وقالت «أيتها الأم الرءوم! أنت لست عالمة بالتأكيد بجلية الأمر،

- ولا تعلمين ماذا أحوى فى قلبى، وماذا أكن لروح الكون هذا؟

- إنه يقف أمام وجهى للخدمة، بيد أنه لا يؤدى لها حقّها،

- ولا يكون بعيدًا عني وقتًا من الأوقات، بيد أنه لا ينظر نحوى،

- فينبغى العويل على الظمآن، الذى على شفتيه الماء،

وعليه أن يعيش غَصّانًا،

١٩٦٠ - فهو يصرف عينيه إلى ظهر قدمه، إذا أضاء وجهى شمع الحسن،

- ومع ذلك فأنا لا أسعى لإيذائه، فربما يكون ظهر قدمه خيراً من وجهى،

- وحينما أفتح عليه عينى الفاحصة، فإنه يجعّد جبينه،

- وليس من حقى أن ألومه على ذلك العبوس، فإن ما يصدر منه ليس خطأ،

- وبقلبى من حاجبيه عقد، ليس لأمرى استقامة بسبب انحنائها،

١٩٦٥ - وهكذا تعقّد أمرى بسببه، وعسر نظرى إليه،

- وفمه الذى يشحّ عن الكلام، ماذا نلت منه إلا احتساء الدم؟

- وأشتاق إلى شفتيه الياقوتيتين، فتحوّل دموعى دمًا خالصًا،

- وقامته، ذلك الغصن الذى تجسّدت فيه رغبتى، نادرًا ما تميل نحوى بالرحمة،

- فحينما أرغب فى جَنْى تفاحةٍ من غصنه، أرى كل الأذى دون جنى التفاحة،

١٩٧٠ - وحينما أشتاق لبئر ذقنه، يجعل موضع راحتى بئر الأحزان،

- إنّى فى غيرة دائمة من كم ثوبه، فإنه يستقر على ساعديه بالحيلة،

- وأمزق الروح داخل صدرى، غيرةً من قميصه، فإنه يحنى وجهه على التراب أمام أقدامه»،

- فبكت المربية لسماع هذا الكلام، فلا تمكن الحياة وسط هذه الحالة المؤلمة،

- فالفراق الاضطرارى من الزمن، خيرٌ من الوصال بهذه المرارة والصعوبة،

١٩٧٥ - فأحزان الهجر تسبب ألمًا واحدًا، أما مثل هذا الوصال فيحدث ألوانًا من الشّقاء.

إرسال زليخا إلى يوسف لتطلب إليه تحقيق رغبتها، وامتناعه عن ذلك

- حينما رأت زليخا، وهى فى حزنها، الرحمة والعطف من مربيتها،
- قالت: «يا من طلبت منك العون مائة مرة، وكنت مخلصةً لى فى كل عمل،
- فلتساعدينى مرة أخرى، وانظرى إلى أحزانى، وأزيليها عنّى،
- واسعى نحوه من أجلى، وكونى لسانى عنده، وخبّريه عنى،

١٩٨٠ - وقولى له: «أيها الغُصن الشامخ المتدلّل، يا من تضفى وجنتاك على الورد رقّتهما،
- ولم ينبت مثل قامتك سروٌ شامخ من بستان الجمال، وحديقة الدلال،
- لقد عجنوا من الروح والقلب طينًا وماءً، وزرعوا فيها غصنا من حديقة الجنة،

- فلما أينعت أوراق ذلك الغصن، أطلقوا عليه بجرأة سروًا باسقًا،
- إن عروس الزمن منذ قدرّ لها أن تلد، لم تنجب أطهر منك،

١٩٨٥ - وعين آدم مضيئة ببنّوتك، والدنيا نضرة بورد وجهك،
- لقد فاق جمال حسنك تصور البشر، وليس لأحد الملائكة نصيب من جمالك،
- ولو لم يصب الجنّ منك حياء، لما بقيت متوارية منك فى ركن،
- ورغم أن الملائكة فى السماوات العلا، فإنها تخر سجدًا على الأرض أمام وجهك،
- وبهذه الصورة، ارتفعت مرتبتك عالية، فألق بظلك على المبتلى بك،

١٩٩٠ - فرغم أن زليخا جذابة، فقد سقطت أسيرة هواك،
- وجرحك على صدرها منذ الطفولة، تأسرها الأحزان من ولهها بك
- رأتك فى وطنها ثلاث مرات فى الأحلام، ولهذا ظلت محمومة زمنًا،
- فتارة تتماوج كالماء، وتارة كنسيم السحر،
- والآن، صيرها العشق كالشعرة، ولا رغبة لقلبها فى

سواك،

١٩٩٥ - وقد أضاعت نقد حياتها فداءً لك، فارحمها، فإن الرحمة مستحبةٌ فى النهاية،

- ففى شفتيك زلال الحياة، فماذا يحدث لو صببت قطرةً عليها،

- واسمح لها أن تحقّق رغبتها من ياقوتك، فعسى أن يريحها ذلك من حرقة قلبها،

- وأنت بقامتك، غصنٌ مثمر، فماذا لو أكلت من فاكهتك؟

- فطأ بقدميك حتى تلقى برأسها على قدميك، وتجنى الرطب من قوامك الجذاب،

٢٠٠٠ - فكم يتضاءل الملك من جاه مثلك، لو نظرت صوبها،

- فهى تودّ بكل ما لديها من عزة، أن تكون خادمة أمام جواريك»،

- فلما سمع يوسف هذا الكلام من المربية، فتح شفتيه الياقوتيتين بالإجابة،

- وقال لها: «يا من أنت عالمة بكل الأسرار، لا تنفثى سحرك لخداعى،

- لقد اشتريت بالذهب عبدًا لزليخا، وما أكثر ما رأيت

من الإكرام منها،

٢٠٠٥ - ومـا طيني ومــائي إلا من صنع يديهـا، ومـا قلبي وروحي إلا راعيان لوفائها،

- فلو أحصيت أنعمها عليّ دهرًا بأكمله، فلن أوفّيها حقها،

- وإني أضع رأسي طـوع أمـــرهـا، وها أنـذا واقفٌ لخدمتها،

- ولكن خبّريها ألاّ تُسرّ بأن ألوي رأسي عن أمر الله،

- أو أن أخطو بقدمي في ركن المعصية، تدفعني النّفس الأمّارة بالسوء،

٢٠١٠ - ذلك أن العزيز قد تبنّاني، واعتبرني أمينًا على منزله،

- ولست سـوى طائر تربّى على مـائه وحَـبّـه، فكيف أخونه في منزله؟

- ولله الطاهر في كل طـبيـعـة بشرية عـلى حدة شـأنٌ وحكمة،

- فـالأعـمال الطـاهرة تصدر عـن الطاهرين، والزّنا لا يصدر إلا عن زانٍ،

- وكما أن الكلاب لا تولد عـن آدميين أو العكس، فإن الشعير لا يتأتى عن القمح ولا العكس،

٢٠١٥ - وإنّى أحوى فى صدرى سرّ إسرائيل، وفى قلبى العلم عن جبريل،
- فلو كنت جديراً بالنبوة، فإنى أستحق ذلك عن إسحاق،
- وأنا وردةٌ كمنت فيها الأسرار، ازدهرت فى بستان خليل الله،
- فمعاذ الله أن أرتكب عملاً يبعدنى عن طريق هؤلاء القوم،
- فانصحى زليخا أن تُنحّى هذه الأمنية جانبًا، ولتعذر قلبها وتعذرنى،
٢٠٢٠ - فإن عندى من فضل الله الطاهر، الأمل فى عصمة النفس الأمّارة».

ذهاب زليخا إلى يوسف بنفسها وتضرّعها إليه واعتذاره عن تحقيق مرادها، وإصراره على القيام بأعمال الخدمة لها

- لما قالت المربية هذا الكلام لزليخا، اعتراها اضطراب من قولها،
- وصبت دم كبدها من أهدابها على وجنتيها، وسكبت العنّاب النّضر من لوز عينيها الأسود،
- وتبخترت بسروها الباسق، وألقت بظلها على رأس ذلك المدلّل،
- وقالت له: «يا من رأسى موطئ قدميك، لا خلت رأسى من هواك!

٢٠٢٥ - إننى لست خاليةً من حبّك قيد شعرة، ولا أحسّ بوجودى على الإطلاق،
- قطيفك هو الروح فى جسدى، وأنشوطة حبّك طوق لعنقى،
- فإن كانت لى روح، ففى عشقك ترعرعت، وإن كان لى جسد، فأنت الذى أوردت روحه مورد الرّدى،

- فمــاذا أقول عن حالى وحال قلبى؟ فـما هو إلا قطرة من عينى الدامية،

- ولذا فـأنا غريقـة فى لجـة عشـقك، الذى غطّانى من القدم حتى المفرق،

٢٠٣٠ - حـتى الحـجّام الذى يبـحث عن الدم فـى جسـدى، يستنزف عشقك بدلاً منه».

- فبكى يوسف حينما سمع هذا الكلام، فتأوهت زليخا قائلة: «ما سبب هذا البكاء؟

- إنك عينى! فكيف أضحك وأنا أرى عينى تدمع؟

- فتسكابك الدموع هو إلقاء للهب والنار فى روحى،

- وإنّى أعلم أن من مـعـجـزات حـسنـك أن تلقى فى روحى نارًا من دموعك».

٢٠٣٥ - فلما رأى يوسف الأحـزان الزائدة منها، نثـر الجواهر من فمه، كما نثرها من عينيه،

- وقـال: «أمـا البكاء، فـلأن قلبى مـحطّم، لأن حب الناس ليس مباركًا علىّ،

- فحينمـا خطت عمّتى فى طريق حبّى، وصـمتنى فى الدنيا بالسرقة،

- ولما أحبنـى والدى أكثر من أخـوتى، زرع بذلك بذرة الحقد فى أرواحهم،

- وأبعدونى عن جوار والدى، وعزلونى فى أرض مصر،

٣٠٤٠ - فقلبى يدمى فى صدرى لحظة فلحظة، فأى شىء سيجلبه عشقك علىّ؟[١]»

- حقًا! إن سلطان المعشوقين غيور، لا يودّ له شريكًا فى ملك عشقه،

- ولا يريد - من البداية إلى النهاية - أن يشاركه أحدٌ فى هذا المجال،

- فحينما تشمخ سروة بحسنها، يذلها كالظل تحت قدميه،

- وحينما تتألق وجنة القمر بالجمال، يحرق هالته ببرق غيرته،

٣٠٤٥ - وحينما تصل الشمس أوج الفلك الدّوار، فإنه يقلبها نحو المغرب،

- وحينما يعلو القمر ممتلئًا بالنور، يصيبه ألم المحاق،

[١] يقول البغوى «... وروى أنّ الفتيين اللذين دخلا السجن مع يوسف لما رأيا يوسف قالا له: لقد أحببناك حين رأيناك، فقال لهما يوسف: أنشدكما بالله أن لا تحبانى فوالله ما أحبنّى أحد قط إلاّ دخل علىّ من حبه بلاء!! لقد أحبتنى عمتى فدخل علىّ بلاء، ثم أحبنّى أبى فألقيت فى الجب، وأحبتنى امرأة العزيز فحبست.....». تفسير البغوى على حاشية الجزء الرابع من تفسير ابن كثير ص٤٤١.

- فقـالت زليخا: «يا عينى ومـصباحى! إن ضيـاءك قد شغلنى عن ضوء القمر،

- إننى لا أقـول إننى عـزيزة فى نظـرك، بل إنى أقل جارية فى جواريك،

- فمـاذا يحدث لو دللّت جـارية، وخلّصتـها من قـيد محنتها؟

٢٠٥٠ - ولا يتـأتى من أقل الجـوارى هذه إلا شـوق قلبـهـا، وحرقة صدرها،

- وليس مستـحبًا أن تظن العداء بى، وأنا التى أحـببتك أكثر من روحى،

- إن أحدًا لا يودّ إيذاء روحه، ولا يتمنّى لها أية آفة،

- إن قلبى قد انفطر بسـيف حبك، فأى خوف يعـتريك من حقدى؟

- فتلطّف، وأنلنى رَغبتى من شفـتيك، واسترح ساعة، وجُد علىّ بالراحة،

٢٠٥٥ - واخْطُ فى صـحـبـتى خطوة، وانظر إلـى سـعـادتى الأبدية»،

- فأجابهـا يوسف قائلا: «يا مولاتى! إنى مقـيّدٌ أمامك بقيد العبودية!،

- ولا أملك عملاً خـارج نطاقها، فمـرينى بالعمل على قدر العبودية،
- ولا تبحثى عن سيادة عبدك، فتخجليه بهذا العطف،
- فمن أنا حتى أصـبح أليفًا لك؟ وأصيـر شريكًا للعزيز فى مائدته؟

٢٠٦٠ - فينبغى على السلطان أن يقـتل ذلك العبد الذى يتذوّق الملح من مملحته،
- وخيرٌ لـى لو شغلتنى بعمل، حتى أصـرف فى إنجازه عمرًا،
- فإنّى لا أدير الرأس عن خـدمتك، وأوفّى حقّـها بكل جهد،
- إن العبيد يـحررون بحُسن الخدمة، ويسرون بصـحيفة إعتاقهم،
- وإن الخـاطر ليسـرّ ممّن يجيـدون الخدمـة، ولا يطلق سراح عبد سيئة خدمته»،

٢٠٦٥ - فقالت زليخا: «أيها النجم المبارك، إنى أمامك أقل من جارية،
- إننى حيثما يلوح عـمل أمامى، يكون تحت قدمى فيه أكثر من مائة عبد،

- فأية سعادة فى أن أتركهم وأضعك أمامى فى كل عمل،
- إن القدم خلقت لتكون من أجل السير فى الطريق، ولا ينبغى أن تعد العين كالقدم،
- إنك حينما ترى الطريق مليئًا بالأشواك حيث تضع قدميك، فإنك سترى الأذى لو وضعت عينيك،

٢٠٧٠ - فلما سمع هذا الكلام منها قال: «يا من اتحدت روحك وقلبك فى حبى!!
- لو كنت صادقة - كالصباح - فى حبى، فلا تتنفّسى إلا حسب ما أشتهى،
- وما دامت رغبتى هى أداء الخدمة، فإن النقيض من ذلك ليس من شروط الصداقة،
- فالقلب المبتلى بعشق الحبيب، لا همّ له غير رضاه،
- ويقامر برضا نفسه فى سبيل إرضائه، ويضع وجه الرضا على تراب قدميه»،

٢٠٧٥ - ولم يكد يفرغ يوسف من هذا الكلام، حتى أوى إلى الخدمة خوف الصحبة،
- فقد كان يخشى -الفتنة والاضطراب من صحبتها، فتوسّل بالخدمة ابتعادًا عنها،
- فما أطيب القطن الهارب من النار، لأنه لا يستطيع مقاومتها.

إرسال زليخا يوسف إلى البستان، وتهيئة أسباب المتعة وإعدادها له

- هكذا روى بستانى هذه الحديقة، عن الشيوخ القدامى،

- أنه لما نثر يوسف السكر الطازج على زليخا من شفته التى تمضغه،

٢٠٨٠ - وكان لزليخا بستان، وياله من بستان، فقد كان قلب إرم يلتاع حسرةً منه،

- وقد أحاط به سور من الماء والطين، ونبتت الزهور الحمراء فى جوانبه،

- وتشابكت أغصان أشجاره، واحتضنت بعضها فى جرأة،

- ووقفت جذور «الچنار»[١] على أطراف السّرو، وتعلّقت أيديها الشبيهة بالحمائل برقبته،

- وقد جلس الورد فى هودج من البرعم، بينما ظلّل الرّمان مفرقه بمظلته،

[١] اسم شجرة فارسية.

٢٠٨٥ - وساحة الميدان خميلة لجذور البرتقال، ففى يدها البرتقال، وفروعها الكرة والصولجان،

- وقد اختطف كرة اللطف من الجميع فى ذلك الميدان الخالى من الآثام،

- وقد بسط النخيل قامته الباسقة، فأضفى على الحديقة من حسنه الزائد،

- وكل ثمرة منه فيها محصول من الحلوى يأخذ منها متُعبو الأرواح نصيبهم،

- أما ثدى التين فكان كالمرضعة امتلأ باللبن من أجل صغار الحديقة،

٢٠٩٠ - فكل طائر أكل ثمر التين، ملأ فمه كطفل رضيع،

- وضوء الشمس فى ساحتها، فى منتصف اليوم، يتوهج من نوافذها الخضراء،

- واختلطت الشمس بالظل، فزيّن الأرض بالمسك والذهب،

- ومن حركة وهج النور فى الظل، بدا كأجراس ذهبية لدفٍ صنع من الورد،

- وشرعت العنادل فى الغناء على نغمات الأجراس، وأخذت تصيح فى هذا القصر الفيروزجى،

٢٠٩٥ - وبسبب هبوب الريح وظل الصفصاف، فإن آلاف الأقمار كانت ترتجف فى الأنهار،

- ومن أجل تنظيف الحديقة - مما هو حسنٌ وقبيح - صار ظل كل فرع مكنسة،

- وأرضها لوحٌ للتعليم، وخضرتها مثل الخط على صفحته، وامتدت أنهاره كالسطور الفضية،

- وقرأ العقلاء رموز صنع الله البارى، من ذلك اللوح المسطور،

- فوروده الحمراء تبدو كأنها حسان مدلّلة، ووجه الأصفر منها كلون العاشق،

٢١٠٠ - وثنى الصبا طرة البنفسج، وأسدل شعور السنبل،

- واحتضن الياسمين الشقائق -والريحان، واكتست الأرض بخضرة حريرية نضرة،

- وقد تقارب فى منتزه الحور هذا حوضان من المرمر الصافى، وكأنهما البلّور،

- وبينهما - كالعينين - مسافة قليلة، وكل منهما يشبه صاحبه تمامًا،

- ليس فيها أثرٌ للنحت بالقادوم، ولا خدش من منحت،

٢١٠٥ - ولا يربطهما أى رباط أو وثاق، ولهذا يحار فيهما فكر العاقل،

- فكل من نظر إليهمـا، خيل إليه أنهما خلقتـا من غير صنعة صانع،

- ولما كانت زليخا تتجـه إلى تلك الروضة لتسكن قلبها المكتئب،

- كانت تملأ أحدهما باللبن، والآخر بما مذاقه الشهد،

- وكانت جـوارى ذلك القمـر - الذى مهـده الفلك - يسقينها اللبن من هذا، والشهد من ذاك،

٢١١٠ - وقد أقيم عرش بين الحوضين لسعيدٍ مثل يوسف،

- وقد رضـيت بترك الكلام فى صـحبتـه، وأرسلته إلى ذلك البستان للخدمة،

- وقد حكى بلبل الحـديقة للوردة (قـائلا): «يا لها من حديقة جميلة! وما أجمله بستانى!

- فحينما يكون البستان جنة المأوى، فمن يكون البستانىّ غير حورٍ ورضوان؟».

- ومائة من الجوارى الجميـلات، صدورهن كالياسـمين، أبكار طاهرات الذيل،

٣١١٥ - وقفن هناك كالسّرو المدلل، ولازمنه ليخدمنه،
- وقالت له: «يا مِن رأسى موطئ لقدمك، لقد جعلت التمتع بهؤلاء الدمى حلالاً لك،
- فلو كنت محرّمةً عليك فى نظرك، وقد بلغت حدّ اليأس من هذا التصرف،
- فاخطُ صوب من تريد، وحقق مُناك من وصال من تحب، وحقّق رغبتك، فإن أيام الشباب هى أيام السعادة والهناء».
٣١٢٠ - وأوصت الجوارى كثيراً، قائلة: «يا حلوات الشفاه! خذن حذركنّ!
- واجتهدن فى خدمة يوسف بأرواحكن، وإن أعطاكنّ السمّ بيديه فاشربنه،
- ولو طلب منكن الروح، فجدن بها، وتفاخرن ببذلها فى سبيله،
- وافرحن بكل أمر يصدره، وانصعن تحت إمرته،
- بيد أنه ينبغى على كل من تحظى به أن تخبرنى قبل كل شيء».
٣١٢٥ - كأنما كانت تنقش صورة خادعة على لوح الرغبة، كنافذى الصبر:
- فكل من تسرّه من بين الحشد، ويميل نحوها عند النوم،

- فإنها تضع نفسها مكانه خفيةً، وتأكل الثمار من غصنه الجذاب،
- وتجلس تحت نخله الجميل، وتجنى الرطب، بيد أنها تجنيه خلسةً،
- فلما أجلسن يوسف فوق العرش، ونثرن الأرواح والقلوب لاجتذابه،

٢١٣٠ - ووقفت الجوارى أمامه، وأحنين سروهن الباسق لخدمته،
- تركت روحها وقلبها أمام الحبيب، وسلكت بجسدها الطريق صوب مسكنها،
- فماأسعد العاشق الذى يسعده هجر المعشوق، إذا قرّر المعشوق ذلك،
- وحينما يرغب خاطر المعشوق فى الفراق، فإنه يصبر على محنة الهجر،
- فإذا لم يكن وصال الحبيب على هواه، فالهجر خيرٌمن الوصال مائة مرة.

إقبال الليل وعرض الجوارى جمالهن على يوسف ليختار واحدة منهن

٢١٣٥ - عند المساء، تجلّى الفلك كعروس جديدة، من خيمة السماء الناثرة للنجوم،

- وعلقت السماء فى أذنيها عقد جواهر من الثريا، واتخذت من القمر مرآة فى يدها،

- وتجلت الجوارى فى هودج الدلال، وكلهن مخادعات مكتملات الزينة،

- واصطففن حول عرش يوسف، ونفثن عليه سحر المحبة،

- فسكبت واحدة منهن سكر شفتيها الحلو (قائلة): «امزج فمك بسكّرى،

٢١٤٠ - وفك الرباط عن فمى، وكن ماضغًا لسكّرى كالببغاء»،

- وغمزت له أخرى (قائلة): «يا من تقصر العبارات عن أوصافه!!

- إنى أجعل مقامك فى عينى المبصرة للدنيا، فأقبل، واجلس فى عينى كإنسانها».

- وأظهـرت ثالثـة سـروها المتّـشح بالحـرير، (قـائلة):
«فليكن هذا السرو فى أحضانك الليلة!

- وأنّى لك أن تنام مسـروراً فى مهد السـعادة، لو نمت
بعيداً عن هذا السّرو المدلّل؟»

٢١٤٥ - وعقدت أخرى حلقـة فى طرتها المسكية (قائلة): «إنّى
بغير رأسٍ ولا قدم كالحلقة،

- فافـتح لى باب الوصال، ولا تضعنى كالحلقـة خارج
الباب».

- ورفعت أخـرى يدها المدللّة، وكشـفت عن ساعـديها
الأكمام،

- (قائلة): «فلتكن يداى حمائل لعنقك، لتدفع عن تلك
الشمائل عين السوء».

- وصنعت واحـدة من شعـرها منطقة حـول خصـرها،
وزينت بشعرها خصرها النحيل،

٢١٥٠ - وكأن لـسان حالهـا يقول: «اجـعل من يديك حـزامًا
لخصرى، فقد بلغت روحى الحلقوم بسببك»

- وعلى هذا النحـو، كـانت كل واحـدة من قـمـريات
الوجه تبحث عن الوصال من يوسف،

- بيد أنه كـان حديقة نضرة بالحـسن، فلم يكترث بتلك
الحفنة من الأعشاب،

- حقًا! لقد كنّ جميعًا ماكرات محتالات، كالدّمى في ظاهرهن، وعاشقات في باطنهن،
- بيد أن يوسف لم يكن يريد أن يصبح طريقهن إلى العبودية الحقة،

٢١٥٥ - فقال كل ما قاله لهن في طريق الدين، وذكر أسرار اليقين لدفع الشك عنهن،
- فقال في البداية: «أيتها الحوريات الحسان، إنكن عزيزات في أعين الخلائق،
- فلا تسلكن سبيل الذلة، وأنتن في هذه العزة، ولا تبحثن إلا عن طريق التدين،
- إنّ لنا إلهًا خارج نطاق العالم، هو الذي يهدى الضالين،
- وقد عجن طيننا بندى رحمته، وزرع في تلك الطينة بذرة من حكمته،

٢١٦٠ - حتى تنمو من تلك البذرة شجرة، وتجد الكمال في هذا المرج،
- وتتجه برأسها من الحضيض إلى العلا، فتشكر على ما أولاها من الثمار،
- فلا طاعة إلا لله، ولا جدير بها سواه،

- فتبعالين نعبده بعد كل هذا، فنحن بدونه أذلة أينما كنّا،

- فينبغى أن نحنى له الرؤوس، فقد أعطانا الرأس لنسجد،

٢١٦٥ - ولماذا يسجد الحكيم أمام إنسان، والقدم والرأس أمام الله شيء واحد؟

- إنه ينحت دمية حجرية بيده، ويؤرّق قلبه الحزين بحبها،

- ومعلوم ماذا يتأتّى من الحجر، وهل تجدى عبادته إلا العار؟»

- فلما أرشد يوسف أولئك الغافلات بوعظه من المساء حتى السحر،

- لهجت ألسنة الجميع بالثناء عليه، ووضعن رءوس الطاعة تحت قدميه،

٢١٧٠ - ولقّنهنّ يوسف الشهادة واحدة واحدة، وحلّين أفواههن بذلك الشهد،

- فما أطيب ذلك الشهد الذى يدير كل من يتذوقه ظهره لجميع ألوان المرارة،

- فلا تعمى عين الشيطان الشقيّ إلا بطعنة إصبع الشهادة[1]،

- فذلك العاقل ينجو من عين الشيطان الشريرة بأن يقتلعها بإصبع الشهادة،

- ونهضت زليخا وقت السحر، واتخذت طريقها صوب يوسف سعيدةً مستبشرة،

٢١٧٥ - فشاهدت مجموعة الحسان وقد أحطن بيوسف، وصِرْن مريدات له بغية تعلم الدين،

- وقد حطّمن أصنامهن، وقطعن الزنانير، واتخذن من المسابح عملاً لهن،

- ولسانهن مشغول بتوحيد الله، وخصورهن تمنطقت حديثا برباط الخدمة،

- فقالت ليوسف: «يا من أنت فتنة للقلب وراحةٌ له!! من مفرقك حتى قدميك!

- إن لوجنتك اليوم مظهراً آخر، فأنت تملك اليوم جمالاً من مكان آخر،

[١] (حدثنا عبد الله حدّثنى أبي حدثنا محمد بن عبد الله أبو أحمد الزبيرى حدثنا كثير بن زيد عن نافع قال كان عبد الله بن عمر إذا جلس في الصلاة وضع يديه على ركبتيه وأشار بإصبعه وأتبعها بصره ثم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لهى أشد على الشيطان من الحديد «يعنى السبابة»).
الجزء الثاني من مسند ابن حنبل، ص١١٩

٢١٨٠ - فمـاذا صنعت ليلاً ليزداد حـسنك؟ إذ فتح عليك باب آخر من ألوان الجمال!

- وماذا طعـمت البارحـة ففـاض عليك بهذا الحـسن، ومنحك التفوق على حسان الدنيا؟

- حـقـا! إن معـاشـرة أولئك الحـسـان من وجـوههن كالياسمين وأردافهن كالفضة،

- قد زادتك حـسنًا وجمـالاً آخرين، وأضاف لجـمالك كمالاً آخر،

- حقًـا! إن الفاكهة تتلون مـن الفاكهة، والجـميل يزداد جمالاً بقرب الجميل».

٢١٨٥ - وتحـدثت كـثـيـرا فى هذا الصـدد، مع تلك الشـفـة البرعمية، بيد أن شيئًا من هذا لم يؤثر فيه،

- فكان يغلق فمه عن الكلام، وتحمرّ وجنتاه حياءً،

- ولـم يكن يقلع عن الحياء، أو ينظر إلا إلى ظهر قدمه،

- فلما أبصـرت زليخا ذلك التمرد، وعـدم نظره نحوها بعين الرحمة،

- اشتـعلت فى روحهـا نار الحسـرة، واحتـرق صدرها بجراح اليأس،

٢١٩٠ - فودّعت روحـها يائسة، وولت وجـهها صوب حـجرة أحزانها.

تضرع زليخا للمربية، والتماسها أن تدبّر حيلة تكون سببًا فى وصال يوسف

- لما تجاوز تغاضى يوسف الحدّ مع قتيلة عشقه تلك،
- طلبت مربيتها ذات ليلة، فى ركن خلوتها، وأجلستها أمامها بحنان،
- وقالت لها: «يا مانحة جسمى القدرة، ومصباح روحى المنير!
- لو حكيت عن روحى، فأنت راعيتها، أو عن الجسد، فقد غذّيته بلبانك!

٢١٩٥ - ورأيت من عطفك ما لم أره من أمى، وبلغت تلك الدرجة التى ترينها،
- ماذا يحدث لو أوصلتنى إلى مقصودى، بدافع الرحمة؟
- وإلامَ أظل متألمةً من الهجر، بعيدةً عن روح الكون؟
- فما دام الحبيب غريبًا عنى بتلك الصورة، فما جدوى وجوده فى منزلى؟
- فكل معشوق نافر من عاشقه، يكون بعيدًا عنه رغم قربه الظاهرى،

٢٢٠٠ - ومادام الرباط معدومًـا بين الروح والقلب، فماذا ينتج عن التقاء الماء والطين؟»

- فأجابتـها المربية قائلة: «يا مـلائكية الأصل! يا من لا يذكر فى وجودك الحور والملائكة،

- لقد منحك الله جمالاً جذابًا، يختطف من العقل قلبه ودينه معًا،

- فلو أن نقاش الصين - من شـوقه لك - ينقش صورة لوجهك، ويضعها في المتحف،

- فإن رائحتك تحيى الدمى جمـيعًا، وتتطلع إلى وجهك لتخدمك بأرواحها،

٢٢٠٥ - ولو أبديت وجهك للجبل، لبثثت العشق الخفيّ فيه،

- وحينمـا تتبختـرين فى بستان الدّلال، تجعلين الشـجر الجاف يميس،

- ولو لمحـتك الغـزلان فى الصحـراء، لأزالت أهدابهـا الأشواك من طريقك،

- ولو نفـثت السـحـر من ياقـوت فـمـك السكرى، لاجتذبت من الهواء طيوره، ومن الماءأسماكه،

- فكيف تبـدين عـاجـزة، وأنت بهـذا الجـمـال؟ ولم تضعفين فى النهاية على هذا المنوال؟

٢٢١٠ - اتخذى من غمزتك سهما، ومن حاجبك قوسًا، واجعلى المحبوب الجذاب صيدًا،
- والوى من طرتك المجعدة أنشوطة، وضعى على قدميه رباطًا من شباك الوصال،
- وأظهرى له وجهك، ثم أديريه نحوك، واجعليه يجثو معك، ليطلع على أسرارك،
- وتبختري على هذا النحو المثمر، وردّيه إلى طريق الحنان بالمشية اللطيفة،
- واسكبى الشهد من شفتيك فى ابتسامة تجعله يلاصقك،
٢٢١٥ - وافتحى عينه بكرتك الفضية، واجعليه يلقى برأسه نحوك كالصولجان،
- وضعى على وجهك خالاً مسكيًا من القلب، وضعى فى قلبه جرح الشوق إلى خالك».
- فقالت زليخا: «أيتها الأم! ماذا أقول؟ وماذا أحكى عما يحدث من يوسف؟!
- إنه لا يتجه نحوى على الإطلاق، فكيف أتجلّى أمامه؟
- فلو صرّت قمرًا، لما نظر إلىّ من بعيد، ولو أصبحت شمسًا، لما تطلع إلى نورى على الأرض،

٢٢٢٠ - ولو أننى أزيد نور العين مثل الناس، لكان من العسير أن ينظر إلىّ،
- فلو يلقى نظرةً نحوى، ولو يطلع على حالى بين الفينة والفينة،
- ولو كانت أحزانى تستقر فى قلبه، لما وصل وجدى به إلى هذا الحدّ،
- إن مصيبتى ليست حسنه فحسب، ولكن بلواى فى عدم اكتراثه بى،
- فلو سعى الحبيب إلىّ، لما كان قليل الاكتراث بى بهذه الصورة».
٢٢٢٥ - فأجابتها المربية، مرة أخرى، قائلة: «يا من تستمد الشمس ضياءها من جمالك!
- لقد خطر ببالى خاطر، يستريح به قلبك!
- بيد أن هذه الفكرة تصبح مُيسّرة، حينما تجهزين حمل بعير من الفضة، وآخر من الذهب،
- فإنى أشيّد قصراً جذابًا، كأنه جنة إرم، وآمر أن يوجد به نقاش،
- وأن يرسم بحِسّه المتوقّد صورتك محتضنةً يوسف فى كل موضع فيه،

٢٢٣٠ - وحينما يستقر فيه لحظة، ويراك فى أحضانه حيثما سار،
- يتحرك فى قلبه عشق جمالك، ويطلب وصالك من أعماقه،
- فلما تتحرك المحبة من كل طرف، فإن مطلبك يتحقق على هذا النحو الذى ترغبين فيه»[1]
- ولما سمعت ذلك الكلام من المربية، منحتها حق التصرف فى كل ما كان عندها،
- من الذهب والفضة، فشيّدت به القصر.

[١] يوسف وزليخا، تفسير فارسى تربت جام. أبوبكر عتيق بن محمد سور ابادى. (سلسلة شاهكا رهاى ادبيات فارسى). ص٣٢ تهران - ١٣٤٣.

بناء المربية قصرًا صورت به جمال يوسف وزليخا (معًا)

٢٢٣٥ - يقول مشيّدو هذا القصر: إنه لما أقدمت المربية على البناء،

- أحضرت أستاذًا فنانًا، كل إصبع في يده به مائة فن،
- خبير في الرسوم الهندسية، مرشد في قوانين الفلك،
- ولما لم يكن بيديه فرجار، فقد اتّخذ من أصابعه فرجارًا،
- فالمجسطي في غاية السهولة من أشكاله، وإقليدس في هلع من شكوكه،

٢٢٤٠ - فلو برزت من طبعه رغبة في الخط، لاستقام معه أمره دون مسطرة،

- ولصعد بخفة أعلى العرش، وشيد القصور فوق إيوان زحل،
- وحينما كان يتجه صوب القادوم بيده، كان الحجر يستحيل أشدّ ليونةً من اللّبن الطري،
- ولما كان يشرع فكره في فن المعمار، فإنه كان يجّهز آلاف القواعد الجميلة،

- وكان قدأظهر عمارات الدنيا التى لا تحصى فى وجه ظفر واحد من أظافره،

٢٢٤٥ - وحينما كان يفكر فى صور الخلائق، فإنه كان يزيّن بقلمه صفحة الوجود،

- فكل ما كان يجريه قلمه من صور، كانت الحياة تدب فيه فى الحال،

- ولو أنه رسم صورة لطائر على حجر، لطار الحجر الثقيل من مكانه فى الحال،

- وكما أمرت المربية، بنى الفنان الماهر قصراً، وطلاه بالذهب،

- فشرفاته فى صفائها كصبح السعادة، وساحة حجراته كنز للآمال،

٢٢٥٠ - وقد بسطت فرشٌ مرمرية فى طرقاته، ونحتت أبوابه من الأبنوس والعاج،

- وكان بذلك القصر سبع حجرات[1]، وكأنها السماوات السبع، التى لا مثيل لها فى الدنيا،

[١] يقول الفخر الرازى «... غلقت سبعة أبواب ثم دعته إلى نفسها...».
تفسير الفخر الرازى جـ٥ ص ١١٩ - كما يقول الخازن... وغلقت الأبواب أى أطبقتها وكانت سبعة..». تفسير الخازن جـ٢ ص ٢٢٣.

- كل حجرة ملونة من لون آخر من الحـجارة، مصقولة وصافية، وحسنة اللون،

- والحجرة السـابعة كالفلك السابع، وتتضاءل فـيها كل الصور والألوان،

- وقـد رصّعت أعـمدتـه الأربعون بالذهب، ورسـمت أشكال الوحوش والطيور الجميلة عليها».

٢٢٥٥ - وأقيم على قدم كل عـمود غزال ذهبى، نافجتـه مليئة بالمسك الذكى،

- وساحتـه مليئة بالطواويس الذهبـية، وأذيالها مرصـعة لكأنما هى تتبختر،

- وبينها شجرة باسقة، لم تر العين الجوالة مثلها،

- فكان ساقهـا اللطيف من الفضة الخالصة، وأغـصانها من الذهب، وأوراقها من الفيروز،

- وكان على كل غصنٍ منها طـائر صنع بمهارة، أجنحته من الزمرّد، ومنقاره من الياقوت،

٢٢٦٠ - فهى بسم الله شجرة خضراء طيبة، لم تر الأحزان من رياح الخريف على وجه الإطلاق،

- تأنس كل طيـورها للآدميين، واستـقرت فى الصـباح والمساء فى موضع واحد

- وقـد صورّ المصـورّ فى كل مكان من القـصر صـورة ليوسف، وأخرى لزليخا،
- وأجلسهمـا معًا معشوقًـا وعاشقًا، متوائمـة روحاهما وقلباهما،
- ففى أحد المواضع جعل إحدى الصورتين تقبل الأخرى، وفى آخر جعل إحداهما تفك ثياب الأخرى،

٢٢٦٥ - فلو مرّ متفرجٌ أمامها، لجرى لعاب الحسرة فى فمه،
- وعلاوة على ذلك، فـقد كان سـقفه سـماءً، فى كل موضع منها قمر وشمس مضيئان،
- فهما قمرٌ وشمسٌ عجيبان، وذلك أن قلبيهما معًا، قد أطلاّ من فتحة قميص واحد،
- وكان وجه الجدار يبدو للنظر، وكأنه البستان النضر فى فصل الربيع،
- وعلى كل وردة من ورود أرضـه غُصنا وردٍ نضـران، يتعانقانِ معًا،

٢٢٧٠ - وقـد ازدهر فى كل مـوضعٍ من بـسـاطه، ونامت كل وردتين معًا فى مهد الدلال،
- وخلاصة الأمر أنه لم يترك أى موضع فى ذلك المكان خالٍ من هذين الحبيبين المدلّهين،

- فأينما ينظر الإنسان، تبدو له صورتهما في الحال،
- ولما أعد المنزل على هذه الصورة، زاد شوق زليخا إلى يوسف،
- فكان يتحرك بداخلها شوقٌ آخر من جديد، كلما نظرت إلى ذلك المتحف،

٢٢٧٥ - حقا! حينما يرى العاشق وجه الأحبة، فإنه بذلك يقرأ كلمة الشوق،
- فتتجدد ناره من تلك الكلمة، ويضحى أسيراً لجرح لا شفاء له.

طلب زليخا يوسف إلى ذلك البيت، ومطالبته بوصالها

- حينما تم بناء البيت بمجهود الفنان، شرعت زليخا فى تنسيقه،
- فزينت أرضه بأبسطة الحرير، وزادت جماله بعرش من الذهب،
- وعلقت به قناديل مرصعة بالجواهر، وخلطت الرياحين لتعطيره،

٢٢٨٠ - وقامت بكل ما يليق هنا، ونشرت بساط السعادة هناك،
- ولم يكن يلزم زليخا فى هذا المحفل شخص غير يوسف،
- حقا! ما أقبح الجنة فى عين عاشق وله، إذا خلت من وجه حبيبه.
- واستقر رأيها على طلب يوسف، وإجلاسه على عرش العزة والجاه،
- لتسعد بعشق جماله فى الخلوة، وتمتطى جواد الرغبة فى ساحة وصاله،

٢٢٨٥ - وتحقق رغبتها من ياقوته الذى يزيد العمر، وتحقق راحتها من طرته العنيدة،
- بيد أنها اتجهت، فى البداية، فزينت جمالها، وأرادت أن تستميل به قلب يوسف إليها،
- ولم يكن بها حاجة إلى ألوان الزينة، ولكنها أضفت بها رواجًالجمالها،
- فالورد مشهور بجماله فى البساتين، لكنه يزداد حسنًا بقطرات الماء،
- فمنحت بالمسحوق الأحمر لوجهها نضرة، ومنحت لرقتها شهرة فائقة،
٢٢٩٠ - وزيّنت حاجبها بالصبغة، فجعلت هلال العيد مثل قوس قزح،
- وعقصت شعرها المسكى، وعقدت بالمسك الصينى جدائلها الواحدة فى الأخرى،
- وأرخت جدائلها على ظهرها، فمنحت بذلك لوجهها الوردى حارسًا من العنبر،
- وكحلت عينيها بكحل الدلال، وشرعت فى إلحاق الأذى بالناس،
- ووضعت خيلانًا من العنبر الندّى فى عدة مواضع من وجهها، وكأنما كانت تعرض على الحبيب صورة حالها،

٢٢٩٥ - (قائلة): «لقد ألقى وجهك بالنار فى قلبى، فصارت روحى وقلبى (سذابًا) على تلك النار[١]،

- وخطت على وجهها القمرى خطًا أزرق طويلاً، عمر به جمال وجهها كما عمرت مصر بالنيل،

- ولم يكن ذلك خطًا أزرق على وجه القمر، بل كان سفودًا لأعين السوء،

- فكأنما رأت الماشطة تلك العين النرجسية الثملة، فنسيت مرود الكحل هناك،

- ولونت قبضتيها الفضتين بالخداع، لتخضع قلبه بتلك الحيلة،

٢٣٠٠ - ورسمت الماشطة المحنكة على راحتها صورةً تحضر بها الحبيب إلى راحتها،

- ولونت أظافرها العنابية، فشرحت للحبيب أخبار الدموع القانية،

- وأظهرت بالفن عشرة أهلة، فى ظهر القمر من جلباب الشفق،

- حتى يهبها هلالاً من قصر السعادة، يمنحها السرور فى عيد وصالها،

[١] سبقت الإشارة إلى كلمة «سپند» بمعنى: السذاب.

- وأبدت قـرطًا من جانب عـارضـها، فـقـرنت القمـر بالنجوم،

٢٣٠٥ - لتضـحى سعـادة الدنيا والدين قرينة لهـا، بحكم هذا القران،

- ولبست على صدرها ملابس جديدة كأنها البرعمة في جمالها النضر البهيج،

- وهيأت قميصًا على جـسدها، فملأت أذيال الياسمين بالورد،

- وجعلت ملابس غصن الـورد من الياسمين، ووضعت الياسمين في الطوق والورد في الأكمام.

- فلو دقـقت العين النظر، ما رأت إلا مـاءً شفافًـا على الشقائق والورود،

٢٣١٠ - فهـو ماءٌ عـجيب، استـقرت به سـمكتان من الفـضة الخالصة، وسكنتا عند الساعدين،

- وازدان ساعداها بألوان الجواهر، فبدوا كأنهما سمكتان مطوقتان بالذهب،

- فكان وجهها وساعداها يشهدان أن حـسنها يأخذ كل شيء من السماء إلى الأرض[١]،

[١] الترجمة الحرفية للشطر الثاني: «من القمر إلى السمك»، وتعني من السماء إلى الأرض.

- وحينما هيأت القميص على جسدها الرقيق، زينته بالديباج الصيني المزركش،
- وأقبلت دمية الصين متبخترة في الديباج بكل دلال،

٢٣١٥ - ووضعت تاجًا من الياقوت المتألق، والذهب الخالص على مسك شعرها،
- وأخذت تختال كالطاووس في ساحة القصر، بثوبها المرصع بالجواهر،
- وتتبختر والمرآة في يدها، وكانت تفكر في جماله، بينها وبين نفسها،
- ولما رأت صورة وجهها أمامها، وجدت عيا ر نقدها كاملاً،
- وجعلت قلبها خزانة للطرب لنقد حسنها، وطلبت مشتريًا ليبتاعه،

٢٣٢٠ - وأرسلت أحد الأشخاص في طلب يوسف، وبعثت بجواريها أمامًا وخلفًا
- وفجأة، دخل من الباب وكأنه القمر، في وقار عطارد وجلال الشمس،
- كأنما وجوده بعيد عن خواص الماء والطين، فجبينه وطلعته نورٌ على نور،

- وشعاع واحد منه يضىء العالم بأسره، وكلمة واحدة منه تعد أسطورة،
- فلما وقعت عين زليخا عليه، كأن شعلة قد وقعت فى الغاب شوقًا إليه،
٢٣٢٥ - وأخذت بيده قائلة: «يا طاهر السيرة! ومصباح عين أهل البصيرة!
- كم أنت - بسم الله - عبدٌ حسن، جدير بكل إحسانٍ ولطف،
- وإنى أرفع الرأس عاليًا بطوق منّتك، وأزهو بحسن عبوديتك!
- فأقبل، حتى أوفيك اليوم حقك، وأقضى لحظات فى شكرك،
- وأعزف الآن لحن إحسانك، حتى تردّده الخلائق، ما بقى الكون»،
٢٣٣٠ - وبمكر وخداع فاقا الحدّ، أدخلته إلى الحجرة الأولى من الحجرات السبع،
- وحين تجاوزت الباب الذهبى، أحكمت إغلاقه بقفل من الحديد،
- وحينما أغلق الباب، فكّت عقال شفتيها، وأظهرت السّر الدفين بقلبها،

- وقالت فى البداية: «يا أمنية روحى! يا من لا أعرف لروحىَ أملاً سواه!!
- لقد لاح لى طيفك فى منامى، فانتزع النوم من مقلتى منذ الطفولة،
٢٣٣٥ - وجعلتنى مجنونةً بهواك، أسيرة البيت من جرّاء عشقك،
- لا أفتح العين إلا لأراك، وأصبحت - من أجلك - شريدة فى وطنى،
- ولم أجد علاجًا للضياع، فتحمّلت فى أحزانك مرّ الأسى،
- والآن، أنا أنعم برؤياك، فإني فى وهدة اليأس لعدم اكتراثك،
- فدعك من التغاضى، وأدر إلىّ وجهك، وقل لى حتى كلمة بدافع الشفقة»
٢٣٤٠ - فأجابها يوسف، وهو منكس الرأس، قائلا: «يا من يقوم بخدمتك مثلى مئات الملوك!
- لتحررينى من قيود الغم، ولتسرّى عن قلبى بالحرية،
- فليس من المستحب أن أظل هنا معك، وأن نبقى منفردين خلف هذا الستار،

- فأنت مـوقد نار، وأنا قطعةٌ مـن القطن الجاف، وأنت ريحٌ صرصرٌ، وأنا نفحة من المسك،
- فـأنّى لهذا القطن أن يثـبت أمـام النار؟ وأنّى لنفحـة المسك أن تنازل الصرصر؟».

٢٣٤٥ - ولم تُجد هذه التوسلات مع زليخـا فتيلا، فانتقلت به وهى تتكلم إلى الحجرة الثانية،
- وأحكمت إغـلاقهـا بقفل آخـر، فتـحطم لذلك قلب يوسف حزنًا،
- وتوسلت زليخا، مرة أخرى، وأزالت النقاب عن السر الدفين،
- قائلة: «يا أحـلى من الروح! حتام هذا النـفور؟ إننى أضع الرأس تحت قدميك، فإلى متى هذا التمرد؟
- لقد أفـرغت الخزائن فديةً لـك، وجعلت متـاع العقل والدين فداءً لك،

٢٣٥٠ - آملةً أن تكون علاجى، وطوع أوامرى،
- لا أن تلوى الوجه عن طاعتى، وتذهب فى مـخالفتى كل مذهب».
- فأجابها: «لا طاعـة فى معصية، والحيـاة فى العصيان ليست من العبادة فى شىء،
- فكل عمل لا يرضى الله، هو ممنوع فى مقام العبودية،

- فلا كنت على معرفة بهذا العمل، و لاكانت لیدی القدرة عليه».

٢٣٥٥ - فاختصرا الكلام فی تلك الحجرة، مُتنقّلين إلى الحجرة الأخرى،

- وأحكمت زليخا على بابها قفلاً آخر، وأطلت القصة من صدرها فی ثوب جديد،

- وكانت تنقله من حجرة إلى أخرى، على هذا المنوال من الخداع والحيلة،

- فكانت تسرد فی كل مكان قصة، وتسوق فی كل موضع طرفة،

- ولم ييسّر لها ما تريد فی الحجرات الست، وظل نرد - رغبتها - حبيس الأركان الستة،

٢٣٦٠ - فأسرعت الخُطى به إلى الحجرة السابعة، باحثة فيها عن حل لمشكلتها،

- حقا! إنه لا مجال لليأس فی ساحة العشق، فكل ليل يعقبه نهار،

- فإذا لم يتحقق أملك من مائة باب، فلا ينبغی أن تمزّق كبدك يأسًا،

- وعليك أن تطرق بابًا آخر، عسى أن يتحقق مرادك منه فجأة.

إدخال زليخا يوسف الحجرة السابعة، وسعيها لتحقيق رغبتها، وفرار يوسف وبقاء زليخا نادمة

- وهكذا يتحدث الراوى من وراء ستار حجرة الأسرار هذه،

٣٣٦٥ - إنه حينما جاء دور الحجـرة السابعة، ناحت زليخا من أعماقها،

- قـائلة: «ضع يا يوسف قدمـيك على عـينى، وطأ - بدافع الرحمة - هذا الحرم المضىء».

- وجعلت له فى ذلك الحـرم السعيد مقـعدًا، وسلسلت قفله الحديدى بسلسلة ذهبية،

- فألفى حرمًـا خاليًا من الغرباء، تبـعد أطرافه عن أعين الحسّاد،

- بابه مـغـلق دون ذهاب الغـرباء وإيابـهم، ولا أمل للأصدقاء فى دخوله،

٣٣٧٠ - لا مـجال به لأحـد، سوى العـاشق والمعشـوق، ولا مجال للخوف من الحراس أو أذى العسس،

- فعلـى حين كان وجه المعـشوق فى زينـة الدلال، كان قلب العاشق يتغنى شوقًا[١]،

[١] يعنى بالمعشوق: يوسف عليه السلام، وبالعاشق: زليخا.

- وقد فتحت ساحة ميدان الرغبة، واضطرمت النار فى روح الطمع،

- ووضعت زليخا يدها فى يد الحبيب، وعينها وقلبها ثملان شوقًا إليه،

- وقادته متبخترة حتى حافة العرش، بكلمات حلوة تدخل السرور إلى قلبه

٣٣٧٥ - وألقت بنفسها فوق السرير، وقالت - لمن قامته كالسرو - وهى تبكى:

- يا وردى الوجنة! انظر إلى وجهى، وانظر بعين اللطف نحوى،

- فلو رأت الشمس وجهى، لاستمدت - كالقمر- ضوءها منى،

- فإلام يسرّك أن ترانى فى هذه المحنة، وتغلق عنى عين الرحمة؟».

- وهكذا كانت تكثر من شكوى روحها، وتظهر شوق قلبها إلى يوسف،

٣٣٨٠ - بيد أن يوسف كان ينظر إلى نفسه، ويطأطئ رأسه خوفًا من الفتنة،

- ونظر بعينه إلى أسفل فرأى صورته معها مصورةً على بساط الحجرة،

- وقد احتضن كل منهما الآخر، فوق سرير من الديباج والحرير،
- فغض عن تلك الصورة نظره فى الحال، وحوّل عينيه إلى مكان آخر،
- فلو نظر إلى الباب أو الحائط، لوجد من كالورد وجناتهما نائمين معًا،

٢٣٨٥ - فتطلع نحو السماء، فوجد فى السقف نفس الصورة،
- فزاد - بسبب ذلك - ميله نحو زليخا، ففتح على وجهها عينيه،
- فانتعش من تلك النظرة أمل زليخا، عسى أن تشرق الشمس على وجهها،
- وشرعت فى التأوه والبكاء والعويل، وأسبلت الأمطار من عينها وقلبها،
- (قائلة): «أيها المحب لذاته! حقق رغبتى، وداوِ آلامى بوصالك،

٢٣٩٠ - أنا ظمأى، وأنت ماء الحياة! وأنا قتيل، وأنت الروح الخالدة!
- وأنا فى بعدى عنك - يا كنزى البعيد المنال - قتيل بلا روح، وظمآن بلا ماء!

- ولقد عشت بسبب جرحك محمومة لسنوات، وحييت بلا طعام ولا نوم، شوقًا إليك!

- فلا تتركنى محمومةً أكثر من ذلك، ولا تحجب عنى الطعام والنوم هكذا،

- أقسمت عليك بحق ذلك الإله الذى هو رب الأرباب،

٢٣٩٥ - وبهذا الحسن المذهل، الذى منحك إياه، وبهذا الجمال الرائع الذى بثّه فى وجهك،

- وبهذا النور الذى يشع فى جبينك، فيطأطئ القمر أمامه رأسه،

- وبحاجبك الذى يطلق السهام، وبسروك الذى يجيد التبختر،

- وبمحراب قوس حاجبك، وبتموجات أنشوطة طرتك،

- وبسحر نرجسك الذى يفتن الناس، وبسروك المتّشح بالديباج فيمنح لملابسك جمالها،

٢٤٠٠ - وبتلك الشعرة التى تسميها خصراً، وبتلك البرعمة التى تدعوها فمًا،

- وبذلك الخال المسكى على وجهك الوردى، وبابتسامتك الحلوة، من فمك الضيق،

- وبدمع عيني شوقًا إليك، وبحرارة آهتى حرقة عليك،
- وبالحرمان الذى أنوء بأثقاله، ويأسرنى بسببه ألف حزن،
- وبسيطرة هواك على وجودى، وبعدم اكتراثك إن وجدت أوفنيت،
٣٤٠٥ - أن تشفق على حالى، أنا الولهانة، وأن تفك من أمرى العسير عقدته،
- فإن جرحك بقلبى، منذ زمن بعيد، وأشتهى من حديقتك عبيراً،
- فكن بلسمًا لجرح قلبى برهةً، وعطّر ببعض العبير بستان قلبى،
- فإنى عاجزة من قحط هجرك، فجد علىّ بقوت روحى من مائدة وصالك،
- فمنك، أيها النخل النضر، التَّمر، ومنّى الحليب، فلا تترك أى مجال للتقصير فى إعداد المائدة،
٣٤١٠ - واجعل من الحليب والتمر زادًا لروحى، وأنقذنى من الموت فى هذا القحط»
- فأجابها يوسف قائلا: «يا ملائكية الأصل! يا من يستحى من ذكر الملائكة فى حضرتك،

- لا تضيّقى علىّ أمرى اليـوم، ولا تضربى بالحجر على زجاج عصمتى!
- ولا تبلّلى ذيلى بماء العصيـان، ولا تحرقى جسمى بنار الشهوة،
- فقسـمًا بمن لا شبيه لـه، ذلك الذى صوّر الموجودات باطنها وظاهرها،

٣٤١٥ - وما السـماء إلا زبد فى بحر جوده، ومـا الشمس إلا شعاع من وميض نوره،
- وبأولئك الطاهرين الذين أنجـبونى، وورثت عنهم هذه الطهارة،
- ومنهم جوهرى المضىء، ونجمى المتألق،
- أنك لو أعفيتنى اليوم، وأخرجتنى من هذا المأزق
- فستحقـقين رغبـتك منّى سريعًا وتـرين آلاف الطاعة منى،

٣٤٢٠ - وتسعديـن من ياقوتى المطيل للعمر، وتنعـمين بقوامى الجذاب،
- فلا تتعـجلى نيل مآربك، فما أكـثر التأنى الذى يكون خيرٌ من العجلة
- فالصيـد المبارك الذى يقع فى الشبكة بعـد لأى، خيرٌ من صيد سريع غير مبارك فى النهاية».

- فقالت زليخا: «لا تطلب من الظمآن مقدرة تأجيل شرب الماء للغد،
- إن روحى قد بلغت الحلقوم اليوم شوقًا إليك، ولا أستطيع الصبر إلى مساء هذا اليوم،

٢٤٢٥ - ومتى تبدو لى تلك الطاقة، حتى أؤجل هذا الأمر لوقت آخر؟
- ولست أدرى ما يمنعك عن هذا العمل، فلا تستطيع أن تعيش معى لحظةً حلوة؟»
- فأجابها: «يمنعنى من ذلك شيئان: غضبة الله، وسطوة العزيز،
- فحينما يعرف العزيز هذه الطبيعة المعوجّة، فإنه يلحق بى مائة محنة ومذلّة،
- ويعرّى السيف بالصورة التى تعرفين، ويجرّدنى من ثوب الحياة،

٢٤٣٠ - وياله من خجل ذلك الذى يحيق بالزناة يو م القيامة!
- فيكتبون اسمى على رأس قائمة أولئك العصاة».
- فقالت زليخا: «لا تخف من ذلك الوغد، فإنه حينما يجلسنى أمامه يوم الطرب،
- سأعطيه كأسًا يزهق روحه، لا ينهض من سكرته حتى يوم القيامة!

- وأنت تقول إن ربى كريم، وهو دائمًا يغفر للمذنبين،

٢٤٣٥ - وعندى من الجواهر والذهب مائة خزانة دفينة، فى هذه الخلوة،

- وإنّى أفديك بها كلها من أجل ذنبك، حتى تنال من الله العفو!».

- فأجابها: «لست أنا ذلك الشخص الذى يسرّه أن يتحمل غيره وِزر أخطائه،

- وخاصة العزيز، الذى أمرك أن تكونى - على سبيل المعزّة - جارية لى

- وكيف أحصل على عفو ربى برشوة، وشكر أنعمه ليس فى مقدور إنسان؟

٢٤٤٠ - فكيف يحصل على رشوة فى الغفران من لا يتقاضى أجرًا على منح الحياة؟»

- فقالت زليخا: «أيها الملك السعيد الحظ! فليكن التاج والعرش ميسرين لك،

- لقد راشت قلبى سهام المحنة، من كثرة تعلاتك،

- فما العُذر إلا طريق معوج للخداع، وليس طريقًا للخلاص،

- معاذ الله أن أسير فى طريق معوجّ، فأسمع منك هذه الحيلة مرة أخرى،

٢٤٤٥ - لقد فاض بى الوجد، فجد على بالراحة، وحقّق لى رغبتى، شئت أم لم تشأ،
- لقد انقضت أيامى فى الكلام، ولم يتحقق بعد مرادى منك،
- فأمسك لسانك عن هذه الخرافات، وتحرّك من مكانك فإن فى التأخير آفات،
- لقد اضطرمت النار فى قصبى الجاف، أما أنت فتدخل حرقتى على قلبك السرور،
- وأى نفع يعود علىّ من دخان هذه النار، مادام لا يسيل فى عينيك دمعة!
٢٤٥٠ - وأنا شبيهة بدخان هذه النار الملتهب، فتعال واسكب قطرةً على نارى؟»
- فلما أتمت زليخا هذه الأسرار، شرع يوسف فى تعلل آخر،
- فقالت زليخا: «يا أيها العبرانى! يا من أضعت وقتى فى الكلام!
- لا تصفع بيد الرفض وجه مرادى، وإلا قتلت نفسى بيدك،
- وعلّق يدك فى رقبتى سروراً، وإلا أطحت بها بالخنجر سريعًا،

٢٤٥٥ - وإذا لم تعلق يدك فى رقبتى، أصبح دمى معلقًا فى رقبتك،

- وأغمد خنجرًا شبيهًا بالسوسن فى جسدى، وأخضّب قميصى كالوردة بالدم،

- وأضع جرح الفراق من الروح على جسدى، وأتخلص بذلك من أعذارك،

- وحينما يجدنى العزيز قتيلاً أمامك، فإنه سيقتلك،

- وبعد أن يقتلك ويواريك التراب، تتحدبك هذه الروح الولهة».

٢٤٦٠ - قالت هذا وسحبت خنجراً أخضر من تحت السرير، كأنه ورقة الصفصاف،

- بيد أنها كانت فى حمّى وحرارة من نار الغم، فحملت قطرة الماء تلك إلى حلقها الظمآن،

- فلما رأى يوسف ذلك نهض من مكانه وأمسك بمعصمها كالعقد الذهبى،

- قائلا: «اهدئى من هذه العجلة، يا زليخا، كفّى عن الخطو فى هذا الطريق،

- فسوف ترين وجه مرادك منى، وتصلين إلى ما تتمنين بوصالى»

٢٤٦٥ - فلما رأت زليخا - قمر السماء الجذاب - ذلك العطف من يوسف،

- ظنت أنه سيحقق رغبتها، ويمنحها الراحة بوصاله،

- وفى الحال ألقت الخنجر من يدها، وفكرت فى طريقة أخرى، لوصاله،

- فملأت شفتها بفمه الحلو، واتخذت من ساعدها طوقًا، ومن ساقها منطقة له،

- وجعلت من روحها هدفًا لسهمه، ومن جسدها صدفًا، شوقًا لجوهره،

٢٤٧٠ - إلا أن يوسف لم يصوب سهمه إليها، ولم يحطم خذع صدفها طلبًا للجواهر،

- وكانت زليخا شديدة الإلحاح فى طلبها، ولكن يوسف كان يضع العراقيل فى الطريق[١]،

- وقد وقع بصره فجأة - وهو وسط هذه الأحداث - على ستار مزركش فى ركن الحجرة،

[١] قمت بحذف ترجمة البيت الذى يليه لبعده عن الذوق.

- فسألها قائلاً: «لم هذا الستار؟ ومن ذلك المستتر وراءه؟».

- فقالت: «إن ذلك الشخص هو الذى أدين له بالعبودية ما حييت،

٢٤٧٥ - إنه صنم جسمه من الذهب، وعيناه من الجواهر، وباطنه صندوق مليء بالمسك الخالص،

- أخر ساجدةً أمامه كل ساعة، فأطأطئ رأس الطاعة له،

- وقد جعلت من باطن الستار له مقرًا، حتى لا ينظر إلى،

- ولا يرى منى صورة الإلحاد، ولا يرانى فى مثل تلك الحالة التى ترانى عليها»

- وحينما سمع يوسف هذا الكلام صاح قائلاً: «إنى لا أمتلك دانقًا من دينار حيائك!!

٢٤٨٠ - إن الخجل يصيبك مما لا حياة فيه، ويعترى خاطرك الحياء من هذا الجماد،

- فكيف لا أخاف البصير العليم؟ وأنّى لى ألا أهاب القيوم القادر؟»[1]

[١] اقتبس الشاعر مضمون الأبيات السابقة من بعض كتب التفسير التى تناولت بالشرح قوله تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾. سورة يوسف الآيتان ٢٣ و ٢٤ =

- قال هذا وهبّ واقفًا، ونهض عاقلا من ذلك المضجع الحلو،
- وأبعد قوامه الباسق - الذى يشبه الألف - عنها، وخلّص نفسه منها،
- وحينما أسرع هاربًا شقّ طريقًا من كل باب،

٢٤٨٥ - وكلما اقترب من باب وجده مغلقًا، فكان القفل فى مكان والمزلاج فى آخر،
- فأشار إليه بأصابع يده، فكأن بقبضته مفتاحًا يفتحه،
- فلما رأت زليخا هذا وثبت خلفه ولحقت به فى الحجرة الأخيرة،
- وشدت قميصه لإرجاعه، فقدّته من دبر،[1]
- وأفلت من قبضة تلك الحزينة، كبرعم ممزّق القميص،

٢٤٩٠ - فشقت زليخا ثيابها بسبب تلك الخسارة، وألقت نفسها على الأرض كالظل،

= يقول البغوى فى تفسير كلمة «البرهان»: «كان فى البيت صنم فقامت المرأة وسترته بثوب،فقال لها يوسف: أتستحين مما لايسمع ولا يبصر ولا يفقه، فأنا أحق أن أستحى من ربى، وهرب...». تفسير البغوى. ص ٤٣٢ (على حاشية تفسير ابن كثير) الجزء الرابع - القاهرة ١٣٤٦- أما الفخر الرازى فيقول: (.... قالوا إن المرأة قامت إلى صنم مكلل بالدر والياقوت فى زاوية البيت فسترته بثوب، فقال يوسف لم فعلت ذلك؟ قالت أستحى من إلهى هذا أن يرانى على معصية، فقال يوسف أستحين من صنم لا يعقل ولا يسمع ولا أستحى من إلهى القائم على كل نفس بما كسبت، فوالله لا أفعل ذلك أبدا، قالوا فهذا هو البرهان». تفسير الفخر الرازى. جـ ٥ - ص ١٢٣-١٢٤.

[١] تأثر الشاعر هنا بقوله تعالى: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ سورة يوسف. آية (٢٥)

- وأطلت صيحة من قلبها الحوين، وولولت من شدة حزنها،
- (قائلة): «ويلاه من تعاسة الحظ، فقد حمل ذلك الحبيب من منزلى رحاله،
- واحسرتاه! على الصيد الذى أفلت من شراكى! وأسفاه على ذل الشهد الذى حرم منه فمى!
- فقد عزم عنكبوت، ذات يوم، أن يحصل على قوته،

٢٤٩٥ - فرأى صقرًا ملكيًا جالسًا فى أحد الأماكن، وقد أفلت من قيد الملوك،
- فشرع فى النسيج من حوله، كى يشل ريشه وجناحيه عن الطيران،
- وظل يواصل عمله زمنًا، حتى أنفد فيه كل لعابه،
- فكلما طار الصقر بعيدًا عنه، لم يترك له إلا بضعة خيوط ممزقة،
- فأنا ذلك العنكبوت العاجز المسكين، الذى هوى بعيدًا عن مراده،

٢٥٠٠ - وقد تمزقت عروق روحى كخيوطه، إذ لم يصبح طائر الأمل له صيدًا،
- وتمزقت أوصالى من كل حيلة، ولم يبق فى يدى سوى خيوط ممزّقة».

لقاء العزيز يوسف خارج ذلك المنزل، وكتمان يوسف ما حدث بينه وبين زليخا وإفشاؤها ذلك الأمر

- هكذا رسم القلم صور هذه الحكاية: أنه عـندما خرج يوسف من المنزل،
- صادفه العزيز خارجه، ومـعه حشد من خواص منزله كذلك،
- فلما رأى العزيز اضطراب حاله، استفسر منه عن سرّ اضطرابه،

٣٥٠٥ - فأجابه بمزيد من الأدب، بعيداً عن الاتهام، وإفشاء السّر،

- فـأمسك الـعزيز بيـده بحنان، وأدخله عند مـلائكيـة الوجه تلك،
- فلما رأتهـما مـعًا، قالت لنفـسها: «لـعل يوسف قد أخبره بما بدر منّي»
- وبُمقـتَضَى ذلك الظن صاحـت، وأزاحت النقاب عن وجه ذلك السّر،
- فقـالت: «يا ميـزان العدل! مـا جزاء من يعـيش مع

أهلك على غير دين الوفاء؟

٢٥١٠ - وانساق فـى غيّه دون تفكيـر، وارتكب الخيـانة خلف هذه الأستار؟»

- فأذن لها العزيز بمواصلة الكلام قائلاً: «قـولى الحقيقة يا ملائكية الوجه، من فعل هذه الفعلة الشنعاء؟»

- فأجـابته: «هذا العـبد العبـرانى الذى رفع الرأس منذ البداية بلطف بنوّتك،

- ذلك أنى كنت قـد نمت مـستـريحـة فى هذه الخلوة، ونفضت قلبى من غبار الأحزان،

- فتسلّل إلى رأس وسادتى كـاللصوص ليسطو على كنز وصالى،

٢٥١٥ - واتخـذ طريقه إلى بسـتانى السـعيـد، ظنًا منه أنّى لن أحسّ بوجوده،

- ولم يكن فى حـاجة إلى إذن البـسـتانى ليـغيـر على السنبل والورد،

- وحينما مدّ ذلك المتهوّر يده، ليسطو على كنز وصالى،

- اسـتـيقظت مـن نومى العمـيق، وأفـقت من كـأس اللاوعى،

- فأصابه الهلع ليقظتى، ولاذ بالفرار من حضرتى،

٢٥٢٠ - وولى وجهـه صوب الباب خـجلاً، مغلقًـا الباب فى

وجه سعادته،

- فجريت خلفه مسرعةً، ولحقت به، ولما يضع قدمه خارج الباب،

- وأمسكت بقميصه، بخفة ومهارة، فتمزق قميصه تمزّق الوردة،

- وقميصه الممزّق، فاغرٌ فاه، شاهدًا على صدق أقوالى،

- فمن الخير أن تلقى به - الآن - فى السجن زمنًا كالمنحرفين،

٢٥٢٥ - أو أن تؤذى جسده وقوامه الرقيق، حتى يتألم،

- وتدخل السرور على نفسه بهذا العبء الثقيل، كى يكون عبرةً لأمثاله(١)

- فلما سمع العزيز هذا الكلام، لم يتمالك نفسه،

- وأدار قلبه عن طريق الاستقامة، واتّخذ من لسانه سيفًا للّوم،

- وقال ليوسف: «إننى حينما أحصيت الجواهر لابتياعك، أخليت مائتى كنز،

[١] اقتبس الشاعر مضمون هذه الأبيات من قول الله تعالى: ﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾. سورة يوسف. آية (٢٥)

٢٥٣٠ - واتخذتك بعد ذلك ابنًا، ورفعت من مكانتك إجلالاً لك،

- وطلبت من زليخا أن تخلص لك الودّ، وأمرت الجوارى أن يخدمنك،

- وصار الغلمان حلقة فى أذنك، وباتوا جميعا يتسابقون فى الوفاء لك،

- ومنحتك حرية التصرف فى أموالى، ولم أُوذ قلبك فى أمرٍ من أمور الدين،

- ولم يكن ما صنعته مما يُجيزُهُ العقل، سامحك الله، فما أسوأ ما صنعت!!

٢٥٣٥ - فلا يليق - فى دنيا الآفات هذه - جزاء أهل الإحسان إلا بالإحسان،

- ولقد رأيتَ الإحسان، وأظهرت الكفران، وتمردّت على النعمة،

- وحملت متاعك من حىّ الشكر، وطعمت الملح وكسرت المملحة»

- فقال له: «أيها العزيز! إلامَ هذه المحاكمة؟ لا تسئ إلىّ بذلّة لا ذنب لى فيها،

- إن كل ما تقوله زليخا محض افتراء، وكذبها سراج بغير ضياء!

٢٥٤٠ - لقد خلقت المرأة من الكتف الأيسر، ولم ير إنسان من شماله خيراً،

- ويدرك كل من يعرف الشمال واليمين، أن من الصعب إيجاد اليمين من الشمال،

- إنها تلاحقني منذ رأتني، لتحقق رغبتها مني،

- فتدخل من ورائي تارة، ومن أمامي أخرى، وتدعوني إلى نفسها بمكرٍ واحتيال،

- بيد أني لم أفتح عيني إطلاقًا عليها، ولم أضع عيني على مائدة وصالها،

٢٥٤٥ - فمن أكون أنا حتى أطأ بقدمي في حريمك، مع ما تَتَمتّع به من خلق كريم؟

- فياله من عبد سيئ ذلك الذي يجلس على عرش مولاه حينما لا يراه،

- لقد كانت بقلبي جراح الغربة، وكنت في خلوتي بعيدًا عن الخلائق،

- فأرسلت زليخا رسولاً إليّ، وفتحت أمامي مئات الأبواب للتفكير،

- فأرسلت زليخا رسولاً إليّ، وفتحت أمامى مئات الأبواب للتفكير،

- وخدعتنى بكلامها المعسول، وحملتنى على صحبتها فى تلك الخلوة،

٣٥٥٠ - وطلبت منى قضاء حاجتها، بيد أن الهدوء والطمأنينة تركانى،

- فجريت صوب الباب هربًا منها، ووصلت إليه يتملكنى الاضطراب،

- فأمسكت بظهر قميصى، فقدته من دبر،

- ولم يحدث بينى وبينها سوى ذلك الأمر، ولا شيء أكثر من ذلك

- فإذا لم تلق براءتى هذه عندك قبولا، فاصنع -بسم الله - بى كل ما تريد[١]

٣٥٥٥ - فلما سمعت زليخا هذا الكلام، أقسمت بالله - بادئ الأمر - أنها طاهرة،

[١] صور الشاعر هذه الأبيات التى يدافع بها يوسف عن نفسه متأثراً بقول الله تعالى: ﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي... ﴾ سورة يوسف. آية (٢٦).

- وأقسمت بعد ذلك أقسامًا أخرى، بمفرق ملك مصر وعرشه وتاجه،
- وبسعادة العزيز وعزه وجاهه، وحظه الذى قربه من الملك،
- حقا! حينما تنعقد الدعوى، فلا دليل لمن لا دليل له سوى القسم،
- فالأيمان الكثيرة تكشف عن الأفكار الكاذبة للحالف،

٢٥٦٠ - وبعد القسم، سكبت من عينيها الدموع (قائلة): إن يوسف هو الذى أثار هذه الفتنة منذ البداية».
- إن قنديل الكذب الذى تضيئه المرأة لا زيت له سوى دموع الخداع،
- فلو أضاء مصباحه بهذا الزيت، لأحرق عالمًا فى ساعة،
- فلما رأى العزيز ذلك البكاء وتلك الأيمان، طوى بساط الإنصاف،
- وأشار إلى أحد الحراس أن يعرك بالمضراب - فى الحال - روح يوسف،

٢٥٦٥ - وأن يؤذى وتر روحه بالحزن، ويمحو سمات الارتياح من جسمه،
- وأن يلقى به فى السجن زمنًا، إلى أن يتضح هذا السرّ الدفين.

حمل الحراس يوسف إلى السجن، وشهادة طفل رضيع ببراءته وعفو العزيز عنه

- حينما أمسك الحارس يوسف، واتجه به إلى موئل المحنة،

- ضاق قلب يوسف بذلك الألم، ورفع أكف الدعاء - خفية - نحو السماء،

- قائلاً: «يا عالم الأسرار الخفية، ومعرفة الغيب من خصوصيّاتك!

٢٥٧٠ - والكذب ينماز عن الصدق أمامك، ومن يعرف هذه الأسرار غيرك؟

- كما منحتنى شُعاعًا من نور الصدق، لا تضع فوق كاهلى تهمةً بكاذب الأقوال،

- وأقم شاهدًا على صدق دعواى، فإن صدقى بيّن أمام عظمتك».

- فأصاب سهم دعائه الهدف من بنان همّته الفاتح للكون،

- إذْ كان في ذلك المحفل امرأة من أقارب زليخا، ممن
كن يلازمنها ليل نهار

٢٥٧٥ - وكان على كتفها طفل رضيع في شهره الثالث،
أطبقت عليه حضنها كروحها،

- وكأنه السّوسنة، لم تجرِ كلمة على لسانه، ولم يقرأ
كلمة في كتاب البيان،

- فصاح قائلاً[١]: «تمهّل أيا العزيز! وخذ حذرك من
الإسراع في العقوبة!!

[١] يبدو أن الشاعر تأثر هنا بما أوردته كتب التفسير لقول الله سبحانه وتعالى. «... وشهد شاهدٌ من أهلها ...»: إذ يقول الطبري «فإن أهل العلم اختلفوا في صفة الشاهد، فقال بعضهم كان صبيًا في المهد، ذكر من قال ذلك: حدثنا ابن وكيع قال حدثنا العلاء بن عبد الجبار عن حماد بن سلمه عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: «تكلم أربعة في المهد وهم صغار: ابن ماشطة فرعون، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وعيسى ابن مريم....»

تفسير الطبري. حـ ١٢ ص ١٠٧- والبيضاوي. ص ٣١٢- البغوي حـ٤ ص ٤٢٣-٤٢٤ على حاشية تفسير ابن كثير وكذلك: ابن كثير حـ ص ٤٢٤، والفخر الرازي حـ٥ ص١٢٥. وقد جاء ذكر هذا الشاهد كذلك في فتح الباري. «..... وأخرج الحاكم نحوه من حديث أبي هريرة....، ووقع ذكر شاهد يوسف أيضا في حديث عمران بن حصين لكنه موقوف، وروى ابن أبي شيبة من مرسل هلال بن يساف مثل حديث ابن عباس إلا أنه لم يذكر ابن الماشطة... على أنه اختلف في شاهد يوسف فقيل كان صغيراً، وهذا أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس وسنده ضعيف، وبه قال الحسن وسعيد بن جبير وأخرج عن ابن عباس أيضاً ومجاهد أنه كان ذا لحية، وعن قتادة والحسن أيضا كان حكيماً من أهلها....».

فتح الباري في شرح صحيح البخاري. حـ ٦ المكتبة السلفية بالقاهرة.

- إن يوسف لا يستحق العقاب، بل إنه خليق بالعطف والحنان».

- فتعجب العزيز من كلام الطفل، واستطرد يكلمه متأدبًا،

٢٥٨٠ - وقال له: «يا من لم تغسل شفتيك مِن بقايا اللبن، لقد علّمك ربى حسن البيان،

- فأبِن لى عمن أشعل هذه النار، فأحرق بها حجاب عزّتى وشرفى»

- فأجاب: «إنى لست نمامًا ولا غمازًا، حتى أحكى لشخصٍ أسرار آخر،

- إن مسك الصين قد اسودّ وجهه من الغمز، وذلك لأنه يشى بنفسه من خلف مئات الأستار،

- فتأمل ورود الربيع النضرة، كم هى ضاحكة ولطيفة، لاحتجابها خلف الأوراق،

٢٥٨٥ - ولست مغتابًا، ولكن مادمت تريد أن تعرف، فإليك هذا السرّ الدفين،

- اذهب، وألقِ نظرةً على حال يوسف، وتبيّن كيف تمزّق قميصه،

- «فإن كان قيمصه قدّ من قبل، تكن زليخا طاهرة الذيل

- ولا يكون لدعوى يوسف نصيب من الصحة، ويتعلل بالكذب لتبرئة نفسه،

- «وإن كان قميصه قد قــدّ من دبر»، فقد برئت ساحته من الخيانة،

٢٥٩٠ - ويكون قـول زليخـا كـذبًا، ولم تسلك مـعك سبـيل الصدق[1]

- وحينمـا سمع العزيز كلام الطفل، تفـحّص فى الحال حالة القميص،

- فلما رآه ممزقا من دبر، صبّ لومه على تلك الماكرة،

- قائلا: «لقـد أدركت أن الكيد كيدك، وأن القـيد على هذا البرئ قيدك،

- فأى كـيد ذلك الذى قمت به أخيـرًا، وأى سوء ذلك الذى صنعته بنفسك فى النهاية؟

٢٥٩٥ - وتجاوزت طريق شرفك وسمعـتك، فصرت راغبة فى عبد من عبيدك،

- واستـساغت نفسك هذا الجرم، ثم ألقـيت بوزره بعد ذلك عليه،

[١] اقتبس الشاعر مضمون هذه الأبيات من آراء المفسرين لقوله تعالى. ﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ سورة يوسف. آية (٢٦، ٢٧).

- إن قلب الأبطال لينفطر من كيد النساء، إن كيدهن عظيم[1]»

- فكيدهن يذل الأعزةّ، ويأسر العلماء،

- فلا كان أحد عاجزًا بسبب كيدهن، ولا كانت فى العالم امرأة ماكرة،

٢٦٠٠ - فاذهبى، واعكفى على الاستغفار، وليلتصق وجهك بالحائط خجلاً،

- واجعلى مجلسك مبللاً بالدموع، واغسلى بها صحيفتك من هذه الكلمة الخبيثة،

- أما أنت، يا يوسف، فأمسك لسانك عن الحديث فى هذا الأمر، ولا يسرّك قول هذا السرّ لكلّ شخص،

- وحسبنا مهارتك فى الكلام، فقد ظهرت لنا براءتك،

- وطأ بقدميك بعيدًا عن طريق الغمز، فإن لابس الحجاب خيرٌ من ممزقه[2]»

٢٦٠٥ - قال العزيز هذا، وخرج من المنزل، فذاع صيته فى الدنيا بحسن طبعه،

[١] تأثر الشاعر هنا بقول الله تعالى. ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾. سورة يوسف. آية (٢٨).

[٢] تأثر الشاعر هنا بقوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ سورة يوسف. آية (٢٩).

- فالصبر مرغوب فيه، وحسن الطباع جميل، إلا أن يصل إلى هذا الحدّ،
- فحينما يتهاون الرجل مع امرأته - بحسن الطبع - فإن الأمر يتحول إلى سوء خلق،
- فلا تصبر للمرأة إلى هذا الحدّ، وإلا تصدّع جدار الغيرة.

شروع نسوة مصر فى الحديث، وإطلاق ألسنتهن بالطعن على زليخا، وقطع أيديهن وألسنتهن بسيف العشق

- إن ركن السلامة لا يلائم العشق، فما أطيب الفضيحة فى حى الملام!

٢٦١٠ - فتباريخ العشق يجددّها اللوم، وتزيدها الضوضاء شهرة،

- فاللوم حارس سوق العشق،وهو الذى يجلو صدأه،

- وألوان اللوم فى العشق من كل جانب، هى سياط لضعاف الأجسام،

- فحينما يكون الحصان المسافر وئيد الخطى، فإنه يسرع خطاه بذلك السوط،

- فلما تفتحت زهرة أسرار زليخا هذه، وغردت بطعنها بلابل الكون بأسره،

٢٦١٥ - وعلمت نساء مصر بذلك، فكن جميعًا لائمات،

- وتعقّبن زليخا بكل حسن وقبيح، وسلّطن عليها سياط اللوم،

- وقلن: «لقد تخلت عن كل ألوان الشرف والشهرة،
وفُتن قلبها بعبد عبرانى،
- وسكن حبّه شغاف قلبها، حتى نفضت يدها من الدين والحكمة،
- وياله من ضلال عجيب، أن تميل إلى عبدها،
٣٦٢٠ - وأشدّ عجبا منه، أن ينفر العبد منها، ويبتعد عن مواءمتها ومسامرتها،
- ولا ينظر إليها فى وقت من الأوقات، ولا يسير معها فى طريق،
- فأينما تذهب، فإنه يتوقف، وأينما تتوقف، فإنه يختار المسير،
- وحيثما تكشف النقاب عن وجهها، فإنه يسمّر على عينيه أهدابه،
- ويضحك من كل حزن يبكيها، ويغلق كل باب تفتحه
٣٦٢٥ - فهى بالتأكيد ليست جميلة فى نظره، ومن ثم فإن قلبه لم يمل إليها،
- فلو أن ذلك الحبيب يجلس معنا بعض الوقت، لما جلس وحيدا بعيداً عنا،
- ولما سلك طريق النفور منا، ولحقق لنا رغبتنا ورغبته،

- فليست لأى إنسان قدرة على القبول، إذ ليس ذلك في يديه،

- فما أكثر ذوات الوجوه الجميلة والطباع الحسنة، اللائى لايميل طبع الناس إليهن،

٢٦٣٠ - وما أكثر من هن حلوات الدلال مثل ليلى، تتفجر دماء القلوب ينابيع من أجلهن».

- فلما سمعت زليخا هذه الحكاية، أرادت أن تفضح أمر هؤلاء الكاذبات،

- وأمرت فهيأوا في الحال محفلا، دعت إليه نسوة مصر،

- وأى محفل هذا؟ إنه مجلس ملكى، يحتوى آلاف النعم واللطائف،

- وألوانا من الأشربة الصافية، وكأنها النور الممزّق للظلام،

٢٦٣٥ - وكئوسًا بللورية، مترعة بماء الورد الممزوج بالعطر،

- مهبط الشمس مما به من موائد ذهبية، وكأن الأقداح الفضية برج مليء بالنجوم،

- فطعامه، بنكهته ورائحته اللذيذة، من تلك الأقداح والموائد، قوت للجسم وقوة للروح،

- ففيه من الأطعمة كل ما يشتهى، فقد كدسوا من الطيور ما جاوز قمر السماء،
- واقترضت الحسان من شفاههن سكرًا، ومن أسنانهن لوزًا ليكون حلوى هذا المجلس،
٢٦٤٠ - وكان بناء قصر حفلها لذيذا مما به من ألواح الحلوى المختلفة الألوان،
- وألقوا آلاف القوالب من الفالوذج السكرى ليفْرِشَ ساحته،
- ولم تدع الجميلات - بشفاههن الحلوة - مكانًا للوزينج فى أفواههن،
- ولما أضحى اللّوزينج طالبا للذة شفاههن، جرى اسمه على ألسنتهن بعدم جدواه،
- فمن الفواكه الطازجة ما هو ندى ونادر، لكأن البستانى قد ملأ السّلال ماءً،
٢٦٤٥ - ولم يجل بفكر أى مشاهد للعجائب، أن يرى سلةً تخرج وهى مليئة بالماء على هذا النحو،
- والجوارى والغلمان مسرعون فى كل ناحية، يتبخترون فى الخدمة كالطواويس،
- وفى حلقات، جلست ملائكيات الوجوه من المصريات على فُرُشٍ ذهبية،

- وأكلن من كل مائدة كل ما طاب لهن، وفعلن كل ما يليق بهن من الأعمال،
- ولما رفعت المائدة، طفقت ألستهن تشكر زليخاوتثنى عليها،

٢٦٥٠ - فوضعت زليخا، بطبعها المحتال المتفنن، برتقالة وسكينًا على يد كل منهن،
- بحيث كانت السكين الحادة فى أحد الكفّين، والبرتقالة فى الكف الأخرى،
- برتقالة صفراء فاقع لونها، علاج لمرض الصفراء،
- ثم قالت لهن: «أيتها الجميلات! يا من تصدّرتن مجلس الحسن،
- لماذا تنفرن بهذه الصورة من رغبتى، فتلمننى فى عشقى غلامى العبرانى؟

٢٦٥٥ - ولو ملأتن عيونكن بنوره، لعذرتنّنى برؤيته،
- فلو سمحتن، أخرجته لكن، وصرت أنا مرشدته لهذا الغرض»
- فأجبنها جميعًا: «لا رغبة لنا فى كل ما دار من كلام إلا رؤيته،
- فمريه يخرج متبخترًا، ويجرر أذياله دلالاً فوق رءوسنا،

- فنحن مشتاقات له من صميم قلوبنا، ونحن عشاق
وجهه دون أن نراه،

٢٦٦٠ - إن البرتقالة التي وضعتها على أكفنا، والتي هي علاج
لمرضى الصفراء،

- ليس مستحبًا قطعها في غياب وجهه، ولن تقطعها
واحدة حتى يجيء».

- فأرسلت زليخا المربية إليه قائلة: «طف بنا أيها السّرو
الباسق،

- وطأ بقدمك خارجًا، حتى أخرّ على قدمك، وأرتمى
أمام قامتك الفارعة،

- إن منزل أحزان القلب موئل لك، فأقبل كي تصبح
العين بساطًا على طريقك،

٢٦٦٥ - فلم يخرج يوسف بقول المربية، ولم يزدهر كالوردة
من سحرها،

- فاتجهت زليخا إليه بنفسها، وجثت على ركبتيها
أمامه، في تلك الحجرة،

- وقالت له متضرعة: «يا نور عيني، ويا أمل قلبي الحزين!

- لقد منيّتني بالأمل في وصالك في البداية، ثم آل
أمري إلى يأس في النهاية،

- وقد لحق بى العار بين الناس بسببك، وصرت مضغة في أفواه الخلائق من جرّائك،

٢٦٧٠ - وقد افترضت أنى ذليلة فى نظرك، وأنه لاوزن لى فى مجلسك،

- فلا تعرضّنى للخجل بالذّلة وقلة الاعتبار، أمام سيدات مصر،

- إن قلبى الجريح قد طعم الملح من شفتيك، وانسكاب الملح عليه من عمل فمك،

- فلا تسلك سبيل الشك فى وفائى، وصُن حقّ هذا الملح»

- فرقّ قلب يوسف للخروج، بسبب الأنفاس الحارة لتلك الساحرة،

٢٦٧٥ - ونهضت كالريح لتهدئته، فزينته كالسروة بحلة خضراء،

- ودلّت طرته المعنبرة أُمام حلته، وكأنها العنبر الندى،

- حتى ليخيل إليك أنها حيّةٌ من المسك، قد لفّت نفسها حول أجمة خضراء،

- وزيّنت خصره النحيل - الذى يشبه الشعرة - بمنطقة ذهبية،

- وإنى لأعجب كيف تحمل ذلك الخصر كل تلك الجواهر واليواقيت الثمينة،

٢٦٨٠ - ووضعت على رأسه تاجًا مرصعًا بالجواهر، تتجلّى الرقة من كل جوهرة فيه،

- ووضعت فى قدمه حذاء مليئا باليواقيت، وربطت عليه رباطًا من سلاسل الدّر،

- وجعلت من عباءته القصبية خمائل، ربط بكل خيط من خيوطها مائة روح ومائة قلب،

- وأعطته إبريقًا ذهبيةً فى يده، وسيّرت خلفه جارية متشحةً بالذهب،

- وفوق راحتها إناء من الفضة الخالصة، تبعته كظله خطوة خطوة،

٢٦٨٥ - فكل من رآه وهو بتلك الخفة والرشاقة، غسل يده من روحه الحلوة منذ البداية،

- ولا أستطيع وصفه بعد هذا الكلام، فقد كان فوق كل وصف يخطر ببال،

- وخرج ذلك الكنز المحتجب من بيت الخلوة، كروضة مزدهرة،

- وجنت نساء مصر، اللائى رأين تلك الروضة،زهرة رؤية من وروده،

- وبنظرة واحدة أفلت الأمر من أيديهن، وضاع زمام الاختيار منهن،

٢٦٩٠ - وبقين في حيرة من جمال صورته، وظللن من الحيرة أجسادًا بلا أرواح،

- وحين تمنت كل منهن أن تقطع برتقالتها، وهي على تلك الحالة من النظر،

- لم يفرقن بين البرتقال وأيديهن، وشرعن في قطع أيديهن،

- وصنعت إحداهن بالسيف من أصابعها قلمًا، وكتبت على قلبها كلمة الوفاء له،

- فهو قلم، لو أنه يبارز السيّف لسال الزنجفر من كل عقدة فيه،

٢٦٩٥ - وصنعت أخرى من راحتها صفحة فضيّة، وسحبت عليها جدولاً أحمر كالتقويم،

- وسيّرت في كل جدول سيلاً من الدماء، وقد تجاوز هذا السيل حدوده،

- فلما رأين أنه ليس إلا جوهرًا عاليًا، علت صيحة منهن: «ما هذا بشرًا»(١)

(١) تأثر الشاعر في الأبيات السابقة بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٠) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ سورة يوسف. آية (٣٠، ٣١).

- إنه لم يصغ من الماء والطين كآدم، وإنما هو ملاك قدسى أقبل من السماء،

- فقالت زليخا: «هذا هو من لا نظير له، ومن صرت بسببه هدفًا للّوم،

٢٧٠٠ - فالطعن الذى أدمى روحى منكن كان كله بسبب عشق هذا الرقيق البدن،

- وقد دعوته لأمنية روحى وجسمى، وطلبت منه الوصال،

- بيد أنه لم يذعن لأمرى، ولم يحقّق رجاء عمرى،

- وإن لم يخط بقدمه لتحقيق رغبتى، فسأجعل من ركن السجن مقامًا له،

- ويصير أمره فى هذا السجن إلى الذّلة، ويمضى عمره فى المحنة،

٢٧٠٥ - فبالسجن تلين طباع المتمرّد، ويعمر قلبه بحسن الطباع،

- فالطائر البّرى لا يستأنس إلا بهذا، فيهدأ بعض الوقت فى القفص[١]»

(١) اقتبس الشاعر مضمون هذه الأبيات من قوله تعالى: ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾ سورة يوسف. آية (٣٢)

- فلما رأت نساء مصر وجهه، قطعن أكفًا كثيرة، شوقا إليه،

- وفقدت مجموعة من تلك النساء المقطوعات الأيدى عقولهن وصبرهن وقلوبهن

- ولم يحملن أرواحهن بسبب سيف عشقه، فأسلمن الروح قبل أن يغادرن ذلك المجلس،

٢٧١٠ - وفقدت مجموعة أخرى منهن عقلها، فصرن مجنونات من عشق ذلك الملاك،

- وأسرعن إلى الخارج حافيات الأقدام حاسرات الرؤوس، ولم يعدن إلى وعيهن مرة أخرى،

- وعادت مجموعة ثالثة إلى رشدهن، فتعانقت قلوبهن بالحرقة وألم العشق،

- وثملن من كأس يوسف مثلها، وسقط طير قلوبهن فى شراكه،

- فقد كان جمال يوسف للخمر دنًا، يحصل منه كل إنسان نصيبه بقدر طاقته،

٢٧١٥ - فالسكر والنشوة نصيب هذا، والخلاص فى التفكير من الوجود نصيب ذاك،

- ونثر الروح على جماله قسط هذا، والبقاء أبكم الخيال ميراث ذاك،

- فـلا ينبـغى التـرحم إلا عـلى تلك المحـروقـة، التى حرمت نصيبها من تلك الخمر.

التماس نسوة مصر العذر لزليخا بعد مشاهدة جمال يوسف ونصحهن يوسف بالانقياد لزليخا، وتهديدهن إياه بإرساله إلى السجن

- حينما يكون هناك طلاب كثيرون للمتاع، فإن رغبة المشترى تزداد به تعلقًا،
- وحينما يفتن عاشق بأحد الأحبة، فإنه يجد هدوءه فى العشق،

٢٧٢٠ - بيد أن النار المحرقة تضطرم فى قلبه، حينما يجد له منافسًا،
- فلما صارت حال من أخرسهن جمال يوسف شاهد حال على هذا الجمال،
- زادت لوعة زليخا، واشتد ميلها نحو يوسف،
- فقالت لهن: «حينما رأيتنه، قطعتن أيديكن بسيف حبه،
- فلتعذرننى فى عشقه، واكففن عن لومى،

٢٧٢٥ - وادخلن مخلصات من باب صداقتى، وامددن يد العون لى،

- فعزفن جـميعًا على رباب المحبـة، وشرعن في التغني بالمعاذير،
- (قائلات): "إن يوسف سلطان مملكة الروح، وحكمه نافذ في تلك المملكة،
- فمن ذا الـذي يعزم على رؤيتـه دون أن يعشـقه، ولا يمنحه قلبه حتى لو كان حجراً،
- ومع أن حبه سبب ألمك، فإن جماله مسوّغ عذرك،

٢٧٣٠ - إنه لم يظهـر تحت قبة السـماء إنسـان يرى وجهـه فلا يعشقه،
- فإن كنت عـاشقة، فـلا لوم عليك، ولا غرم في هذه الصفقة،
- إن الكواكب تدور كثـيراً حول العالم، بيـد أنها لم تر معشوقًا بهذا الجمال،
- فليرق قلبه الحجرى لحبك، وليستح من هذه القسوة».
- وولين بعـد ذلك وجـوههن شـطر يوسف، فـأعطين للنصح في الكلام حقه،

٢٧٣٥ - وقلن له: «أيها العمر العـزيز! يا من ذاع صيته بحسن السيرة!
- إنه نادراً مـا تزدهر - في بسـتـانٍ يقـترن الورد فـيـه بالشوك- زهرة بلا أشواك مثلك!

- وفى هذا البحر، الذى تعدّ الأفلاك التسعة صدفًا له،
تشرف بك عناصر الكائنات الأربعة،
- لا تتشبث بعلوّ منزلتك، وتنازل عن كبريائك بعض
الشيء،
- فقد صارت زليخا ترابًا فى طريقك، أيها الطاهر،
فجرّ أذيالك من حين لآخر على هذا التراب،
٢٧٤٠ - فماذا ينقص من قدرِك، يا طاهر الذيل، لو أنك فعلت
ذلك؟
- وتخلّ عن علل قضاء حاجاتها، وأدّ لها ما تريد حينما
تطلب منك،
- فمادامت لك حاجة عند من لا حاجة له، فلا تسحب
يدك بالحاجة عن المحتاجين،
- ومادامت تنفّذ - مطيعةً - حقوق خدمتك، فلا تنس
حقوق خدمتها،
- وانظر إلى عجزها، ولا تتدلّل عليها أكثر من اللازم،
فإنى أخشى عليها أيها السّرو الشامخ،
٢٧٤٥ - أنه حينما لا يكون من أمرك إلا العصيان، فإن
العصيان لا يثمر إلا خبيث الثمار،

- فتغسل حب جمالك من قلبها، وتبطش بك بيد جبروتها،
- وخذ حذرك من الصديق، فإنه -حينما يضطر - ينتزع جلد رأس صديقه بذلة،
- وحينما يتجاوز السيل المدمّر الحدّ، فإن الأم تضع وليدها تحت قدمها،
- وهى تهدّدك كل لحظة بالسجن، فإنه مستراح الأشرار،

٢٧٥٠ - أسود ضيق كقبر الظالمين، يجدّ الأحياء فى الهرب منه،
- يضيق كل حيّ بالتنفّس فيه، فهو موضع كل من يستحق الموت،
- ولم تفتح فيه يد الصانع سبيلاً للضوء، ولا منفذًا للهواء،
- غلق بابه بقفل اليأس، ولم تر غرّة صباحه الضياء،
- هواؤه منبع كل وباء، وأرضه مزرعة كل بلاء،

٢٧٥٥ - أسود ضيّق كقارورة القار، متاع سكانه الأغلال والسلاسل،
- وقد جلسوا جميعًا على مائدة بغير ماءٍ ولا طعام، بيد أنهم قد سئموا الحياة،

- فيه بضع حراس قبيحو الوجوه، وبعض المجاورين حديثهم مرّ،
- في جبينهم طيّات لإيذاء من بداخله، في كل طية مائة عقدة لأمورهم،
- أضرمت طبائعهم النار في العالم، فاسودّت وجوههم بدخانها،

٢٧٦٠ - فأنّى يليق موضع المحنة هذا ليكون مقرًا لمحبوب مثلك؟!
- فاشفق على نفسك - بحق الله - وافتح أمام وجهها باب الأمل،
- وطأطئ رأسك على خطّ التسليم كالعلم، وامح نقطة الخوف من خاطرها،
- ولو يعتريك الملل منها، فلم ترها جميلةً كما يجب،
- كن لنا صديقًا -حينما تأمن شرّها- وكن خليلاً لنا، ونجيًا من الخفاء،

٢٧٦٥ - فكل منا فريدة في جمالها، ونحن الأقمار المنيرة لفلك الحسن،
- فحينما نفتح شفاهنا الماضغة للسكر، تضمّ زليخا شفتيها خجلاً،

- فشفاهنا حلوة، ماضغة للسكر، بحيث يتلاشى قدر زليخا أينما تكون»

- ولما سمع يوسف سحر كلامهن، ورأى عونهّن لتحقيق رغبة زليخا،

- وتخلّيهن عن طريق الدين والعقل معًا، لا من أجلها فحسب، بل من أجلهن كذلك،

٣٧٧٠ - ارتعدت فرائصه من كلامهن، وأشاح بوجهه عنهّن،

- ورفع أكفّ الدعاء قائلاً: «يا قاضى حاجة المحتاجين،

- وملاذ المعتصمين بجنابه، وأنيس خلوة المعتزلين،

- ومصباح أفق كل مخلص، وحِصْنَ من يلوذ بك ضد كل ظالم،

- إنى متعجّب من أمرهن، والسجن أحب إلىّ من رؤيتهن،

٣٧٧٥ - فالمكث فى السجن مائة عام، خيرٌ من رؤيتى طلعتهن لحظة واحدة،

- فالنظر إلى المحارم يعمى القلب، ويبعد المرء عن سعادة القرب،

- وإلاّ تصرف عنىّ كيد هؤلاء الماكرات، الضالات عن حمى العقل والدين،

- اللائى تضيق الأرض علىّ بسببهن، فى الضيعتى، يا لضيعتى!!»[1]

- ولما طلب يوسف السجن من ربّه، أودعه الله السجن كما أراد،

٢٧٨٠ - فلو طلب العافية من فضل الله، لما ساقه القدر إلى السجن،

- ولنجا من آفة أولئك الأشرار، وتحرّر قلبه من ألم القيود»[2].

[١] صوّر الشاعر هذه الأحداث متأثرًا بما ذكره المفسرون لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾، سورة يوسف، آية (٣٣)، حيث يقول الفخر الرازى فى تفسير هذه الآية: «واعلم أن المرأة لما قالت ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين، وسائر النسوة سمعن هذا التهديد فالظاهر أنهن أجمعن على يوسف عليه السلام وقلن لا مصلحة لك فى مخالفة أمرها وإلا وقعت فى السجن وفى الصغار.....».
تفسير الفخر الرازى جـ٥، ص ١٢٩، ويقول البيضاوى: «.. وإسناد الدعوة إليهن جميعًا لأنهن خوفنه من مخالفتها وزيّن له مطاوعتها أو دعونه إلى أنفسهن..»، تفسير البيضاوى، ص ٣١٤، ويقول الخازن: «.. قيل إن الدعاء كان منها خاصة وإنما أضافه إليهن جميعًا خروجًا من التصريح إلى التعريض وقيل إنهن جميعًا دعونه إلى أنفسهن، وقيل إنهن لما قلن له أطع مولاتك صحت إضافة الدعاء إليهن جميعًا أو لأنه كان بحضرتهن...»

[٢] تأثر هنا بما ذكره المفسّرون لقوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، سورة يوسف، آية (٣٤)، حيث يقول البيضاوى: «... وقيل إنما ابتلى (يوسف) بالسجن لقوله هذا وإنما كان الأولى به أن يسأل الله العافية...»، تفسير البيضاوى، ص ٣١٤، كما يقول الخازن: «... قال بعضهم: لو لم يقل السجن أحب لىّ لم يبتل بالسجن، والأولى بالعبد أن يسأل الله العافية»، تفسير الخازن، جـ٢، ص ٢٣٠.

حضّ نسوة مصر زليخا على إرسال يوسف عليه السلام إلى السجن وندمها على ما فعلت

- حينما لم يتحول قلب يوسف عن عصمته إزاء مكر هؤلاء المقطوعات الأيدى،
- اللائى صرن عابدات للأوثان، بعبادتهن لأنفسهن، وازدادت عصمته عما كانت عليه،
- صِرْن جميعًا خفافيش أمام تلك الشمس، ويئسن من نور قربه،

٢٧٨٥ - وأثرن غبار الانتقام لدى زليخا، وحثثنها على إلقائه فى السجن،
- وقلن لها: «أيتها المسكينة المظلومة! إن إنسانة مثلك ليست جديرة بالحرمان،
- فرغم أن أبناء الحور ليسوا مثل يوسف، فإنك لن تحققى مأربك بوصاله إطلاقًا،
- ولقد جاهدنا معه كثيرًا بالنصائح، وجعلنا ألسنتنا كالمبارد خشونة،

- بيد أن المبرد لم يؤثر فى حديده، وعلاجه لا يكون إلا بالشدّة،

٢٧٩٠ - فاجعلى السجن عليه تنوراً، عسى أن يلين حديده بذلك المصهر،

- وحينما يلين طبعه الفولاذى بالنار، فإن المعلم يستطيع أن يصنع منه شيئًا،

- فإذا لم يمكن تليينه بالحرارة، فما جدوى طرق الحديد البارد؟»

- فلما بينت ساحرات اللسان لزليخا أن أمل وصال الحبيب مرتبط بالسجن،

- طلبت إيذاءه من أجل راحتها، وأرادت أن تضع كنزه فى تلك الخرائب،

٢٧٩٥ - فحينما لا يصل عشق العاشق إلى درجة الكمال، فإنه لا يعلق خاطره إلا بمراده،

- ويريد من حبيبه أن يكون تابعًا له، وأن يقوم بعمله كما يشتهى،

- ويخز روحه بمائة طعنة من شوك الأحزان، بغية تضويعة وردة من بستان المعشوق.

- وذات ليلة، اجتمعت زليخا مع العزيز، وأفاضت قصتها عليه من قلبها،

- قائلة: «لقد أصبحت سيئة السمعة فى مصر بسبب هذا الغلام، ولحقت بى الفضيحة فيها بين الخاصة والعامة،

٢٨٠٠ - واتفق الجميع، رجالاً ونساءً، على أنى عاشقة له من أعماقى،

- وأننى صيد سهامه فى هذا الوادى، ذلك -الصيد- الذى يرتجف فى التراب والدم،

- وأن سهمه قد استقر هكذا فى روحى، حتى أن طعناته قد توالت واحدة فوق الأخرى،

- وأن طرف شعرة منى لا يخلو من عشقه، وأننى غبت عن وجودى بسبب عشقه،

- وأعتقد أنه لدفع هذا الظن، يجب أن أرسله إلى السجن،

٢٨٠٥ - وأسيّر مناديًا إثر منادٍ فى كل حى، ليعلن عن عجزه وخيبة أمله،

- قائلاً: «إن هذا جزاء ذلك الأثيم الذى يشارك سيده،

- ودون أن يفكر فى قهر روحه، يضع قدم الرغبة على فراشه،

- وحينما يرى الناس قهرى له، فإنهم يتخلّون عن ذلك الظن السيئ».

- فسرّ العزيز بفكرتها، واستبشرت روحه باستصوابها،

٢٨١٠ - وقال لها: «لقد داومت على التفكير، وتأملت فى هذا المجال كثيراً،

- فلم أنتخب جوهرةً أفضل مما ثقبت، ولم يرد بخاطرى خير مما قلت،

- وأمره الآن فى يدك، فأخمدى غباره عن طريقك»[١]،

- فلما سمعت زليخا منه ذلك التصريح، لوت عنان الكيد صوب يوسف،

- قائلة: «يا أمل قلبى، وأمنية روحى! إننى لا أعرف فى العالم رغبةً غيرك،

٢٨١٥ - إن العزيز قد أعلى عليك قبضتى، وأدنى رأسك تحت حكمى،

- فلو شئت ألقيت بك فى السجن، ولو أردت لطاولت بقدمك السماء،

[١] يقول الخازن فى تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ﴾، سورة يوسف- آية (٣٥): «ثم بدا لهم: يعنى للعزيز وأصحابه فى الرأي، وذلك أنهم أرادوا أن يقتصروا من أمر يوسف على الإعراض وكتم الحال وذلك أن المرأة قالت لزوجها إن ذلك العبد العبرانى قد فضحني عند الناس يخبرهم أني قد راودته عن نفسه، فإما أن تاذن لى فأخرج وأعتذر إلى الناس، وإما أن تحبسه، فرأى حبسه...».
تفسير الخازن، جـ٣ - ص٢٣٠، أما البيضاوى فيقول: «وذلك لأنها خدعت زوجها وحملته على سجنه زمانا حتى تبصر ما يكون منه أو يحسب الناس أنه أجرم.. ».
تفسير البيضاوي، ص٣١٤.

- فنكّس الرأس، فإلام العناد معى، وأقبِل علىّ مبتهجًا،
فختّامَ الاكتئاب؟!
- وطأ بقدميك فى مجال المسالمة، وخلّصنى من الغَمّ،
وخلّص نفسك من المذلّة،
- فلو حقّقت لى رغبتى، حقّقت لك رغبتك، ورفعت
اسمك إلى أوج الكبرياء،

٣٨٢٠ - وإلاّ، فإن هناك مائة باب مفتوحة للمحنة، والسجن
مهيأ لزجرك،
- وخيرٌ لك أن تجلس أمامى سعيدًا ضاحكًا، من أن
تجلس فى السجن».
- فانبرى يوسف لإجابتها بالحدّة التى تعرفها،
- فارتعدت لإجابته، وأمرت حرّاسها الغلاظ
- فأطاحوا بالتاج الذهبى عن رأسه، وألبسوه خرقة
صوفية بالية،

٣٨٢٥ - ووضعوا على رجليه الفضيتين قيودًا حديدية، وألبسوا
رقبته طوق الاستسلام،
- وأجلسوه مثل عيسى على حمار، وطافوا به كل أحياء
مصر،
- وصاح المنادى قائلاً: «إن كل عبد متمرّد، ذى عين
جسورة،

- يمتهن الحرمات، ويطأ بقدمه فراش سيده،
- خليق أن يحمل إلى السجن، بهذه المذلة كالأشرار،

٢٨٣٠ - بيد أن خلقًا كانوا يقولون -أثناء فرجتهم- من كل صوب: «حاشا ثم حاشا»،
- أن يصدر من هذا الوجه الحسن فعل قبيح، وأن يتأتّى من هذا المحبوب ما يؤذى القلب،
- إن هذا ملاك عجن بمائة لون من الطهارة، ولا تصدر الأفعال الشيطانية عن ملاك!
- وحسن الوجه يبعد أقدامه عن سيئ الطباع، وما أطيب ما قاله حسن الوجه، صائب الرأى:
- أن: «كل ذى وجه حسن فى الدنيا، يكون طبعه أجمل بكثير من وجهه»،

٢٨٣٥ - وكل من جاء قالبه سيئ الصورة، تكون طباعه أقبح من وجهه،
- فكما أن الحسن لا يتأتى من القُبح، فإن سيئ الطباع لا يتأتى بدوره من جميل،
- وحملوه إلى السجن بهذه الصورة، إلى أن أسلموه إلى السّجان،

- ولما دخل صاحب القلب الحىّ إلى السّجن، سرت الروح فى أجساد المسجونين،

- وعلت ضوضاء فى مكان المحنة هذا، وعلا صياح من هؤلاء الأسرى،

٢٨٤٠ - ورقص كل الأسرى لمقدم ملك الحسان هذا،

- وصارت قيود أقدامهن أربطة للمحبّة، وأغلال أعناقهم أطواقًا للسعادة،

- واستبدلوا بأحزانهم فرحًا، وخفّ جبل حزنهم حتى صار كالقشّة،

- حقًا! أينما تنزل الحوراء، تصبح الجحيم جنّة،

- وأينما يكن أصحاب الوجنات الوردية، يصر الموقد روضة،

٢٨٤٥ - ولما هدأ من حركته فى السجن، وجهت زليخا رسالة للسّجان،

- قائلة: «كفّ عن إيذائه بعد ذلك، وفكّ من رقبته الأغلال، ومن قدميه القيود،

- ولا تؤذ جسده الفضى بالصوف، وزيّن سروه بحلّة مزركشة،

- واغسل عن مفرقه غبار الحزن، وامنحه الرفعة بتاج العزّة،
- وأفرد له حجرة، واجعله فيها بعيدًا عن الآخرين،

٢٨٥٠ - وعطّر حائطها وبابها، وأنِر سقفها ونافذتها،
- وافرش أرضها بالسّندس، واجعل لها من الاستبرق بساطًا جذابًا»،
- وحين أقام يوسف فى تلك الحجرة، ألقى بساط الطاعة،
- وولّى وجهه، وهو فى ذلك المنزل، إلى محراب العبادة كعادته،
- وجلس فى مجال الصبر، لشكر من نجّاه من كيد النساء،

٢٨٥٥ - فما من بلاء يقع بأحد فى الدنيا، إلا وتفوح من هذا البلاء رائحة يُسر،
- فالأسير الذى يرتعد من البلاء، تُهوّن عليه رائحةُ الأمل صعابَه.

ندم زليخا على إرسال يوسف عليه السلام إلى السجن، وبكاؤها وعويلها على فراقه عليه السلام

- ما أعجب الآدمى، ذلك الكائن الغافل، فى هذا القصر الفيروزجى العتيق البنيان،
- فليس من دأبه عرفان النعم، ولا يعرف طبعه إلا الجحود،
- ولو أمضى دهراً فى النعمة، لما عرف قدرها حتى يفقدها،

٢٨٦٠ - فكم من عاشق جرأ على الهجر، ظانًا أنه قد شبع من المعشوق،
- وحينما يشعل الفلك نار الهجران، فإنه يصهر جسده، ويحرق روحه كالشمعة،
- ولما أضحى السجن روضة على الأسرى، بتلك الوردة الباسمة،
- وقد كان المنزل بالنسبة لزليخا أفضل من الروضة السعيدة، بسبب تلك السروة الفريدة،

- فلما خرجت تلك السروة من بستـانها، أصبح بستانها أشدّ ظلمةً من السجن،

٢٨٦٥ - وتضايق قلبهـا فى هذا السجن، وتضاعفت مـشاكلها بسبب الهجر،

- وليس أشـد مـرارة على العـاشق المسكين من أن يرى مكان حبيبه خاليًا منه،

- وأى راحة تسبقى فى روضـة يرحل منها الورد ويبـقى الشوك؟

- إن وجـود حراب الشـوك فى حديقـة بلا ورد إنما هو لإيذاء البلبل،

- فلما رأت روضتهـا وقد خلت من تلك الوردة، شقت قميصها كالبرعم،

٢٨٧٠ - فـحيـنما تصل الـروح إلى الحلقوم مـن الحزن، فـأى خوف يعترى العاشق لو شق قميصه؟

- فكانت تفتح بابا على صدرها، ليخرج منه الحزن ويدخل الفرح،

- وكانت تمزق وجنتها الورديـة بأظافرها، وتمزق شعرها المحمّل بالعنبر،

- ولما كان وجـهها وشعـرها علامةً علـى وجود الروح بها، فإنها كانت تنتزع الروح لفراق الحبيب،

- وكانت تدق الحجر على صدرها بيد القلب، وتدّق طبول الحرب لمنازلة الهجر،

٢٨٧٥ - ورغم أنها كانت ملكة من تفوّقن فى الجمال، فقد لحقت بها الهزيمة من دقّ تلك الطبول،

- وكانت تهيل التراب على رأسها بيديها، وتسكب الدموع من عينها المبتلة،

- وتصنع من الماء والتراب مثل هذا الطين، لتطلى بها تصدّعات الهجر على القلب،

- بيد أن التصدّع الذى يحدثه الهجر فى القلب يعسر طلاؤه بهذه الحفنة من الطين،

- وكانت تجرح شفتيها العنابيتين بأسنانها، فكانت تؤذى العقيق الخالص بعقد الدّر،

٢٨٨٠ - ولعلها كانت تريد أن توقف ذلك الدم الذى يصبّه غليان قلبها خارجه،

- وكانت تجعل وجنتيها الورديتين زرقاوين، وكأنهما النيلوفر من تلاطم الضربات،

- ذلك أن الخضاب يلائم الأفراح، أما المآتم فلا يليق بها إلاّ الزُّرقة،

- وكانت تخطّ على وجهها من دم قلبها، بينما كانت تضع يديها على ركبتيها من الحسرة،

- وهى تقــول: «من الذى فعل مــا فعلت؟ ومن شــرب مثل ذلك السّم الذى شربت؟

٢٨٨٥ - فليس فى دار الأحزان هــذه عاشق دقت قدمــه الفأس مثلى،

- وقد اقــتلعت عينــى بيدى، وألقيت بــنفسى فى البــئر عمياء،

- وربطت على ظهــرى جبلاً من الأحــزان، فقــصمــته تحته،

- ولقد دمى قلبى زمنًا طويلاً، إلى أن وجدت حبيبًا جميلاً،

- واضطرب حظى من مكر الفلك، فـتخليت عن أذياله من يدى، دونما مقابل،

٢٨٩٠ - ولقد ضــقت ذرعًا من قلــبى الهائم، ولم أعــد أعرف علاجًا لأمرى»:

- وكانت تنوح نواحًا يحرق الروح،حتى أنها كانت تحيل ليل أحزانها نهارًا،

- فكلما شمّت رائحته فى شىء من الأشياء،تأوهت من أعماقها،

- فكانت تمسك بقمــيصه بين الفــينة والفينة، لأنه لامس جسده يومًا،

- فتعطر به أنفها كالوردة، وتسكّن به جراحها،

٢٨٩٥ - وتارة كانت تضع وجهها على طوقه، وتقبل أهدابه بكل تحسّر،

- وكانت تقول: «هذا طوق عزة ذلك العظيم، ماذا قلت؟ كلا، إنه رباط روحي!».

- وتارة كانت تضع يدها في كمه، وتعد ذلك انتصاراً لحظّها،

- وكانت تضعه على عينيها بإكبار، وتملؤه فضة على ذكرى ساعده،

- وتارةً كانت تضع ذيل قميصه في عينيها، فقد لامس ظهر قدمه يومًا ما،

٢٩٠٠ - وإذا أبدت اليأس من تقبيل قدمه، احتالت بتقبيل أذياله،

- وكلما رأت تاجه بعيداً عن رأسه، نظفت الغبار عن ياقوته وجوهره،

- وكانت تقول: «لقد كان ذلك التاج قرينًا لذلك المفرق، وكان عالم بأسره يطأطئ جبينه أمامه».

- وكلما رأت حزامه أدت للعبودية حقها، إذ كان يذكرها بخصره،

- وكانت تتخذ منه أنشوطة في رقبتها، على ذكرى صيادها،

٢٩٠٥ - ولما كانت تفك حلته المزركشة، كانت تفتح عينها المليئة بالدموع،

- وكانت تغسل ذيل حلته بدموع تضرعها، فتطرّزه بدموعها الياقوتية،

- وإذا رأت نعليه متجاورين، كانت إفاضة الروح شيئًا هينًا بجوار تقبيلهما،

- فكان يجول بخاطرها -بوجودهما معًا- أنها سلبت القدرة بعدم رفقته،

- وكانت تضع على القلب ضمادة من رباطها، وتخضبهما بدم العين،

٢٩١٠ - وبذا كان يظهر كل لحظة حزن جديد، ويقام كل آن مأتم لرؤية كل شيء على حدة،

- ولما أدركت قيمة المشاهدة، انصهرت من ألم البعد عنها،

- وندمت حيث لا ينفع الندم، فما كان يجدى غير الصبر،

- ولكن كيف يمكن الصبر عن مثل يوسف؟ ومتى تستطيع إخراج حبه من قلبها؟

- فهلاك العاشق مصدره فراق الأحبة، وخاصة بعد التعرف عليهم،

٢٩١٥ - فإذا انفرط عقد الصحبة، فإن الفراق يكون بمثابة العذاب الخالد،

- وإذا لم يكن هناك رباط للصحبة بين الجميع، فإن الفراق يكون غير مستحب، غير أنه لا يكون بمثل هذه الصورة،

- وضايقتها نفسها فتخلت عنها، ولما لم تصل إلى الجمال توجهت إلى القُبح،

- فكانت تضرب برأسها الباب والحائط، وتغرس الخنجر القاتل فى صدرها،

- وكانت تصعد إلى سقف القصر كالحارس، لتُلقى بنفسها من فوقه،

٢٩٢٠ - وكانت تتخذ من طرتها الحالكة حبلاً، تخنق به أنفاسها،

- وكانت تبحث عن خلاص من جفاء الدهر، وتطلب كأس السّم من الساقى،

- فكانت تلتمس كل أسباب موتها من أى شىء تريده، قلّ أو أكثر،

- وكانت مربيتها تقبل يدها ورجلها، وتدعو لها من أعماق قلبها،

- قائلة: «فلتتحقق رغبتك من الحبيب، وليملأ كأسك من ياقوته حتى تطفح حافته،

٢٩٢٥ - وليخلصك الله من الهجر، حتى لا يمرّ الفراق بخلدك أبداً،

- عودى إلى نفسك لحظة، فحتّامَ هذا الذهول؟ واسلكى طريق الحكمة، فحتّامَ هذا الجنون؟

- إنك تدمين قلوبنا من الأحزان، ومن ذا الذى فعل ما تفعلينه الآن؟

- فاسمعى منى، فإنى محنكة فى هذا المجال، إن تدبير هذا الأمر يكون بالصبر،

- وبدون صبر تقعين فى الحمى واللهيب، فأمطرى على هذه النار من سحاب الصبر ماءً،

٢٩٣٠ - فحينما تشرع صرصر البلاء فى الهبوب، فمن العبث أن نكون قشةً فى مهبّها،

- ومن الخير أن تتشبّثى بالصبر، وأن ترسخى بقدميك على الأرض كالجبل،

- فالصبر سبب النصر، وهو أرقى منازل السعادة،

- والصبر يثمر فاكهة أملك، ويحقق سعادتك الخالدة،
- وبالصــبر تصبح الأمطـار دُرراً فى الصدف، وبالصــبر يمتلئ المنجم بالياقوت والجواهر،

٢٩٣٥ - وبالصبر تخرج السنابل من الحب، ويخرج زاد المسافر من السنابل،
- وبالصبر تصبح قطرة ماء قمراً منيراً بعد تسعة أشهر»،
- فهـدأت زليخـا بقلبهـا وروحها المضطـربين، من قول المربية،
- وكان ثوبها ممزّقـا حتى الذيل، فمدت قدميـها بمسعى الصبر من ذيله،
- غـير أن الصــبر الذى سلكه العـاشق، طبـقًا لقـول الناصحين المصلحين،

٢٩٤٠ - بسرعان ما ينساه حينما يكف الناصح عن قوله.

عجز زليخا عن تحمل فراق يوسف عليه السلام وذهابها إلى السجن ليلاً بصحبة مربيتها ومشاهدتها جمال يوسف عليه السلام

- حينما احتجبت شمس يوسف في سجن الغروب عن زليخا، من سماء زليخا،
- واختفى وجهها بالسماء في نجوم الدموع، من حب يوسف،
- وأصابت أحزان يوسف زليخا، حتى إنها كانت تنثر دموعها الشفقية،
- ودمي كبد الشفق من دموعها، وأضحى ذيل الفلك بلون الكبد تبعًا لذلك،

٢٩٤٥ - شرعت في البكاء بنواح محرق للروح، وهما الآهة والعويل نفسهما اللتان شرعت فيهما نهاراً،
- فحينما يولّي يوم العاشق وجهه صوب الليل، فإن حرقة العاشق تزداد فيه أكثر،
- ذلك أن الهجر يظلم أيامه، ويزيد حلكة لياليه،
- فيومه يسودّ من الحزن، ويزداد ليله ظلمة فوق ظلمة،

- ففى تلك اللحظة التى يحمل فيها الليل، ينجب الحزن للعاشقين،

٢٩٥٠ - وحينما يخرج الطفل من المشيمة، فإنه يرضع دم القلوب بدلاً من اللبن،

- فمن ذا الذى يكون أسعد من تلك الأم التى يشرب طفلها الدم بتلك الصورة؟

- فلما أقبلت زليخا، لنفاد صبرها، ليلة بشرب الدماء هذا،

- بعيداً عن المعشوق، مهجورة من المحبوب، ظلّ ليلها بغير قمر، وبيتها بلا ضياء،

- فحينما لا يكون هناك وجه الحبيب المتلألئ، فإن المنزل لا يضيئه مائة مشعل،

٢٩٥٥ - ولم تنم عينها من شدة حزن قلبها، فكانت تذرف دم القلب من عينها، وكانت تقول:

- «أنا لا أعرف كيف حال يوسف الليلة، ومن هو الموكل بخدمته،

- ومن الذى بسط سريره تحت قدمه، ومن هيأ رأسه على الوسادة؟

- ومن الذى كان مصباح وسادته المضيء؟ ومن مسح كف الراحة عليها؟

- ومن فك منطقته من خصره؟ ومن قصّ عليه الحكايات عند النوم؟

٢٩٦٠ - وهل يناسبه هواء ذلك المقام أو لا؟ وهل أعدّ عشّه كالطيور الأليفة أو لا؟

- وهل ورد وجناته على ما هو عليه من نضرة، وسلاسل سنبله على ما هى عليه من ثنايا؟

- أما حمل الهواء نضرة ورده؟ أما جعل سنبله ذابلاً؟

- وهل قلبه مطبق كالبرعمة، أو أنه فاتح شفته بالسرور كالوردة؟»

- كانت تبث حزنها بمثل هذا الكلام فى كل عبارة، حتى انقضى قسط كبير من الليل،

٢٩٦٥ - ولم تبق لها قدرة ولا طاقة بعد ذلك، ولم يبق فى قلبها قطرة من نهر الصبر،

- واضطرمت نار ملتهبة فى قلبها شوقًا إليه، فقالت لمربيتها، وعينها دامية: «انهضى،

- حتى نتجه بعض الوقت صوب السجن، وندخل بيت المحنة هذا فى الخفاء،

- ونجلس سرًا فى ركن السجن، ونرى قمره،

- فحينما يكون السجن مكانًا لوردى الوجنات، فإنه يكون ربيعًا بهيجًا جديدًا، وليس سجنًا،

٢٩٧٠ - فقلب كل عاشق يتـفتح فى البستان، أما قلبى فـيتفتح فى السجن».

- ثم مضت كـالسروة المدللة، والمربيـة تتبـعها مـتعـثرة كظلها،

- فلمـا وصل ذلك البدر السـارى إلى السـجن، طلبت حارس السجن خفية،

- وأشارت، ففتح لها الطريق، وبدا ذلك القمر المنير من بعيد،

- فرأته عـلى طرف سجادتـه من بعيد، وهـو غارق فى النور كالشمس المتلألئة،

٢٩٧٥ - تارة يقف على قدمـيه كالشمـعة، فيفيـض وجهه نوراً على السّجانين،

- وأخرى يحنى قامته كـالهلال، فيلقى بالنور من وجهه على البساط،

- وثالثة يضع رأسه عـلى الأرض معتذراً عن التقـصير، كغصن الورد النضر من ريح السحر،

- وتارة يمارس الـتـواضع، فـيـجلس منـكس الرأس كالبنفسجة،

- فهـو بعيد عنـها، بينما جلست قـريبة منه، بيـد أنها جلست فى ركن مظلم،

٢٩٨٠ - وكانـت تتألـم من روحـها، وتنوح من قلبـها وتجـعل الياسمين كالشقائق من نرجسها،

- وكانت تؤذى ياقـوت شفتيهـا بلآلئ أسنانها، فكانت تقطع الرطب من النخل الندى،

- وكـانت تخرج من قلبـها هـذا السّرّ دمًـا ينسكب من عينيها،

- قائلـة: «يا عين المحبـوبين ومصبـاحهم! وأمل خـاطر المحزونين!

- إن عشقك أضرم نارًا فى روحى، وأحرق وجودى من الرأس إلى القدم،

٢٩٨٥ - ولم يُلق وصالك قطـرةً على نارى، ولم تخمد حـرقة فى قلبى بقطرة واحدة،

- ومزقت صدرى بسيف الظلم، وإنّى أراك غير مكترث به،

- ألا تملك الشفقة على ظلمى، فوا أسـفا على شفقتك وعلى حرمانى!

- لقد تولّد بسببك كل لحظة حزن جديد لى، فليت أمّى لم تلدنى!!

- وليت أن المربية لم تلق بظلّها على رأسى حين ولدتنى أمى،

٢٩٩٠ - أو أنها حـرمتنى اللبن الصـافى، وخلطت السم باللبن بقسوة».

- كانت زليخا فى كلامـها بهذه الصورة، ويوسف غارق فى حاله،

- ولم يكن ليكتـرث بوجـودها، ولو اكتـرث ما أظهـر أثرًا،

- وكلمـا مضى الليل، وكـأنه الصبـاح الطالع، أمطرت سماء زليخا نجوم الدموع،

- وعلا ضوضاء الطبـول الملكية وارتفع صوت المؤذن فى السحر،

٢٩٩٥ - واتخذ الكلب من ذيلـه حلقة على حلقومـه، وحبس أنفاسه عن نباح الليل،

- واستـيقظ الديك من نوم الليل عـالى الرأس، وعزف أنغامًا عالية من نايه،

- فأمـسكت زليخـا بذيلها، وقبلت أعـتاب الخـدمة ثم مضت،

- وهكذا أخذت تتردّد على السجن مادام قمرها مُختليًا به،

- وأضحى ذلك التردّد غذاء روحها، ولم يعدلها مقصد غير ذلك الذهاب والإياب،

٣٠٠٠ - فإن إنسانًا لا يقصد بستانًا بمثل هذا الشعور الذى كان يتملكها وهى تقصد السجن،

- حقا! إن من يكون حبيبه حبيس السجن، فأنّى تكون راحته إلا فى سجن حبيبه؟

صعود زليخا إلى سطح قصرها بالنهار ومشاهدتها سطح السجن، وبكاؤها وعويلها لفراق يوسف

- أقبل الليل حجابًا لأسرار العاشقين، ومزيلاً لغصّة المحبين،
- فبالإمكان عمل أشياء كثيرة فى الليل، ليس من اليسير تدبير أمرها بالنهار،
- فلما أمضت زليخا ليل الحزن، لا، ليس حزنًا، بل إنها أمضت مأتم الليل،

٣٠٠٥ - أقبل عليها بلاء النهار ومحنته، فأقبل عليها مائة حزن يحرق الكبد،
- فهى لا تملك الإرادة كى تقصد السجن، ولا تعرف الصبر كى لا تذهب إليه،
- فكانت تضع كل لحظة شيئًا من أنواع النّعم الطيبة، على كفّ جارية أمينة،
- وترسلها إليه فى السجن، فترى وجهه بدلاً منها،
- ولما كانت تلك الجارية تعود من السجن، كانت تشرع هى فى مغازلتها،

٣٠١٠ - فتارة تضع وجهها على وجه قدمها، وأخرى تطبع مائة قبلة على عينها،

- وكانت تقول: «هذه هي العين التي رأت وجه الحبيب، وهذا هو القدم الذى وصل إليه،

- فلو لم أستطع تقبيل عينه، أو وضع وجهى على كف قدمه،

- فلا أقل من أن أقبّل تلك العين، فإنها تنظر أحيانًا إلى وجهه الجميل،

- وأن أضع وجهى على كف تلك القدم، فإنها تمضى نحوه أحيانًا».

٣٠١٥ - وكانت تسألها بعد ذلك عن حاله، وعن جمال وجهه السعيد الحظ،

- قائلة: «أما أصاب وجهه ضرر؟ أما تعقّدت أحواله؟

- ألم يعتر وجهه ذبول من ذلك الهواء؟ ألم تؤذ جسده تلك الأرض؟

- وهل يأكل من ألوان النعم التى حملتها أو لا؟ وهل يذكر تلك العاشقة أو لا؟».

- وكانت تنهض من مكانها بعين دامية، بعد الاستفسارات والإجابات الكثيرة،

٣٠٢٠ - وكان لها على سطح القصر حجرة، يبدو أمامها سطح السّجن،

- فكانت تصعد إليها وتجلس وحيدة، وتغلق بابها فى وجه الناس،

- وتثقب الدرّ فى عينها بأهدابها، وتنظر صوب السجن قائله:

- «من أنا حتى أشاهد وجهه الوردى؟ يكفينى رؤية سطحه من فوق سطحى!

- ومادمت غير جديرة برؤيته، فإنى سعيدة بالنظر إلى بابه وحائطه،

٣٠٢٥ - فحيثما يقيم قمرى، فإن ذلك لا يكون سجنًا، بل هى الجنة العليا،

- ولسقف منزله نصيب من السعادة، حتى أن شمس الدنيا تستظل بظله،

- وقد حطّم جداره ظهرى حزنًا، وقد وضع ذلك القمر ظهره عليه واتكأ،

- وتزهو السعادة أمام ذلك الباب، حتى إن سروى يطأطئ رأسه أمامه،

- ويالها من عتبة سعيدة، تلك التى تقبّل أقدام مثل ذلك المحبوب،

٣٠٣٠ - وما أطيب أن يتناثر جسدى ذرّات للعيان لشمس حبه،
- وأسقط مقلوبةً من نافذته، أمام شمسه المتوهجة،
- وإنى لأحمل آلاف الأحقاد على الأرض التى يتبختر عليها برقّة،
- فإنها تتعطر بذيل قميصه، وتتعنبر من شعره».
- وباختصار فقد كان هذا شاغلها حتى الليل، إذ كان همها هو الحديث عنه،
٣٠٣٥ - وفاضت روحها على شفتها فى هذا الكلام، وتحوّل نهارها ليلاً وهى فى هذا الحزن،
- فإذا أقبل الليل، فكرت فى حيلة أخرى، كى تسلك سلوك الليلة السابقة،
- كان هذا ليلها ونهارها، طالما كان السجن مقرًا لذلك الحبيب،
- فكانت تحتال فى المساء للذهاب إلى السجن، وكانت تنظر إليها من غرفتها بالنهار،
- وما كانت تخلو وقتا من هذا العمل، فتارة كانت ترى الحائط، وأخرى ترى المحبوب،
٣٠٤٠ - وهكذا سكن يوسف فى خاطرها، حتى أنساها النفس والدنيا،

- ولشدة تذكره فقدت نفسها، ومحت الحسن والقبيح من لوح خاطرها،
- فما كانت تعود لنفسها مرة أخرى، رغم أن الجوارى كن ينادينها،
- فكانت تقول لجواريها دائمًا: «إننى لن أعود لنفسى على الإطلاق
- فلا تشرن انتباهى بالنداء، بل حركننى أولاً، ثم خاطبننى،
٣٠٤٥ - فإنى أعود لنفسى فى البداية بالتحريك، ثم أفتح أذنى بعد ذلك بالسماع،
- فإن قلبى مع سجينى، وذلك مرجع كل حيرتى هذه،
- فكل من يجول ذلك البدر بخاطره، لا يفيق لآخر غيره».
- وذات يوم تغيرّ مزاجها عن حاله، فاحتاجت إلى جرح المفصد،
- فما كان يأتى فى عين إنسان من دمها على الأرض غير يوسف، ويوسف فحسب!!
٣٠٥٠ - فكتب الأستاذ الماهر بقلم مفصده صورة هذه الكلمة على لوح الأرض

- وهكذا امتلأت عروقها وجلدها بالحبيب، حتى أن شيئًا لَم يكن يخرج من جلدها إلا الحبيب،
- فما أسعد من يجد الخلاص من نفسه، ويجد نسيم المعرفة من حبيبه،
- ويسكن مثل هذا الحبيب في قلبه، حتى لا يتسع لغيره،
- فيرى في عروقه وأعصابه روحًا، ولا يبقى قدر شعرة من كيانه خاليًا منه،

٣٠٥٥ - فلا يكون له رائحة أو لون من نفسه، ولا يكون له سلام ولا حرب مع أحد،
- ولا يتعلق قلبه بتاج أو عرش، بل يحزم أمتعة الرغبة من حيّ قلبه،
- ولا يضع نفسه في الحسبان، ولا يسلك غير أمر العشق،
- ولو تناجى فمع الحبيب، ولو رغب فمن الحبيب،
- ويولّى وجهه صوب الناضج بدلاً من الفجّ، ويخرج من وجوده كلية،

٣٠٦٠ - فاخرج أنت يا جامى أيضًا من نفسك بالكلية، وادخل قصر السعادة السرمديّ،

- ومادمت تعلم أن طريق السـعادة أبدى، وأنه لا تحدث مثل تلك الصعوبات من نيل السعادة،
- فتحرك بخطاك من هذه الأرض الكئيبة، وطأ بقدمك فى قصر الفناء العامر،
- فإنك تفنى ولا يصيبك ضرر من جرّاء ذلك، فلا كان لك وجود اليوم، فهذا أجدى لك،
- ولا تطلب السلامة في البقاء، فلا تجد من تلك الرغبة ما يشفى غُلّتك.

فى شرح إحسان يوسف إلى أهل السجن، وتأويله رؤيا مقربى ملك مصر، ووصيته لواحد منهما

٣٠٦٥ - إن كل من يولد محظوظًا، يجلُ ضياء سعادته حلكة الظلام،

- ويذهب إلى منبت الأشواك فيضحى روضة، ويتحوّل الورد نوافج تترية،

- فهو كالسحاب، لو مرّ بأرض جافّة، لأصبحت بمقدمه جنة بهيجة،

- وهو كالنسيم، لو هب على حديقة نضرة، لأضاء مصباحًا فى وجنة كل وردة،

- ولو دخل السجن راضيًا سعيدًا، لحرّر المساجين من الحزن،

٣٠٧٠ - فلما أصبح السجن حديقة ضاحكة لنزلائه برؤيتهم يوسف،

- وسُرّوا جميعا بمقدمه، وتحرروا من قيد الألم والحزن،

- وأضحت الأغلال فى أعناقهم أطواقًا للسعادة، وسلاسل أقدامهم خلاخيل بهيجة،
- فلو مرض سجين وبات أسير المحنة والألم،
- فإنه كان يسعى جاهدًا لعلاجه، ويخلصه من ألمه،

٣٠٧٥ - ولو ضاق المكان على أسير، فقد كان يسعى لتدبير أمره،
- وكان يسعى لرضائه بوجه طلق، ويسعى به من الضيق إلى الاتساع،
- ولو شقّ السرور على مفلس، ودخل قمره المحاق بسبب الإفلاس،
- فإنه كان يأخذ مفتاح الذهب، ويحطم قفل الضيق بالسرور[1]
- ولو رأى سعيد منامًا، وتاهت أمتعته فى دوامة الفكر،

[١] يقول القرطبي فى تفسير قوله تعالى: «إنا نراك من المحسنين»: «فإحسانه ما كان يعود المرضى ويداويهم، ويعزى الحزانى، قال الضحاك: كان إذا مرض الرجل من أهل السجن قام به، وإذا ضاق وسع له، وإذا احتاج جمع له، وسأل له..»، تفسير القرطبى ص ٣٤١٩ طبع دار الشعب.
ويقول الطبرى: «اختلف أهل التأويل فى معنى الإحسان الذى وصف به الفتيان يوسف فقال بعضهم هو أنه كان يعود مريضهم ويعزّى حزينهم، وإذا احتاج منهم إنسان جمع له...».

٣٠٨٠ - فمن شفتيه كان يسمع تأويل رؤياه، وترسو أمتعته على شاطئ الأمان،

- وقد حُرم اثنان من مقرّبى ملك ذلك الإقليم من شرف قربه،

- وكانا رفيقين له فى السجن، ونجيّين له، وشركاءه فى محنته،

- وذات ليلة رأى كل منهما رؤيا، أشعلت نار الألم فى روحه،

- فرؤيا أحدهما تبشّر بنجاته، ورؤيا الآخر تنذر بانتهاء حياته،

٣٠٨٥ - غير أن تأويلهما كان محتجبًا عليهما، ولذا كان هذا الأمر عبئًا ثقيلاً على نفسيهما،

- فقصا على يوسف رؤياهما، وسمعا منه التأويل،

- وعوقب أحدهما بالإعدام، وقُرّب الآخر فى حضرة الملك[1]،

[١] تأثر الشاعر بقوله تعالى: ﴿ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما إني أراني أعصر خمرا وقال الآخَرُ إنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ سورة يوسف، آية (٣٦)، وكذلك قوله تعالى: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾، يوسف، آية «٤١».

- فكان ذلك الشاب الذى يتقرب إلى الملك، يدنو بذلك من عرش العزّ والجاه،
- وحينما ولّى وجهه صوب الملك الجالس على العرش، أشار عليه يوسف قائلاً:
٣٠٩٠ - «حينما يؤذن لك بمجالسة الملك، وتجد فرصة الحديث فى حضرته،
- اذكرنى فى الحال عنده، فإنك تحظى بخير عظيم بذكرك إيّاى
- وقل له: إن فى السجن غريبًا، حُرم من عدل ملك الزمان،
- ولا يرضيه عذاب برىء مثلى، فهذا أبعد ما يكون عن سبيل العدالة».
- وحين شرب ذلك المتّع بالسعادة والجاه من كأس قرب الملك،
٣٠٩٥ - تلاشت تلك الوصية من فكره، فلم يذكرها إلا بعد بضع سنين،
- وأثمرت شجرة وعده اليأس، فتركه أسير سجن البلاء[١]،

[١] تأثر هنا بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ يوسف، آية (٤٢)

- حقا! إن من يصطفيه الله، ويجلسه فوق عرش المحبة معززاً،

- يقطع طريق الأسباب أمامه، ولا يرضيه أن يكون مدينًا لهذا أو ذاك،

- فلا يتوجه إلا إليه، ولا تتعلق طباعه بمخلوق،

٣١٠٠ - ولا يرضى عن إيذائه بيد الآخرين، ولا يجعله يحتاج لسواه،

- فهو يأبى أن تتعلق يده بأذيال أحد، بل يريده أسير شراكه فحسب.

طلب ملك مصر يوسف عليه السلام لتأويل رؤياه ورفضه الخروج من السجن

- ما أكثر الأقفال التى مفاتيحها غير ظاهرة، وطريق فتحها غير معلوم،
- فإنها تكون مثل أمر الحكيم، شديدة التداخل، اجتهاد الفكر والنظر أمامها هباء،
- وفجأة، وليست هناك يد الصنع، وليس بخاطر الصانع أى ظن لفتحه،

٣١٠٥ - يظهرفتح له من الغيب، وبظهور الوديعة يتحقق كل أمل،
- إذ أنه لما قطع يوسف رجاءه من حيله، وقطع صلته بحبل التدبير،
- لم يبق له ملاذٌ إلا الله، فهو مأوى المرء فى النوائب،
- وتحرّر من التفكير فى وجوده وحكمته، فأمدّه الله بفيض من فضله،
- وذات ليلة رأى سلطان مصر -ذلك الملك السعيد- سبع بقرات فى رؤياه،

٣١١٠ - جميعها قمة فى الحسن شديدة السمنة، وكلٌ منها

تفوق الأخرى حسنًا وجمالاً،

- ثم بدت له بعد ذلك سبع أخرى، فى مقابلها، جميعها هزال عجاف،

- ولت وجوهها صوب السبع الأولى، وطعمنها كالخضرة عن آخرها،

- وبنفس الصورة، رأى سبع سنابل خضراء ممتلئة، يقتات منها القلب وتشبع العين،

- ثم تلتها سبع أخرى يابسات، أحاطت بها وأفنتها جميعًا،

٣١١٥ - وحينما استيقظ السلطان من نومه، طلب تأويل رؤياه من كل عارف[١]،

- فقالوا جميعًا: «إن تأويل هذه الرؤيا محال، إن هى إلا أضغاث أحلام،

- فلا تأويل لها فى نظر العقل، ولا علاج منها إلا عدم التفكير فيها[٢]»،

- فأزال الشاب الذى كان يعرف يوسف الستار عن

[١] تأثر الجامى فى نظم هذه الأبيات بقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴾، سورة يوسف، آية ٤٣

[٢] ﴿ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ﴾، يوسف، آية ٤٤

أمره،

- قائلاً: «إن في السجن شابًا تكسوه هيبة الملوك، خبير بحل المعضلات،

٣١٢٠ - وهو حاذق في تأويل كل رؤيا، وقلبه غوّاص هذا البحر، وصياد جواهره،

- فلو أنك تأمرني، فإني أكشف له هذا السرّ، وأعرف منه تأويل رؤياك[١]»،

- فقال له: «أي إذن تريد مني؟ وهل يطلب الأعمى أفضل من عين مضيئة؟!

- لقد أصيبت عين حكمتي منذئذ بالعمى، منذ ابتعدت عن معرفة هذا السرّ»،

- فأسرع الشاب صوب السجن، مبينًا ليوسف رؤيا الملك،

٣١٢٥ - فقال له: «إن البقر والسنابل كليهما تشير إلى السنين، وتصفها بأوصافها،

- فحينما تكون السنبلة ممتلئة، والبقرة سمينة، فإنهما تنبئان عن عام رخيّ،

- وحينما تكون السنبلة يابسة، والبقرة هزيلة، فإنهما

[١] ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ يوسف، آية ٤٥

ينذران بعام قحط،

- فالسبع السنوات الأولى يكون فيها المطر والحقول والحبوب وفيرة

- ويعم الخير العالم بأسره، ثم تأتى بعد ذلك السبع الأخرى،

٣١٣٠ - فتأتى على كل الخيرات السابقة، حتى تضيق أرواح الخلائق من القحط،

- فلا تمطر السماء سحاب العطاء، ولا تنبت الأرض بادرة عشب،

- وينسى الأغنياء سرورهم، وتفيض أرواح المعدمين قحطًا،

- وهكذا يختفى الخبز من مائدة الزمان، حتى ليقول الآدمى: «الخبز» ثم يسلم الروح[1].

- سمع الشاب هذا الكلام وعاد، وصار نديمًا بمجلس

[١] ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، يوسف، آية «٤٦»، ويلاحظ أن الشاعر جعل يوسف يكتفى بتأويل رؤيا الملك فى هذه الأبيات، ولا يقوم بعرض رأيه فى مواجهة هذا الموقف إلا بعد خروجه من السجن ولقائه مع الملك، حيث اقتبس الشاعر مضمون أبياته من قوله تعالى: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ (٤٨) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾، يوسف، آية «٤٧، ٤٨، ٤٩».

الملك العادل،

٣١٣٥ - وقص حديث يوسف وتأويله، فتفتّح برعم قلب الملك لحديثه،

- وقال له: «انهض، وأحضر يوسف، حتى يزيد يقينى من هذا الكلام،

- فمادام بالإمكان سماع الكلام من المحبوب، فلا ينبغى سماعه من كل فم،

- إنك تحكى الكلام عن الحبيب سكرًا، فلو أنه يقوله بنفسه فإنه يكون أكثر حلاوة،

- فأسرع إلى السجن مرة أخرى، وحمل تلك البشرى إلى فريد عصره،

٣١٤٠ - قائلاً: «تبختر يا سرو رياض القدس، وطأ بقدمك فى حديقة قصر الملك،

- واختل بهذا الوجه الجذاب، وزيّن حديقة ذلك القصر ببهاء وجهك».

- فقال له: «لماذا أذهب إلى حضرة الملك الذى ألقى ببرىء مثلى

- فى السجن سنوات، ودفع بى إلى اليأس من سحائب الكرم،

- فلو أنه يريد منى الخروج من بيت الأحزان هذا،

فليأمر في البداية،

٣١٤٥ - أولئك اللاتى قطعن أيديهن حسرةً على وجـهى حينما رأينه،

- أن يتجـمعن فى مكان و احد كالثريا، ويزلن النقاب عن أمرنا،

- ويذكرن ماذا كان ذنبى، وماذا رأين منى، ولماذا حملوا متاعى إلى السجن؟

- فـعسى أن ينجـلى سرّى للملـك -ويتأكـد- أن ذيلى طاهر من الخيانة،

- وليس من شـيمى ارتكاب الجـرائم، ولا يدور بخلدى أن أرتكب خيانة،

٣١٥٠ - فلم تصدر مـنى خيانة فى ذلك المنزل، ولـم يبدر منى غير الصدق والوفاء،

- إنه خيـرٌ لى أن أسرق الخـزائن، من أن أكون منتـهكًا لفراش سيدى»[١]

- فلمـا قال الشـاب هذا الكلام للملك، أمـر فنادوا فى نساء مصر،

- فتجمعن جميـعًا أمام الملك، وصرن كلهن فراشًا حول

[١] ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ يوسف، آية (٥٠)

تلك الشمعة،

- وحينما احتشد ذلك الجمع أمام الملك، سلّ لسانًا ناريًا، كلسان الشمعة،

٣١٥٥ - قائلاً: «ماذا رأيتن من شمع الروح المقدّس هذا؟ فسللتّن عليه سيف الفضيحة؟

- لقد كنتن في الربيع والبستان بوجود وجهه، فلماذا أرسلتن به إلى السجن؟

- وأى عاقل يضع غُلاً حول رقبة دمية يدمى الورد بنانها؟!

- وتلك الوردة التى لا تتحمل نسيم السحر، أنّى تستبدل الماء بالسلاسل فى أقدامها؟».

- فقالت النسوة: «أيها الملك السعيد، يا من تبارك التاج والعرش بعظمته!

٣١٦٠ - إننا لم نر من يوسف إلا الطهارة، وإلا العزّة والشرف،

- والجوهر فى صدفه لا يكون طاهرًا طُهر يوسف من الاتهام».

- وكانت زليخا جالسةً هى الأخرى هناك، وقد حرّرت لسانها من الكذب، وروحها من الكيد،

- وقد نظفت رياضات عشقها ألوان مكرها المحتجبة وراء

السّتار،

- وأطلّ نور الصدق من روحها، فتنفّست كالصباح الصادق بالحق،

٣١٦٥ - وأقرّت صراحةً بجرمها، وارتفع فى الأفق قولها «الآن حصحص الحق»

- وقالت: «ليس ليوسف ذنب، ولكنى ضللت الطريق فى عشقه،

- فلقد دعوته لوصالى أولاً، فلم يحقّق لى رغبتى[1] فطردته من أمامى،

- ووقع فى السجن قسوةً منى، واعتورته تلك المصائب مما لحق بى من الأحزان،

- ولما تجاوزت أحزانى الحدّ، رثى حالى لحاله،

٣١٧٠ - فلو أن ظلمًا كان قد لحق به من ظالم، فمن الواجب تلافيه الآن،

- فيوسف خليق بأضعاف أضعاف كل إحسان يصدر من الملك الخيّر».

- فلما سمع الملك هذا الكلام الموزون، تفتّح كالبرعم

[١] ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾، سورة يوسف، آية «٥١»

وازدهر كالوردة،

- وأمر أن يحضـروه من السجن إلى بستان ذلـك القصر البهيج،

- فهو ورقـة ورد باسمة من حديقة الرقّـة، وخيرٌ للوردة الباسمة أن تكون فى البستان لا فى السجن،

٣١٧٥ - وهو ملك سعـيد الحظ فى مملكة الروح، ومـقام الملك لا يكون إلا فى أعلى العرش.

خروج يوسف من السجن، وإعزاز ملك مصر له، ووفاة عزيز مصر

- هناك قانون عتيق فى هذا الكون، أنه لا حلاوة للحياة بغير مرارة،
- فالطفل يقتات الدماء فى الرحم تسعة أشهر، حتى يخرج إلى الحياة بوجه كالقمر،
- وما أكثر الصعوبات التى يلقاها الياقوت فى الصخر، حتى تمنحه الشمس المتوهجة لونه،
- وحينما أمعن ليل يوسف فى الطول، كان طلوع الصباح هو الوسيلة لعلاجه،

٣١٨٠ - وحينما ثقلت وطأة الحزن على قلبه كالجبل، ارتفعت شمسه من وراء هذا الجبل،

- وصدر أمر الملك إلى المقربين فى بلاطه أن يعظموه ويكرموه،
- فخرجوا من إيوان الملك، المتبوئ عرش الشمس، إلى ميدان قطره فرسخان،
- وعلى كلا الجانبين حتى السجن اصطفت الخلائق، مظهرةً زينتها،

- ما بين غلمان متمنطقين بأحزمة ذهبية، مختالين في ملابس مزركشة،

٣١٨٥ - وبين مطربين في صورة الشموس، يغنون بالعبرانية والسريانية،

- وحشود من الفرسان المهرة، يتباهون مع بعضهم بخيولهم العربية،

- أما عظماء مصر، الذين لا حصر لهم، فأخذوا ينثرون العطايا من كل جانب،

- وشق الفقراء في كل صوب ملابسهم، وأذيالهم أملا في العطاء،

- وحينما اتجه يوسف إلى الملك بملابسه الملكية الخاصة،

٣١٩٠ - على صهوة جوادٍ أُغرق من قدمه حتى مفرقه، بالذهب والجواهر،

- فقد كانوا ينثرون في طريق حصانه أطباق المسك والعنبر من كل جانب،

- ويلقون بأكياس الدّر والجواهر، فيخلّصون بذلك الفقراء من فقرهم،

- وحينما ظهر موكب الملك، ترجّل عن حصانه السريع،

- فألقوا بالأطلس والحرير تحت أقدامه، فعلا حتى صارت قدماه بإزاء رؤوسهم،

٣١٩٥ – فكان يمشى فوق الخزّ والحرير، ويتجوّل على الأطلس كقمر السماء،

– ولما علم الملك بقرب قدومه، أسرع كالحظّ لاستقباله،

– فضمّه فى حضنه بشدّة، كالسّروة الوردية الوجنات، وشجرة الشّمشاد الملوّنة،

– وأجلسه على العرش بجواره، واستطرد فى الحديث معه بأسئلة لطيفة،

– وفى البداية، سأله تأويل رؤياه، فسالت شفته الحلوة بالحقائق،

٣٢٠٠ – ثم سأله بعد ذلك أسئلة متفرقة عن كل أمر، وفى كل مجال،

– فأجابه إجابة جذابة حلوة، تملكته النشوة من جرائها،

– وفى النهاية قال له: «هذه الرؤيا التى رأيتها، وسمعت منك بوضوح تأويلها،

– كيف لى أن أتصرف بشأنها، فأجنّب الخلائق أحزانها؟»

– فقال: «ينبغى فى أيام الرخاء، حين لا يبطئ السحاب ولا الأنهار،

٣٢٠٥ – أن ينادى فى كل بلد، بأن على الشعب ألا يحترف إلا الزراعة،

– وأن يحفروا الصخر الصلد بأظافرهم، ويسقوا

المحاصيل بعرق جبينهم،

- فإذا ملئت السنابل بالحب، فليخزّنوها للزاد كما هى،

- فقد نبتت الأسنّة من جسدها، لتكون ضارية بالرماح فى وجه أعداء السنابل،

- وحينما تظل السنابل فى مخازنها، فإن يوم القحط لن يأتى،

٣٢١٠ - فيحمل كل شخص - لحلكة حياته - قدر حاجته من تلك المئونة،

- بيد أنه لا بد لكل عمل من كفيل يكون له من الحكمة خير دليل،

- ويعرف غاية هذا الأمر بالمعرفة، ولذا يتمكن من تنفيذه،

- وقلّما يوجد كفيل مثلى، خبير بكل شىء فى الدنيا،

- ففوّض إلىّ تدبير هذا الأمر، فإنه لن يظهر شخص جديرٌ به مثلى[١]

٣٢١٥ - فلما رأى الملك منه هذه الحنكة، رفع من شأنه فى

[١] سبق أن أشرت أن الجامي قد اقتبس مضمون هذه الأبيات من قوله تعالى: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾. سورة يوسف. آية(٤٧)
أما الأبيات التالية فمضمونها مقتبس من قوله تعالى: ﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ يوسف. آية(٥٥).

مملكة مصر،

- وجعل الجيش تحت إمرته، والأرض له ميدانًا،

- وأجلسه على العرش الذهبى مكانه، ونادى به عزيزًا لمصر معززًا،

- فكما كان يضع قدمه فوق العرش، كانت دنيا بأسرها تطأطئ رأسها تحته،

- وكلما كان يذهب من الإيوان إلى الميدان، كانت أصوات الحراس تشق عنان السماء،

٣٢٢٠ - وكان أمامه آلاف من ساحبى الركائب فى كل ناحية يطوف بها،

- وفى كل إقليم كان يمر به راكبًا، كان جيشه يفوق الحصر، وكما وهب الله يوسف هذه الرفعة، منحه عزةً بقدرها[١]،

- وتلاشت عن عزيز مصر سعادته، ونكست أعلام عزته،

- ولم يتحمل قلبه وقع هذا الضرر، فسرعان ما أضحى هدفًا لسهم الأجل،

- وأدارت زليخا وجهها إلى حائط الحزن، وانحنى

[١] ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ يوسف. آية (٥٦)

ظهرها من عبء هجر يوسف،

٣٢٢٥ - فلا بيتها عامر بجاه عزيزها، ولا قلبها متحرر من حزن يوسف[١]

- فالقدر الذى يمهل فى أمر الحب، ويتعجل أمور الكراهية، عمله فى دار الحرمان هذه هو:

- أن يرفع واحداً إلى السماء كالشمس، ويطرح الآخر أرضاً كالظلال،

- فما أسعد ذلك الحكيم الذى لا يلقى بالاً لصنعه فى كل شأن وأى أمر،

- فلا هو يفرح بإقباله، ولا تذوب روحه كمداً حين يدبر عنه.

[١] يقول الطبرى فى تفسيره الآية السابقة: «لما قال يوسف للملك ﴿اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم﴾ قال الملك فولاه فيما يذكرون عمل أطفير - عزيز مصر - وعزل أطفير عما كان عليه...» تفسير الطبرى: جـ١٣ ص٥.

فى شرح حال زليخا بعد وفاة عزيز مصر واستيلاء محبة يوسف عليها، وابتلائها بالمحنة وألم فراق الهجر

٣٢٣٠ - إن القلب الذى يحزنه العشق، لا يتسع لأى حزن آخر أو فرح،

- فلا يقوى على تحمّل حزن آخر، ولا تسرّه أفراح المحيطين به،

- فلو أصبحت الدنيا بحرًا للأحزان، وبرزت أمواج الأسى كالجبال،

- فإن ذيل قميصه لا يبتل من الماء، ولا يتأثر بما به من أحزان،

- ولو هيّأ الزمان حفلاً للطرب، لولّى هو وجهه صوب السعادة الخالدة،

٣٢٣٥ - وأعرض عن حفل السعادة هذا، غير مريد أن يقلّ حزنه قدر شعرة،

- فقد كانت زليخا طائرًا حزين الأنغام، ضاقت بها الدنيا فصارت كقفص الطيور،

- وفى ذلك اليوم الذى حالفتها فيه السعادة، وكانت حرمة المنزل روضة فى أحاسيسها،
- وكان العزيز يبسط على رأسها الظل، وكان غصنًا بهيجًا يظلها بظله،
- وتجمعت لديها كل أسباب السعادة، وكانت لها وجنة متوقدة كالشمعة،

٣٢٤٠ - ولكن أحزان يوسف ما كانت لتفارقها، وما كان لسانها يسلو الحديث عنه،
- ولما ذهب العزيز عنها، ولم يبق لها شىء من أسباب السعادة،
- كان طيف وجه يوسف حليفًا لها، فكان أنيس قلبها الجريح،
- فكانت تولى وجهها صوب أطلال ذكراه، وتتّخذ لها مسكنًا فى زوايا الغمّ،
- وما كانت تأكل أو تنام لفراقه، وكانت تهطل من عينيها الدم وهى تقول:

٣٢٤٥ - «ما أطيبه زمنًا ذلك الذى أسعدنى فيه الحظ، فكنت مع الحبيب فى قصر واحد،
- والقلب خالٍ من الأعباء برؤيته، فقد كان يتمتع بجماله كل يوم مائة مرة،

- ولما حرمنى الحظ تلك السعـادة، ألقيت به فى السجن محرومًا ومظلومًا،
- وكنت أشق طريقى فى الخفاء ليلاً إلى السجن، لأتملأ ذلك الوجه القمرى،
- وكان باب ذلك المنزل الذى يـقيم فيـه وحائطه يزيلان صدأ الحزن عن قلبى نهارا،
٣٢٥٠ - وقد بعـدت اليوم عن كل ذلك، وبقيت مـتألمة القلب مهجورة الجسد،
- لا أملك منه إلا ذكرى فى الفؤاد، ولا أتحـرّر منه وقتا من الأوقات،
- وكيف أبقى حيّةً لو فـارقنى طيفه؟ إن ذكراه هى روح جسمى»،
- وكانت تقول هذا الكـلام متأوهة، فتضـرم آهتها النار فى الشمس والقمر،
- وكامـتداد مدّة الألف فى كلمـة (آه) كان دخان آهتـها ينعقد مظلة سوداء فوق رأسها،
٣٢٥٥ - وما كـان لها مـلاذ من شمس الحـادثات فى وقت من الأوقات إلا تلك المظلة،
- وما كانت تلك المظلة وقاية لها، بل كانت جنة للسّماء من سهامها،

- فلو لم تصبح حائلاً بين سهامها وبين السماء،
لاخترقت صندوق السماء،
- وكانت تصب دموعها قانية من عينها على الدوام، لا
ليست دموعًا بل دم خالص،
- ولما اعترتها الحمّى من حرقة قلبها، سكبت أهدابها
الماء على شفتيها،
٣٢٦٠ - ولم تكن تزيل تلك الدموع القانية من وجنتها، وكأنها
تريد وجهها أحمر كلونها،
- ولما كانت تطلى وجهها بحمرة تلك الدموع، فإن
رباط المحبة كان يتجدد فى قلبها،
- فهى لم تحضر مالاً فى ظاهر الأمر، وإنما أعدّت دم
الكبد صداقًا لتلك الرابطة،
- فتارة تمزّق وجهها الوردى بأظافرها، وكانت ينابيع
الدم تنساب حينما تفتح عينيها،
- فكانت عيناها مثل محبرتين، تكتب بهما سطور النجاة
من أحزانه،
٣٢٦٥ - وتارة أخرى تمزّق صدرها وقلبها، وتمحو كل شىء من
روحها غير صورة الحبيب،
- وثالثة تمرغ وجهها البائس فى التراب، صائحة من
أعماقها الجريحة،

- وكانت تدق بيـديها على ركبـتيها، فـتُحِيلُ اليـاسمين بلون النيلوفر،

- وكأنما كانت تقـول: «حتى أكون جديرة بحـبّه، فإنى نيلوفر لو أنه صار شمسًا،

- ومادام الحبيب شمس المـشرق، فلا عمل لى سوى أن أكون «نيلوفر»،

٣٢٧٠ - وكانت تدق قَبْـضَةَ يدها على قلبها كـشجرة الصنوبر، وتعض أصابعها كقصب السكر،

- فكانت أصابعـها الجريحة تـنقش كفها الخـالية من كل نقش،

- وكانت تتخذ من أصابعها الدامية أقلاما، ومن راحتها الكافورية أوراقا،

- وكانت تكـتب فيهـا كلمة الحب دون أن تكتب كـلمة غيرها،

- بيد أن حبيبها الذى يـخترق ما وراء المكتوب، ما كان يقرأ شيئًا من قصتها فى تلك الورقة،

٣٢٧٥ - كان هذا شأنهـا سنوات عديدة،وكان هذا ألمها وتعـبها من جرّاء هجره،

- وأظلم شبـابها بسبب الفلك العـجوز، وصار شـعرها الحالك فى لون اللبن،

- وعلا مفرقها صباح الشيب، وفضّ الليل مجلسه،
وصبّ الكافور مسكه في مزرعة،
- وولّى الغراب من سهم القدر، واتخذ مكانه البوم عشه،
- ولا يخطر ببال عجوز في بستان الكون، أن يتخذ البوم مكان الغراب مسكنه،
٣٢٨٠ - وغسلت الدموع سواد نرجسها، وسرى البياض في سواد عينها،
- فقد كانت عينها متشحة بالسّواد في المسّرات، تحت هذا السقف ذي القاعدة المعوجّة،
- فلماذا تحولت إلى البياض حين صارت مكلومة من اليأس؟
- ربما سلكت هذا الأمر تقليداً لبلاد الهند، فالأمر معكوس عند الهنود،
- وسرى الذبول إلى ورد وجهها، وتصدعت صفحة نسرينها،
٣٢٨٥ - وتلك الثنية التي كانت تضفي على حاجبها ضرباً من الدلال، أدلتها الشيخوخة على وجهها،
- إن أحداً لا يذكر في بناء الكون العتيق أن الماء يتموج دون أن يحركه النسيم،

- بيد أنه هبّ النّسيم أم لم يهب، قد ملت الأمواج صفحة وجهها المشبه صفحة الماء،
- وانحنى سروها الباسق من عبء العشق، وباتت رأسها نجيّة قدميها كالحلقة،
- فكانت من رأسها إلى قدميها خارج مجلس الوصال كحلقة الباب من حظها المعكوس،

٣٢٩٠ - ولما ضاعت قوة إبصارها في هذه الأرض المشبعة بدماء الخلائق،
- كانت رأسها قد تدلّت بسبب انحناء ظهرها، وكأنما كانت تبحث عن بصرها الضائع[١]،
- وكانت تقضي الشهور والسنوات في تلك الأطلال، ورأسها خالٍ من التاج، وقدمها عارية عن الخلخال،
- وكتفها خالية من الملابس الحريرية، وأذنها مجردة من فصوص الجواهر،
- ورقبتها عطل من الطوق المرصع، وفارق وجهها القناع الذهبي،

[١] واضح تأثر الشاعر بالإسرائيليات في هذا المجال، ذلك أنه تأثر بما ذكره وهب بن منبه في تصوير حال زليخا بعد موت زوجها، حيث يقول: «.... ذلك أن زليخا مات زوجها ويوسف في السجن وذهب مالها وعمى بصرها بكاءً على يوسف....» تفسير القرطبي. ص ٣٤٤٢ طبع دار الشعب.

٣٢٩٥ - وتحت جبينها بساط من التراب، ولِبَنَةٌ فى نظرها أفضل من مهد الحرير تبسطه الحور،

- واللبنة تحت وجهها مع ذكراه هى وسادة مربعة من الجنة،

- وفى هذه المحنة، التى تحدثت عن طرف منها، وثقبت جوهر مائة حكمة لشرحها،

- ما كان يجرى على لسانها غير يوسف، وما كان لروحها راحة غيره،

- وفى ذلك الوقت الذى كانت تملك فيه كنوز الفضة والذهب وآلاف الصناديق المليئة بالدرر والجواهر،

٣٣٠٠ - كانت تلقى بكنوز الذهب والفضة تحت قدمى كل شخص يُسمعها قصة يوسف،

- وكانت تملأ فمه حتى حافته بالجواهر والدّرر، كالصندوق الملىء بالمجوهرات،

- وداومت على هذا العطاء الذى كانت تتصف به، حتى خلت يدها من كل ما تملك،

- وقنعت المسكينة بملابس صوفية، وتمنطقت فوقها بمنطقة من ليف النخيل،

- وأغلق المحدثون عن يوسف شفاههم، وجلسوا قانعين بالصمت،

٣٣٠٥ - ومضى ذلك الزمان الذى كانت تجد فيه غذاءها بسماعها قصته من شفتى كل ذى عقل،
- واستقر رأيها على التحرر بالصوم، وتشييد منزل على طريق يوسف،
- حتى تستقبل غذاءها من صوت جيشه، حينما يمر على طريقها،
- فياله من مسكين ذلك الذى خارت قواه، وأفلت زمام الاختيار من يده،
- وحرم من وصال أحبته، وأمسى لحن سروره غير متوافق النغمات،
٣٣١٠ - فليست له طاقة كي يصل إلى حبيبه، وليس لديه قوت من قاصد دياره،
- فتارة تناجي الريح عنه، وأخرى تبحث عن شبيه له في الطيور،
- وحينما ترى عابر سبيل على الطريق، على وجهه غبار السفر،
- تقبل قدميه لأنه من مدينة الحبيب، وتغسل غباره لأنه من تلك الديار،
- وما كانت لها قدرة على النظر لو مرّ سلطانها ممتطيًا جواده،
٣٣١٥ - ولكنها كانت تقنع بغبار الطريق، وتسرّ بصوت جيشه.

مجيء زليخا على قارعة طريق يوسف، وإعداد كوخ من الغاب وسرورها لمرور جيشه

- حينما ملّت روح زليخا من الوحدة، أقامت كوخًا من الغاب على طريق يوسف،
- وأحاطوه بسياج من الغاب، يملؤه الصياح كطائر "الموسيقار"[1]،
- فحينما كانت تشرع فى النواح من الفراق، كانت ترتفع من كل ناى نغمة منفصلة،
- وحينما كانت تشتعل فيها نار الهجر، كان لهيبها يضطرم بسبب آهتها فى كل غابة - فيه -
- وكانت قد ارتمت متعبة داخل ذلك السياج، وكأنها صيد استقرت فى جبينه السهام، **٣٣٢٠**
- ولكن تأثرها بمذاق عشقه، جعل كل سهم فى مذاقها عودًا من قصب السكر،
- وكان فى حظيرة يوسف جواد من سلالة الشياطين، قاهر للفلك، محطم للسماء،

[١] اسم طائر منقاره ملىء بالثقوب، يصدر منها كثير من الأصوات الموسيقية.

- فهو حصان سـريع كأنه الفلك الفيروزجى، وهو أبلق كما لو كانت به آلاف الوصلات من الليل بالنهار،
- وبه علامتان من النور والظلام، متـساويتان كأنهما ليل الزمان ونهاره،

٣٣٢٥ - غـارت من ذيله ثريا السمـاء، وتحطمت احناءة البـدر غيرةً من حوافره،
- ففى كل حـافر من حـوافره هلال من الذهـب، سـمّر بنجوم فضية متألقة،
- وحينما كانت تجرح الحـجر الصلد طعنة حافره، كانت النجوم تتطاير من أهلته،
- ولو طار منه حافـره وهو يجرى، لا ستقر فـى السماء كالقمر الوليد،
- وكان يسبق الـصيد في ميدان القنص طائـر من جانبه كالسهم،

٣٣٣٠ - ولو اتسع ميدانه بين المشرق والمغـرب لعبره كالبرق فى وثبة واحدة،
- ولو أثارت أقـدامه الغـبار، فـأنّى للريح الصّرصـر أن تلحق به،
- ولم يكن أحد ليرى منه قطرة، رغم أنه كان يمتلئ فى الطريق بقطرات العرق،

- وكان يميل إلى الانسياب وسط ذلك العرق كسيل تجمع من القطرات،
- وكأنه كنز ينساب بالجواهر، مبرأ من ضرر ثعبان السياط،

٣٣٣٥ - ولو هدأ وقنع فى الاسطبل، لخدمته الأفلاك برقبتها،
- ولو مدّ نحوها رأسه، لمنحته الماء من عين الشمس فوق راحة القمر،
- ولأعدت له قمحه كل مساءٍ من برج السنبلة، وعلفه من درب المجرّة،
- وكانت قد هيأت لقمحه غربالاً من خيمة الأبدية ذات العيون،
- كما اختارت الطيور المسبّحة من السدرة لتجمع الحجارة من قمحه كالحبوب،

٣٣٤٠ - وكان سرجة يشبه الجوزاء، بينما ركابه هلال مضيء من كل جانب،
- فحينما كان يوسف يضع قدمه فى هلاله، كأن القمر قد استقرّ فى الجوزاء حينئذ،
- فكأن يصهل تحت فخذه صهيلاً يمتدّ أميالاً عديدة فى كل اتجاه،

- فما كانت هنا حاجة إلى طبول الرحيل عند من يسمع صهيله فى كل صوب،
- فكانوا يأتون سراعا نحو ذلك الملك، كما تقبل النجوم على القمر،

٣٣٤٥ - وكانت زليخا تخرج من سور غابها بدورها حينما تسمع ذلك،
- وتجلس بحسرتها على رأس طريقه، صائحة حيث يمرّ،
- وحينما كان يصل حشد على الطريق وليس فيه يوسف، كان الأطفال يخبرونها مازحين:
- «هاهو يوسف قد أقبل على الطريق، بوجه يثير غيرة الشمس والقمر»،
- فكانت زليخا تقول: «إننى لا أجد - أيها اللطفاء - فيهم علامة من يوسف،

٣٣٥٠ - لا تجرحوا قلبى بهذه السخرية، فإن رائحة يوسف لا تصل إلى أنفى،
- ففى كل محفل يستقر فيه، تذكو رائحته فى أنف الروح،
- وفى كل منزل يذهب إليه الحبيب، تمتلئ الدنيا بمسك «ختن»،

- وكلما كان يوسف يقبل فى جماعة، وتؤثر هيبتهم فى القلوب،
- كانوا يقـولون لها: «إننا لا ندرى شيـئًا عنه، ولا علم لنا بمقدمه فى هؤلاء القوم»
٣٣٥٥ - فكانت تقول: «لا تخـدعونى! ولا تحجبوا عـنّى مقدم الحبيب!
- فالمعـبود الذى له السيطرة عـلى ملك الروح وحدها، كيف يمكن إخفاء مقدمه (عليها)؟
- ونسيمه ينعش حديقتها، لا،ليست الروح وحدها، بل الدنيا بأسرها
- وحينما يصبح الانتعاش قرينًا للروح، تصبح على علم بروح العالم هذا»
- وحينمـا كانت تسمع تلك الحائرة المهـجورة من الجنود صوت: ابتعد، ابتعد
٣٣٦٠ - كانت تصيح قـائلة: «لقد طال بى العهد بـالبعاد، وأنا صبور فى البعد بمحنه الكثيرة،
- فحتّام أظل مفارقة للحبيب؟ إنه لخير لى أن أفارق روحى،
- فلم تعد عـندى طاقة على تحمل الـفراق، ولا أبحث عنه إلا مكرهة»

- كانت تقـول هذا وتفقد وعيـها، وتسقط وقـد نسيت نفسها،

- وكانت تضطرب من كأس فقدان الوعى، وتذهب إلى كوخها وهى غائبة عن الكون،

٣٣٦٥ - وكلمـا كانت تتنفس فـى ذلك الكوخ من أعمـاقهـا، كانت تصيح وتولول،

- وكان ذلك نظامـها زمنًا، ومـا كان لها عـمل أو شأن غير ذلك.

تشبث زليخا بقارعة طريق يوسف، وعدم التفاته إليها وذهابها بعد ذلك إلى بيتها، وتحطيمها الصنم، وإيمانها بالله تعالى

- إن العاشق والولهان لا يعرف القناعة، بل إن حرصه يزداد ساعة بعد ساعة،
- لا يهدأ بأمنية واحدة لدقيقتين، بل يسعى لتحصيل ما هو أعلى،
- فلو شمّ رائحة وردة لأراد رؤيتها، وحينما يراها يريد أن يقطفها،

٣٣٧٠ - فبعد جلوس زليخا فى الطريق، تطلعت لسعادة الرؤية،
- وذات ليلة، سجدت أمام ذلك الصنم الذى شغلت نفسها زمنًا بعبادته،
- وقالت: «يا من جمالك كعبة روحى! ورأسى موطئ الأقدام فى عبادتك!
- إننى أعبدك دهرًا من روحى، وقد ذهب جوهر الإبصار منى،

- فانظر إلى فضيحتى بعينك، وأعد نور الإبصار إلى عينى،

٣٣٧٥ - فإلامَ أبقى مهجورة من يوسف؟ فهبنى النظر حتى أرى وجهه،

- فليست لى أمنية فى أى وقت أو مكان إلا رؤيته،

- فما دمت قادرا، فحقق لى رغبتى، فإذا حققتها، فإنك تعرف الأشياء الأخرى،

- ولا تسرّ كثيرا بهذه الروح المعذّبة، ولا تسعد بطالعى السيئ،

- فأى حياة هذه التى يعدّ الفناء خيرًا منها، والسير فى طريقه أهون منها؟».

٣٣٨٠ - كانت تقول هذا وتحثو التراب على رأسها، وتبلله بدموعها البكاءة،

- وحينما علت ملكة الشرق عرش المشرق، وارتفع صهيل أبلق يوسف،

- خرجت زليخا كالشحاذة، واتخذت لها ركنًا فى طريقه،

- واستغاثت على عادة المظلومين، وتأوهت من أعماقها، وناحت من قلبها،

- فمن كـثرة مـا كان يعلو من كل صـوب صوت الجند قائلين: «أفسحوا الطريق»

٣٣٨٥ - ومن شدة ما كـان صهيل الخيل يملأ الأسـماع من كل مكان،

- لم يكتـرث أحد بأمـرها من الضـوضاء، صـارت فى حالة لا أراها الله لسواها،

- وأمسى قلبها ممزقًـا من اليأس، وهامت بعيدًا عن حى السعادة،

- فكانت تنوح من ألم قلبها، وتمضى وهى تنثر النار من آهتها،

- ولما عادت إلى منزل أحزانها، أضـرمت نارًا كثيرة فى حفنة من الغاب،

٣٣٩٠ - وأحـضرت ذلك الصنم الحـجرى أمـامهـا، وأطلقت لسانها لتسكين ألمها،

- قائلـة: «يا محطم عزى وجـاهى، أينما ذهبـت فأنت حجر عثرة فى طريقى!

- لقد صار طريق الحظ ضيقا أمـامى بسببك، فجدير أن أدقّ الحجر على قلبى،

- إننى حينما سجـدت أمامك، أودعت نفسى فى طريق الوبال إلى منتهاه،

- إن كل أمر طلبته منك باكيـة، غسلت يدى - بسببه - من رغبة كلا الدارين،

٣٣٩٥ - إنك حـجر، وسـوف أتحـرّر من عـارك بأن أحطمك بحجر»

- قالت هذا، ثم حطمته بحجرصلد، كما فعل الخليل،

- وحينما حطمته بعصبية، عاودتها السكينة بعد ذلك،

- وحينما فرغت من أمر تحطيمه، توضأت بدموع عينيها ودم قلبها،

- وتضـرعت وهى تمرغ وجهـها على الثـرى، وتوسلت بأعتاب الله،

٣٤٠٠ - قـائلة: «يا من استـولى عشـقك على الضـعفـاء من الأصنام وصانعيها وعابديها،

- فإذا كنت - يا رباه - قد وجهت وجهى للصنم، فإنى قد ظلمت نفسى بذلك،

- فتجـاوز عن ظلمى برحمتك، وإنى أخطأت، فـاغفر لى خطيئتى،

- ولشدة مـا سلكت درب المعـاصى، فقد أخـذت منى جوهر الإبصار،

- وبما أنك قد نفـضت عنى غبار الخطيئـة، فردّ علىّ ما أخذته منّى،

٣٤٠٥ - فيصبح قلبى خاليًا من سمة الندم، وأقطف جَنًيا من بستان يوسف»

- وحينما عاد ملك مصر من الطريق، قطعت عليه الطريق من جديد نائحة،

- وكانت تقول: «تعالى الذى جعل الملك عبدًا، يطأطئ رأسه ذلاً وعجزًا،

- ووضع على مفرق غلام مسكين محتاج تاجًا من العزّ والجاه الملكيّين[1]»

- وحينما استقر ذلك الكلام فى أذن يوسف، ذهب عقله هيبةً منه،

٣٤١٠ - وقال لحاجبه: «أحضر هذه المُسبّحة، التى سلبت روحى القوّة والقدرة،

- إلى خلوتى الخاصة، وأحضروها إلى مكان عبادتى،

- حتى أستفسر عن شىء من أحوالها، وأعرف هذا الإدبار والإقبال،

[١] تأثر الجامي هنا بما ذكره وهب بن منبه في هذا المجال، حيث يقول:
«..... وكان يوسف يركب فى كل سبوع مرة فى موكب زهاء مائة ألف من عظماء قومه، فقيل لها: لو تعرضت له لعله يسعفك بشىء، ثم قيل لها: لا تفعلى، فربما ذكر بعض ما كان منك من المراودة والسجن فيسىء إليك، فقالت: أنا أعلم بخلق حبيبى منكم، ثم تركته حتى إذا ركب فى موكبه فنادت بأعلى صوتها: سبحان من جعل الملوك عبيداً بمعصيتهم، وجعل العبيد ملوكًا بطاعتهم..» تفسير القرطبى. ص٤٢٢٣ طبع دار الشعب. القاهرة.

- فإنها منذ أثارت ضجيجًا وثورة بذلك التسبيح، بقيت متعجبًا لما أحدثه من تأثيرٍ عجيب،
- ومالم يكن فى أعماقها ألم، فكيف يكون لكلامها مثل هذا التأثير؟

٣٤١٥ - فلتكن مائتا روح ترابًا لذلك الملك الثاقب النظر، الذى يميّز بآهة أو نظرة،
- نور الصباح الصادق للمستغيثين، وأحاديث الضالين الكاذبة،
- ويكون بعدله طلائع الصباح الصادق لهؤلاء، وبعقابه جزاءً للكاذبين على خداعهم،
- وليس مثل ملوك هذا الزمان، الذين يتذرّعون بالحيل للحصول على الذهب،
- عن طريق كل ظالم متورّد الوجنات فى لون الدينار، ولو لقى مائة شخص الظلم على يديه

٣٤٢٠ - فبديناره الذهبى يحظى بمائة لون من الشرف، والتظلّم منه لغوٌ لا طائل من ورائه».

مجيء زليخا إلى بيت يوسف، وعودة بصرها وجمالها وشبابها بدعائه

- ليس هناك أطيب للعاشـق من أن يصبح عاشقًـا لرفيق طيب الفكر،

- يستقـبله فى خلوة أسراره، ويزيل أعـباء الحـزن عن صدره،

- ويجلس أمامه ويناجيه، ويحكى له الحكايات السابقة،

- فحـينما تخلص يوسف من ضوضـاء الجيش، وجلس فى خلوته،

٣٤٢٥ - دخل الحـاجب من الباب قـائلا: «يا من لا مثـيل له! ومن هو حديث الدنيا بطباعه الحسنة!!

- هاهى المرأة التى أمـسكت بعنان جـوادك فى الطريق، واقفة بالباب،

- قد أمرتنى أن أصـحبها، وأظل برفقتهـا حتى أوصلها إلى البلاط».

- فـقـال له: «اقض حـاجـتهـا، وداوِ قلبـهـا إن كـان جريحًا».

- فقال له: «إنها ليست من قصيرات النظر هؤلاء، حتى تحكى عن حاجتها».

٣٤٣٠ - فقال له: «ايذن لها بالدخول، فتكشف عن وجهها النقاب».

- وحينما أذن لها دخلت خلوته الخاصة مسرورةً كالزهرة فى رقصها،

- وأصبحت كالوردة المبتسمة، وسرّت كالبرعمة، وأخذت تدعو ليوسف وفمها ملىء بالضحك،

- فتعجب يوسف من كثرة ضحكها، واستفسر منها عن اسمها وحالتها،

- فقالت له: «أنا التى اختارتك دون العالم، منذ رأتك،

٣٤٣٥ - وأنفقت الكنوز والجواهر ثمنًا لك،وكرست قلبها وروحها لعشقك،

- وأفنت شبابها حزنًا عليك،وهوت فى تلك الشيخوخة التى تراها،

- واحتضنت أنت حسناء المُلك، ونسيتها هى مرةً واحدة».

- فلما أدرك يوسف من هذا الكلام من تكون، ترحّم عليها، وبكى بمرارة،

- وقال لهـا: «أية حال تلك يا زلـيخا؟ وكـيف بلغ بك الوبال إلى هذا الحد؟»

٣٤٤٠ - وحينما خاطبها يوسف «يازليخا» هوت فاقدة الوعى،

- وغلى شراب الإغماء فى قلبـها، وولّى عقلها من لذة صوته،

- وحينمـا عادت إلى رشدها، شـرع يوسف فى الحكاية معها،

- وقال لها: «أين شـبابك وجمالك؟»، فأجـابته قائلة: «لقد ولّيا بسبب بعدك».

- فـقـال لهـا: «لماذا انحنى سـروك المدلّل؟» فـقـالت: «انصهر فى بوتقة هجرك».

٣٤٤٥ - فقال لها: «ولماذا فقدت عيناك نورهما؟» فقالت: «من كثرة ما غرقتا فى دم فراقك».

- فقال لها: «أين الذهب والفـضة التى كانت لك؟ وأين تاجك وإكليلك؟»

- فقـالت: «كل من تحدث عن حـسنك، ونثـر جواهر وصفك على رأسى،

- نثـرت الرأس والذهب تحت قـدمـيـه، وكـافـأته بنثـر الجواهر،

- وألبسته تاج العظمة، واتخذت من تراب قدميه إكليلا،

٣٤٥٠ - ولم يبق بيدى شيء من العظمة أو الذهب، وها أنذا فى ركن الأحزان حيث ترانى».

- فقال لها: «وما حاجتك اليوم؟ ومن هو ضامن حاجتك اليوم؟»

- فقالت: «لقد مللت من حاجتى، ولاأريد ضامنًا لها سواك

- فلو أصبحت ضامنًا، فاحلف لى على ذلك، وأنا أفك الرباط عن اللسان لشرح ذلك،

- وإلا فإنى أمسك عن شرحه، وأقنع بحزن وألم آخرين»

٣٤٥٥ - فأقسم لها بمنجم الفتوّة، وبمشيّد أركان النبوة[1]،

- الذى تفتحت له الشقائق والرياحين من النار، ووصلته أردية الخلعة من الله،

- أن: «أحقق لك اليوم، فى الحال، كل حاجة أعرفها منك، إن استطعت»

- فقالت له: «أولها: الجمال والشباب، بتلك الصورة التى رأيتها وتعرفها،

[١] يشير إلى نبى الله إبراهيم عليه السلام.

- وثانيها: البصر، لأرى طلعتك، وأجني من روضة وجنتيك وردة».

٣٤٦٠ - فحرك يوسف شفتيه بالدعاء وصب ماء الحياة من بين شفتيه،

- فمنح الحياة لجمالها الميت، وخلع خلعة الإقبال على وجهها،

- وأعاد الماء إلى نهرها الجاف، فانتعشت به روضة شبابها،

- وعلا الشعر الأسود شعرها الأبيض، وبدا ليلها الحالك من صباحها،

- وقلا البياض طررها المسكية، وحلّ النور محلّ ظلام عينيها،

٣٤٦٥ - واختفى الانحناء من قوام سروها الوردى، واختفت التجاعيد من فضتها الخالصة،

- وأضحى الشباب هالة حول شيخوختها، وعادت إلى الثامنة عشرة بعد سنّ الأربعين،

- وصار لجمالها رونق آخر، بل إنه زاد عما كان عليه قديمًا،

- فقال لها يوسف مرة أخرى: «يا طيبة الفكر! إذا كانت عندك أمنية أخرى، فاكشفى لنا عنها».

- فأجابته قائلة: «ليس عندى أمنية أكثر من أن أجلس في خلوة وصالك،

٣٤٧٠ - فأشاهد طلعتك نهاراً، وأضع وجهى على وجه قدميك ليلا،

- وأقع فى ظل سروك الباسق، وأمضغ السكر من ياقوت ضحكتك السكرية،

- فأضع المرهم على قلبى الجريح، وأرى عملى كما أشتهى،

- وأمنح مزرعتى - التى ذبلت واضمحلت - قطرة من ينبوع صحبتك».

- وحينما طرقت هذه الأمنية مسمع يوسف، أطرق صامتًا بعض الوقت،

٣٤٧٥ - وتركز نظره على الغيب، وأخذ فى الانتظار، ولم يجب بالنفي ولا بالإيجاب،

- وكان حائرا بين الإيجاب والنفى، حتى علا صوت جناح جبريل،

- وقد هبط بالوحى يقول: «أيها الملك الشريف، إن الله سبحانه يقرئك السلام،

- ويخبرك - أننا حينما رأينا عجز زليخا، وسمعنا عرضَ توسلها عليك،

- دخل بحـر العطاء فى الغليان من الأمـواج التى أثارها كفاح عجزها،

٣٤٨٠ - فلم أجرح قلبـها بسيف اليـأس، وعقدت لك عليـها بأعلى العرش،

- فاعقـد عليها أنت أيضًا بالرباط الخـالد، فتفكّ بذلك العمل عقدة الحزن من أمرها،

- فتجـد من عين عاطفتنا ألطافا، ويولد لـك من العقد جواهر». [١]

[١] تأثر الجامى فى هذه الأبيات والأبيات التى تلتها - وهى التى تصوّر زواج يوسف - بما ذكره وهب بن منبه، حيث يقول: «ثم زفت إليه فقام يوسف يصلي ويدعو الله، وقامت وراءه فسأل الله أن يعيد إليها شبابها وجمالها وبصرها حتى عادت أحسن ما كانت يوم راودته، إكرامًا ليوسف عليه السلام لما عفّ عن محارم الله...». تفسير القرطبي، ص ٢٤٤٣.

عقد يوسف على زليخا بأمر الله تعالى وزواجه منها

- وحينما صدر أمر الله ليوسف ليعقد العقد الدائم على زليخا،
- فإنه وضع الأساس للمحفل الملكى، ووفّر فيه وسائل الطرب،

٣٤٨٥ - ودعا ملك مصر وعظماء المملكة، وأجلسهم على عرش العز وصدارة الجاه،
- وبقانون الخليل، وعلى دين يعقوب، وبالقانون الجميل، وبالصورة اللائقة
- عقد لنفسه على زليخا، فأدخل الجوهرة الفريدة فى عقده،
- وكان ناثرو الهدايا عليه من الأرض حتى السماء، وهَنأه الملك وجيشه،
- ونهض يوسف معتذرًا، آسفًا لمن فى مجلسه - على تجشمهم عناء الحضور،

٣٤٩٠ - وقنع بسؤال زليخا، وأرسلها إلى خلوته الخاصة،

- وأسرعت أمـامها الجـوارى فطأطأن الرءوس أمامـها، ووضعن فى طريقها الأكاليل إعزازاً لها،
- ومنحنها الزينة بالملابس المزركـشة، متهللات لجـمالها الجذاب،
- وحينما هدأت ضوضاء الناس، واتجه كل إلى منزله،
- وتقنع عروس القمر بنقاب الليل، ونشر ستائره الذهبية على وجه الأرض،

٣٤٩٥ - وأضـاءت مصـابيح نجوم الدنـيا تحت سـقف السمـاء الفيروزجى معلنةً الانتصار،
- وعلق الفلك عقد الثريا، ومـزج الشفق الياقوت الندى بالجواهر،
- وأمست خـيمـة الليل حجابًا لأسـرار الدنيا، فـخلفه يتناجى عالم بأسره،
- وجلس المحارم فى الخلوة مـعًا، وربطوا القناع المسكى على وجه الآخرين،
- وكانت زليخا تنظر فى حرمـها الخاص، وقلبها يرتجف فى صدرها قلقًا،

٣٥٠٠ - وكـانت تقـول: «هذا الظمـآن الذى تهطل عـينه على شفتيه، هل هو يقظ أو نائم؟

- وسيروى من هذا الظمأ أم لا؟ وستخمد هذه الحرقة في قلبه أم لا؟»

- وكانت تملأ عينها تارة بدموع الفرح، وأخرى بالدم خوفًا من اليأس،

- وتارة كانت تقول: «إننى لا أصدق أن يطيب يومى بهذه الصورة».

- وتارة أخرى تقول: «إن رحمة الحبيب واسعة، واليأس من ألطافه حرام».

٣٥٠٥ - وكان قلبها في صراع بين هذه الأفكار، فكانت تبدو مسرورة تارة، حزينة أخرى،

- حتى ارتفع الستار عن الباب فجأة، فشاهدت قمرًا بلا قناع قد زيّن المنزل،

- وحينما وقع بصرها عليه، داومت النظر إلى طلعته،

- وأفقدها إشراق ذلك النور وعيها، وابتعدت ظلمة الظل من نور الشمس،

- وعندما رأى يوسف رسوخ مذهبها في العشق، وفقدان وعيها بسبب مشاهدتها له،

٣٥١٠ - أجلسها على السرير رحمةً منه وحنانا، وجعل من أحضانها وسادةً لرأسه،

- فأعادت رائحته الوعى إليها، وأيقظتها من نوم دلالها،
- ولما ألقى ببصره إلى ذلك الوجه الذى كان يغض الطرف عنه، وكان قلبه فى نفرة منه زمنا ،
- شاهد وجها جميلاً، أشبه بالصورة الصينية على صفحة الديباج،
- جميل مستحب كطلعة الحور، بمنأى عن زينة الماشطة. . . .[1]

٣٥١٥ - وعندما رأى يوسف جوهرها غير مثقوب، جنى من بستانها برعمةً لم تتفتح،
- وقال لها: «كيف ظل هذا الدّر غير مثقوب؟ وكيف بقيت الوردة دون تفتّح برياح السّحر؟»
- فقالت له: «إنى ما شاهدت أحدًا سوى العزيز، إلا أنه لم يقطف برعمًا من بستانى،
- فمع أنه كان سريع الخُطى فى طريق الجاه، فإنه كان يتعثر فى ساحة السرور!
- وكنت قد شاهدتك فى النوم، أثناء طفولتى، وسألتك عن اسمك وعنوانك،

[١] أفرط الشاعر فى الأبيات التالية فى الوصف الحسّى، ويعدّ هذا الأمر من المآخذ التى تؤخذ على الجامى فى مثل هذه القصة. ومن هنا فقد آثرت حذف ترجمة هذه الأبيات. (المترجم)

٣٥٢٠ - فنشرت بساط الرحمة، وأسلمت لى هذا النقد،
- فصنتُ هذا النقد - بعيدًا - عن كل شخص، فلم يقرب جوهرى سنٌ ماس إنسان،
- فحمدًا لله، أن نقد الأمانة هذا، الذى قصرت عن الوصول إليه يد الخيانة،
- قد أسلمته لك سالمًا، مع أنى ضربت بسيف الخوف مائتى مرة».
- وعندما سمع يوسف هذا الكلام من ملائكية الوجه تلك، تضاعف حبه لها بسببه،
٣٥٢٥ - فقال لها: «يا من تتفوقين على الحور فى الجمال، أليس هذا خيرا مما كنت تريدينه قبل هذا؟»
- فقالت: «بلى! ولكن اعذرنى، فقد كنت مولهة من ألم العشق!
- وكان بقلبى شوق لا نهاية له، وبروحى ألم لا دواء له،
- ذلك أن لك صورة، بما أنت عليه من حسن، يزداد بها كل لحظة شوقى وسكرى،

- فمـا كان فى طاقـتى صبـر على بعادك، فـاعفُ عن إساءتى[1]،

٣٥٣٠ - وأنّى للمعـشوق أن ينازع العاشـق فى خطأ يصدر عن كمال العشق؟!».

[١] يقول الخازن: «... فزوّج الملك يوسف امرأة العزيز بعد هلاكه؛ فلما دخل يوسف عليها قال لها: «أليس هذا خيرًا مما كنت تريدين؟ قالت له: أيها الصديق لا تلمنى فإنى كنت امرأة حسناء ناعمة كما ترى، فى ملك ودنيا، وكان صاحبى لايأتى النساء، وكنت كما جعلك الله فى حسنك وهيئتك، فغلبتنى نفسى وعصمك الله....» تفسير الخازن. جـ٣ ص٢٣٩.

تغلب محبة زليخا على يوسف وبناؤه معبدًا لها

- إن من يخطو بالصدق فى طريق العـشق، يتحول إلى معشوق فى نهاية المطاف،
- ومن ذا الذى جـاء إلى طريق العـشق الصـادق، ولـم يصر المعشوق عاشقًا له؟
- وكان الصدق حظ زليخـا فى طريق العشق، حتى إنها سحقت عمرها كله فيه،
- ففى طفولتها، حينما كـانت تلعب،كانت متيمة بعشق لعبها،

٣٥٣٥ - وحينما كانت تـشغل نفسها باللُّعب، ما كـان لها لعبة غير ممارسة العشق،
- وكانت تسـمّى إحدى اللعبتـين اللتين كانت تضعهـما أمامها عاشقًا، والأخرى معشوقًا،
- فلما ميزت بين يمينهـا وشمالها، وتمكنت من الجلوس والنهوض،
- ووقعت أسـيرة فى شـباك عشق يوسف، مـن حظها اليقظ، فى تلك الرؤيا التى رأتها،

- فإنها نفضت من قلبها عشق مُلكها، وقصدت مسافرة إلى مملكة مصر،

٣٥٤٠ - وأقبلت من مدينتها إلى مدينة يوسف، لا من أجلها، بل من أجل يوسف،

- وقضت شبابها في التفكير فيه، وأنفقت عمرها على أمل وصاله،

- حتى وقعت فى الشيخوخة رغبة فيه، وعميت أملاً فى رؤيته،

- وحينما أصبحت مبصرةً وشابة بعد الكهولة، زاد حبها لوجه روح العالم هذا،

- وبعد ذلك قضت عمرها كله فى عشقه، وجعلت بقلبها رباط وفائه طول الدهر،

٣٥٤٥ - ولما تجاوز صدقها كل حدّ، فإن العشق سرى فى النهاية إلى يوسف،

- وهكذا أضحى قلب يوسف ملتهبًا بحبها، حتى إن الخجل كان يعتريه من ذلك اللهيب

- وهكذا طرقت تلك الفاتنة طريق قلبه، حتى إن صبره ما كان يبقى معه ساعة بسببها.....[1]

[١] وصف حسي غير لائق فى البيتين الآتيين، وقام المترجم بحذفهما.

- وحينما تمزق الحجاب على زليخا بسببه، أضاءه شعاع من شمس الحقيقة،

- وغلبت عليها شمس الحقيقة، حتى تلاشى يوسف فيها كالذرّة،

٣٥٥٠ - حقا!! لقد انصهر عمرها بالمحنة، في بوتقة العشق المجازى،

- فلما طلعت شمس الحقيقة، لم يعد أمام عينها أى حائل،

- وتعلقت بها جذبات الحقيقة، وفرّت من كل ما كان غير مجد[١]

- وذات ليلةٍ، فرّت من قبضة يوسف، وكانت تبحث عن الخلاص منه متعثرة،

- وحينما أطبق بيده على قميصها من الخلف، تمزق قميصها فى يده،

٣٥٥٥ - فقالت زليخا: «إن كنت قد مزقت قميصك على جسدك قبل ذلك،

[١] يقول وهب بن منبه: «وفيما روى أن الله ألقى فى قلب يوسف من محبتها أضعاف ما كان فى قلبها، فقال لها: ما شأنك لا تحبينى كما كنت أول مرة؟ فقالت: لماَ ذقت محبة الله شغلنى ذلك عن كل شىء».
تفسير القرطبى. ص ٣٤٤٤ طبع دار الشعب .

- فإنك قد مزقت قـميصى الآن بدورك، ولحق بى جزاء ذنبى،
- وإنى غـير خـائفة من الـفرق فى هذا الأمـر، فنحن متساويان فى تمزيق القميص».
- وحينما رأى يوسف توجهها إلى العبودية، وأن لقلبها نصيبًا من الحياة فى تلك النية،
- شيّد لها قصرًا من الذهب، لا ليس قصرًا، بل إنه مسجد،

٣٥٦٠ - لبناته من الفيروز، كأنه قـبة السماء، أضحت الأرض جنة من رقة صنعه،
- ملئ من أرضه حـتى سمائه بالنقوش والرسـوم، فقد أوقف عليه المهندس فكره ونظره،
- فنور الحظ متلألئ من نوافذه، ورسـول السعادة مسرعٌ من أبوابه،
- ولقـد كانت عين الـسـوء بعـيدة عن غـرفـه العاليـة، وأسطحه مقوسة كحاجب الحور،
- وتستمـد الشمس منبعـها من نور نقوشه، فـمحال أن يوجد بسببها ظل داخل المنزل،

٣٥٦٥ - ومن بستان نخيل حائطه، نمت الأشجار من رشح قلم السعداء،

- وقد استقر علـى كل غصن طائر، بيد أن منقاره أغلق دون التغريد،
- وقد أقيم عـرش مبـارك داخل القصـر، بعضـه من الذهب والآخر من الياقوت الخالص،
- وبه مائتـا صورة نادرة علقت به كـما علقت به آلاف الدّرر الغالية،
- وأخذ بكـل الحب يد زليخا، وأجـلسها علـى العرش وجلس،

٣٥٧٠ - وقال لهـا: «يا من أخجلتنى بأنواع العـطف حتى يوم القيامة،
- فى ذلك الوقت الذى كنت تسميننى فيه عبدًا، شيّدت قصرًا للكرامة باسمى،
- وزينتـه بكل زينة ممكنة من الياقـوت والذهب، مما هو أحمر وأصفر،
- وقـد شيّـدت الآن أنا أيضا منـزلاً للعبـادة من أجلك للشكر على عطائك،
- فاجلسى فيه لشكر الله، الـذى أنعم عليك نعمًا بعدد شعر رأسك،

٣٥٧٥ - فقد منحك الغنـى بعد الفقر، والشبـاب بعد الضعف والشيخوخة،

- ووهبك النور فى العين التى ذهب نورها، وفتح بعد ذلك باب الرحمة أمام وجهك،

- وبعد عمرٍ تجرعتِ فيه كل ألوان الحزن، أوصلك الله إلى ترياق وصالى».

- وكانت زليخا هى الأخرى قد جلست على العرش الملكى، بتوفيق من الله،

- وكانت قانعة فى تلك الخلوة بوصال يوسف وفضل الله.

رؤيا يوسف أبويه فى المنام، وطلبه الموت من الله تعالى، واضطراب زليخا

٣٥٨٠ - واحسرتاه على ذلك الشخص السعيد، الذى يحمل متاعه فجأة إلى بلاط الوصال،

- فيأخذ حسناء السعادة فى أحضانه، وينسى آلام الهجر،

- ولا يرى قلبه غباراً للأحزان، ويمضى أيامه فى سعادة،

- وفجأة، تهب رياح الشؤم، وتروج سموم الفراق،

- وتقتحم رياض الوصال بجرأة، وتستأصل أغصان شجرة الأمل،

٣٥٨٥ - فحينما وجدت زليخا رغبة قلبها فى يوسف، واستراح قلبها بوصاله الدائم،

- فإنها كانت تعيش بقلب مبتهج، وخاطر سعيد، وكانت تحيا متحررة من أحزان الحياة،

- وطالت أيام وصالها، حتى تخطّى عمرها الأربعين، وهى فى بداية تلك السعادة،

- وبالتدريج، أعطت تلك النخلة المثمرة ثمرة الابن، بل ابن الابن،
- وما كان فـي قلبها أمل من الدنيا إلا وتحـقق لها على مائدة الأمل،

٣٥٩٠ - وذات ليلة وضع يوسف رأسـه فى المحراب، فاعـترض قاطع النوم طريق يقظته،
- فرأى والده جـالسًا مع أمه، مـتشحـين بنقاب النور، ووجههما مضىء كالشمس،
- ونادياه قائلين: «اعلم يا بنى أن أيام الفراق قد انتهت، فأسرع،
- إن كنت تريدنا فطأ بقـدميك على ماء الجـسد وطينه، واتّخِذ طريقك إلى مقام الروح والقلب».
- وحينمـا استيقظ يوسف من تلك الرؤيا، اقـترب من زليخا تاركًا المحراب،

٣٥٩٥ - وقص عليها حكاية الرؤيا، وشرح لها تأويله للرؤيا،
- فـألقى بهـا من جرّاء ذلك فى آلام الـفراق، وأشـعل نارالهجر فى روحها،
- وخـرج قلب يوسف عن طوره، وزاد اشـتـياقُـهُ إلى مملكة البقاء،

- ورفع قدمه من دار الحرص هذه، وسلك طريق دار الأسرار الفسيحة،

- وحمل متاع الأنس من دار الفناء، ورفع أكف الدعاء نحو محراب البقاء،

٣٦٠٠ - قائلا: «يا قاضى حاجة البائسين، ومتوّج رءوس العظماء!!

- يا من وضعت فوق رأسى تاج السعادة، التى لم تمنحها لسعيد الحظ قط،

- إن قلبى قد ملّ هذه الدار الفانية، وضاق من تدبير أمور الحكم،

- فحررنى من نفسى، وأرشدنى إليك، وهبنى ملك الأبد،

- إن السالكين الذين سلكوا طريق الدين قد نالوا الدرجة العالية بقربك،

٣٦٠٥ - فأخرجنى من عداد هذا وذاك، وأوصلنى إلى عزة قربهم» .[١]

[١] اعتمد الجامي في نظم هذه الأبيات - التي جرت على لسان يوسف - على قوله تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾. يوسف. آية «١٠١».

- وحينما سمعت زليخا هذه المناجاة،أصاب قلبها جرح عميق،

- فقد أدركت يقينًا أن دعاءه هذا سيستجاب بسرعة،

- فما ينطلق سهم من قوسه، ويتأخر أبدًا فى الوصول إلى هدفه،

- فدخلت في حجرة مظلمة ضيقة، وفكّت جدائلها الليلية واحدة بعد الأخرى،

٣٦١٠ - وكانت تحثو التراب على رأسها حزنًا من الفراق، وتمرغ وجهها الملىء بالدم على الأرض،

- ونأت عن السرور، واقتربت بالحزن، وكانت عيناها تمطران الدموع وهى تقول:

- «يا بلسم آلام المتألمين! وراقى بدوائك الصدور الكليمة،

- وأمل قلب كل يائس، وفاتح الأبواب الستة أمام كل من أغلقت أمامه الأبواب!

- ومحضر مفاتيح الأبواب المغلقة، ورابط جبائر القلوب المحطمة،

٣٦١٥ - ومخلص المهجورين من الحزن، ومخفّف الآلام الثقيلة كالجبل،

- إننى أسيرة قلبى الجريح، وأصبحت فى حيرة من أمرى،
- ولا أملك القدرة على فراق، فانزع روحى من جسدى مع روح يوسف،
- فإنى لا أريد الحياة بغير جماله، ولا أرغب فى البقاء فى مملكة الحياة،
- ذلك أن شجرة العمر بغير أوراق، والحياة الأبدية بغيره موتٌ محض،

٣٦٢٠ - وليس مستحبًا فى قانون الوفاء أن أكون فى الدنيا وهو غير موجود،
- ومالم تجعله رفيقا لى، فأخرجنى فى البداية وهو من ورائى،
- فإنى لا أود أن أجلس وحيدة، بعيدة عنه، وأرى الدنيا بغير جماله».
- وقضت حياتها هكذا فى البكاء والحرقة، دون أن تفرّق بين الليل والنهار،
- حقًا إن كل من يضيق قلبه بسبب الحزن، يظهر الليل والنهار أمام سيّان.

وفاة يوسف عليه السلام، وهلاك زليخا حُزنًا على فراقه

٣٦٢٥ - وفى اليوم التالى، فإن يوسف - وقت السحر - وقد سرت القلوب من بركة الصباح،

- لبس الملابس الملكية، وخرج قاصدًا الركوب،
- وحينما وضع قدمه فى الركاب، قال له جبريل: «لا تتعجّل أكثر من ذلك!
- فليس هناك أمانٌ من الفلك الساحق للعمر، حتى تمسّ قدمك الركاب الآخر،
- فالْوِ العنان عن الآمال والأمانى، واسحب قدميك من ركاب الحياة».

٣٦٣٠ - وحينما سمع يوسف هذه البشرى، نسى - لسروره - الدنيا،

- ونشر ذيل الهمة من الفرحة، واستدعى واحدًا من وارثى الملك،
- وجعله ملكًا لذلك الإقليم خلفًا له، ونصحه بالتّحلى بالأخلاق الحميدة،

- ثم قال: «استدعوا زليخا، واجعلوها تصل في موعد وداعي».

- فقالوا: «إنها عاجزة في يد الحزن، وقد هوت مستسلمة بين التراب والدم،

٣٦٣٥ - وليس لروحها قدرة على تحمّل هذا العبء، فدعها وما هي فيه».

- فقال: «أخشى أن يبقى جرح هذه الخسارة في قلبها حتى يوم الحشر».

- فقالوا: «فليهبها الله الرضا، وليقوّ رباطها بالقناعة».

- ثم هبطت تفاحة إلى كف جبريل، كانت تتزين بها جنة الخلد،

- وحينما وضع تلك التفاحة في يد يوسف، شمّها وأسلم الروح في الحال،

٣٦٤٠ - فقد وجد قلبه فيها رائحة بستان البقاء، فأسرع إليها طلبًا لتلك الرائحة

- وحينما فاضت روح يوسف، علا عويل الحاضرين من أعماقهم،

- وقد مضى من عمره مائة وعشرون عامًا، وبكت جميع الوحوش والطير لموته،

- ولشدة علوّ صوت العويل، تردّد صداه فى السماء،
- فقالت زليخا: «ما هذه الجلبة؟ وما هذا العويل؟ ولأى سبب امتلأت الأرض والسماء ضوضاء؟»

٣٦٤٥ - فقالوا لها: «إن الملك العظيم قد انتقل من فوق العرش إلى النعش،
- وودّع الدنيا الضيقة، واتخذ له مسكنًا فى أوج قصر اللامكان».
- فلما سمعت هذا الكلام فقدت وعيها، وخبا ضوء عقلها المنير من جسدها،
- وهوت تلك السروة الباسقة على الأرض كالظل ثلاثة أيام من هول هذا النبأ،
- وحينما استيقظت من غفوتها فى اليوم الرابع، أعادها سماع هذا الخبر إلى حالة اللاوعى،

٣٦٥٠ - وكانت تفقد الوعى هكذا ثلاث مرات لمدة ثلاثة أيام، بسبب جرح صدرها الحارق،
- وحينما أفاقت فى اليوم الرابع ثانية، استفسرت عن يوسف قبل كل شىء،
- إذ لم تجد له أثر على وسادة السرير، ولم تستشعر وجود تابوته فى هذا العالم،

- ولم يخبروها عنه إلا أنهم أودعوه التراب كالكنز،
- فشقت طوقهـا فى البـداية من ظلم الفلك الطاغى، وكأنها الصباح،

٣٦٥٥ - ففتحت - بشقها طوقها - طريقًا لتلك النار التى كانت مختفيةً فى قلبها،
- بيد أن النار الحارقة كانت تزيد أعماقها كل لحظة، ولا تقل عن ذلك الطريق،
- وكانت تحفر بأظافرها ثقوبًا فـى وجهها، فتشقّ لينابيع الدم أنهارًا،
- وجعلت الياسمين مكانًا لجلوة الأرجوان، فى كل نهر سيّرته من ذلك الينبوع،
- وصنعت بأظافرها خطوطًا على وجنتها الوردية، كأنها عروق الظلام فى عين مضيئة،

٣٦٦٠ - وكـانت تدق بالحجـر على صدرها حـسرةً، وتصـفع وجهها الوردى،
- فكان ينمـو من الفـضة عـقيق ندىّ كـمـا كان ينمـو النيلوفر من ذلك الصفع على الشقائق،
- وحملت قبضـتها إلى رأسها الرقيقـة، وأخذت تدقها بقبضتها القوية،

- وجردت سرو بستانها من الريحان، حيث أفرغت جدائل سنبله بالقطف،
- وأخذت تنوح من قلبها، وتولول من روحها، وأخذت تصيح من أعماقها الحزينة،

٣٦٦٥ - وكانت تقول: «أين يوسف وعرشه المزيّن؟ وأين عطفه على المحتاجين؟
- وما دام قد أحكم عزمه على الرحيل من هنا على حصان محكم، وقصد ملك الخلود،
- وما دام إسراعه فى هذا الرحيل كان زائدًا حتى أننى لم أتمكن من تقبيل ركابه،
- فكيف خرج من هذا الكون المضاعف للأحزان، وما كنت فى حضوره حين رحل؟
- وما رأيت رأسه وهى موضوعة على الوسادة، وما جمعت العرق الندى من صفحة نسرينه؟

٣٦٧٠ - فحينما أصاب ذلك الجرح العميق جسده، ما جعلت صدرى سندًا لظهره،
- وحينما حمل متاعه من مكان العرش صوب النعش، سعدت تلك الخشبة كالعرش،
- وما طلبت ماء الورد من عينى الساكبة للدم، وما غسلته بذلك الماء الوردى الصافى،

- وحينما أعدّوا له كفنه، وشغلوا بتكفينه،
- ما علمت نفسى فن تجميع الخيوط، حتى أربط عليه جسدى الهزيل،

٣٦٧٥ - وحينما حطموا الأشواك من الغم فى قلبى، وربطوا محمله بعد نهاية رحلته الدنيوية،
- فإنى ما جعلت فمى الملىء بالأصوات غير المرتبة جرسًا لمحمله،
- وحينما شقوا مكان نومه فى التراب، وأودعوه كالدّر الطاهر فى الأرض،
- فإنى لم أكنس الأرض تحت صدره وكتفه، ولم أنم فى حضنه كما يهوى قلبه،
- فواحسرتاه على هذه الخسارة!! واحسرتاه! وواحسرتاه من هذا العناء!!

٣٦٨٠ - فيا أمنية الروح، أقبل، وتأمل حرمانى! وانظرُ ظلمى من حيف السماء!
- لقد رحلت عنى، ولم تذكرنى، ولم تسعدنى بالنظر إليك،
- وما كان هذا وفاءً منك أيها الوفى، وما كان هذا طريق الصداقة مع الأصدقاء،

- ولفظتنى من قلبك ورحلت، ومضيت ملقيًا بى بين التراب والدم،

- وكسرت فى قلبى شوكة عجيبة، لن تخرج إلا من طينتى،

٣٦٨٥ - لقد ذهبت إلى مكان لم يعد منه شخص ثانية فى وقت من الأوقات،

- فمن الخير أن أنشر جناحى من هذا، وأقبل نحوك برفرفة جناح واحدة»

- قالت هذا وطلبت صاحب الهودج، وأمرته بإعداد هودجٍ لها،

- فأسرع بها من منزل الأحزان هذا إلى مقر رحلة يوسف،

- فلم ترهناك أثرًا للجوهر الطاهر، سوى كومة من التراب الرطب،

٣٦٩٠ - وألقت تلك الشمس الرفيعة القدر بنفسها كالظل فوق الكومة،

- فذهبتها بوجنتيها، وخضّبتها من ياقوت دموعها،

- فتارةً تقبّل رأس القبر، وتارةً تقبل القدم، وهى تصيح: «واويلتاه! واويلتاه!

- تواريت أنت فى التراب كالماء، وبقيت أنا خارجه كالأشواك والقش،
- واحتجبت فى الطين كجذور الورود، وأنا فوق السطح كغصن الورد النضر
٣٦٩٥ - وسكنت تحت التراب كالكنز، وأنا أزن جواهر السحب من فوقه،
- لقد أثار طيفك موج الدم على ترابى، وأضرم فراقك اللهب فى هشيمى،
- وأشعلت النار فى نخالة وجودى، فأخذ دخانى يتلّوى إلى السماء،
- وما فتح أحد عينه لدخانى، حتى لا تنسكب من عينه الدموع».
- وكانت تنوح وتمزق صدرها كل يوم مائة مرة، وتتمرغ بحسراتها على التراب،
٣٧٠٠ - وحينما تجاوز ألم حسرتها الحدّ، نكّست رأسها على عادة التقبيل،
- وأدخلت أصابعها فى عينها، وأخرجت النرجستين من مكانهما،
- وألقتهما من كأس رأسها على تراب الأرض، ذلك أن زراعة النرجس فى التراب أفضل،

- فحينما تبتعد العينِ عن ورد وجهك، فأى جدوى منها في ذلك البستان؟

- فقد كان من عادة المحزون الحائر أن ينثر اللوز الأسود على التابوت،

٣٧٠٥ - ولما كانت تلك المسكينة قد ابتعدت عن تابوته، فقد نثرت لوزتين سوداوين على ترابه،

- ووضعت وجهها الدامى على قبره، وقبّلت الأرض بتواضع، وأسلمت الروح[١]،

- فما أسعد ذلك العاشق الذى يسعد بوصال أحبته، حينما تفيض روحه،

- وحينما أبصرت رفيقاتها حالها، صحن وولولن من أعماقهن،

- فكل نوحةٍ ناحتها على يوسف، نحنها عليها بكل ألم،

٣٧١٠ - فكن ينحن على النائحة كما ناحت على ذلك الفضى الصدر،

- ولما انخفضت أصوات نواحهن، شمّرن سواعدهن لغسلها،

[١] تذكرنا هذه الصورة بموت "شيرين" بعد "خسرو" في قصة نظامى الكَنجوى: «خسرو وشيرين».

- فغسلنها بدموع عيونهن، كما تغسل أمطار الربيع ورقة الورد،

- وكفنّها بكفن أخضر، كأنما هى برعمة نبتت من غصن ياسمين،

- ونظفن وجهها من غبار الفراق، وأودعنها الثرى بجوار يوسف،

٣٧١٥ - ولم ير أحد قط هذه السعادة من الموت، فينال صحبة الأحبة بعده.

حكاية

- بيد أن راوى هذه الحكاية الحلوة، التى يحكيها عن قدامى الرواة،
- يروى أنه قد تم دفن جسد يوسف الطاهر على كل من ضفتى النيل،
- فظهر القحط والوباء فى الضفة الأخرى، وعمت أنواع البلايا مكان النعم،
- فاستقر رأيهم، فى نهاية المطاف، أن يضعوه فى تابوت حجرى،

٣٧٢٠ - قاموا بطلاء ثقوبه بالقار، ثم رموه فى قاع النيل[1]،

- فتأمل الحيلة التى صنعها الفلك الغادر، ليبعدها عن يوسف حتى بعد موتها،
- ولست أدرى أى حقد يكنه الفلك لهما، حتى إنه لم يتركهما هادئين تحت التراب،

[١] يقول البغوى. «.... دفن فى الجانب الأيمن من النيل، فأخْصَبَ ذلك الجانب وأجدب الجانب الآخر، فنقل إلى الجانب الأيسر فأخصب ذلك الجانب وأجدب الجانب الآخر، فدفنوه في وسطه وقدروا ذلك بسلسلة، فأخصب الجانبان جميعاً...»
تفسير البغوى على حاشية الجزء الرابع من تفسير ابن كثير. ص ٤٨٢ - ٤٨٣.

- فأحدهما غريق فى بحر الـعشق، والآخر يحترق ظمأ على شاطئ الفراق،

- فما أطيب ما قاله ذلك المحنك فى أمور العشق، الذى استراح خاطره به من كل كسب وخسارة:

٣٧٢٥ - «حيثما يروج سوق العـشق، لا تقترن الراحة بأمر من الأمور».

- فالكفن يتمزق على العاشق بسببه، حتى لو كان تحت الثرى،

- فلا أحد يقـول إن شخصًا قد مـات، فقد ذهبت تلك المرأة بكل شجاعة،

- لقـد اقتلعت عـينيهـا بادئ الأمر حـتى لا ترى غيـر المحبوب، ثم ألقت بعد ذلك بنقد الروح،

- فلتهبط الرحمات على روحها وجسدها، ولتضئ عين قلبها برؤية الأحبة.

الإشراف اللغوى : حسام عبد العزيز
الإشراف الفنـــى : حســن كامـــل



نظم الشاعر هذة القصة سنة 888 هـ وهو في السبعين من عمره، وقدمها الي «حسين بايقرا» حاكم خراسان ·

ويصل مجموع أبيات هذه القصة أربعة آلاف بيت، نظمها في بحر الهزج المسدس، وهو وزن لم يسبقه أحد إليه ممن نظموا هذه القصة قبله ·

ويكاد القدماء والمحدثون يجمعون علي أن هذه القصة من أفضل ما خلف الشاعر من أعمال، إن لم تكن أفضلها جميعا، حيث يقول «سير دينيسون روس »:

«تعتبر منظومة الجامي خير ما نظم في هذا المجال، وقد نالت شهرة واسعة، ولاشك أنها اكتسبت شعبية كبيرة»

أما «براون» فيري أن الجامي قد تبوأ منزلة عالية بنظم هذه القصة، وأن «شهرته قد حلقت في الافاق بسبب

وقد اهتم عبد الرحمن الجامي بإضفاء عنصر ج
في قصته، ألا وهو جانب التصوف.

تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي - قطع من لوحة يوسف وزليخة من أعمال الفنان الإيراني بهزاد